ليـــــــبيـــــــا

جامعة طرابلس كليـة الآداب

قسم التاريخ شعبة التاريـخ الوسيط للدراسات العليا

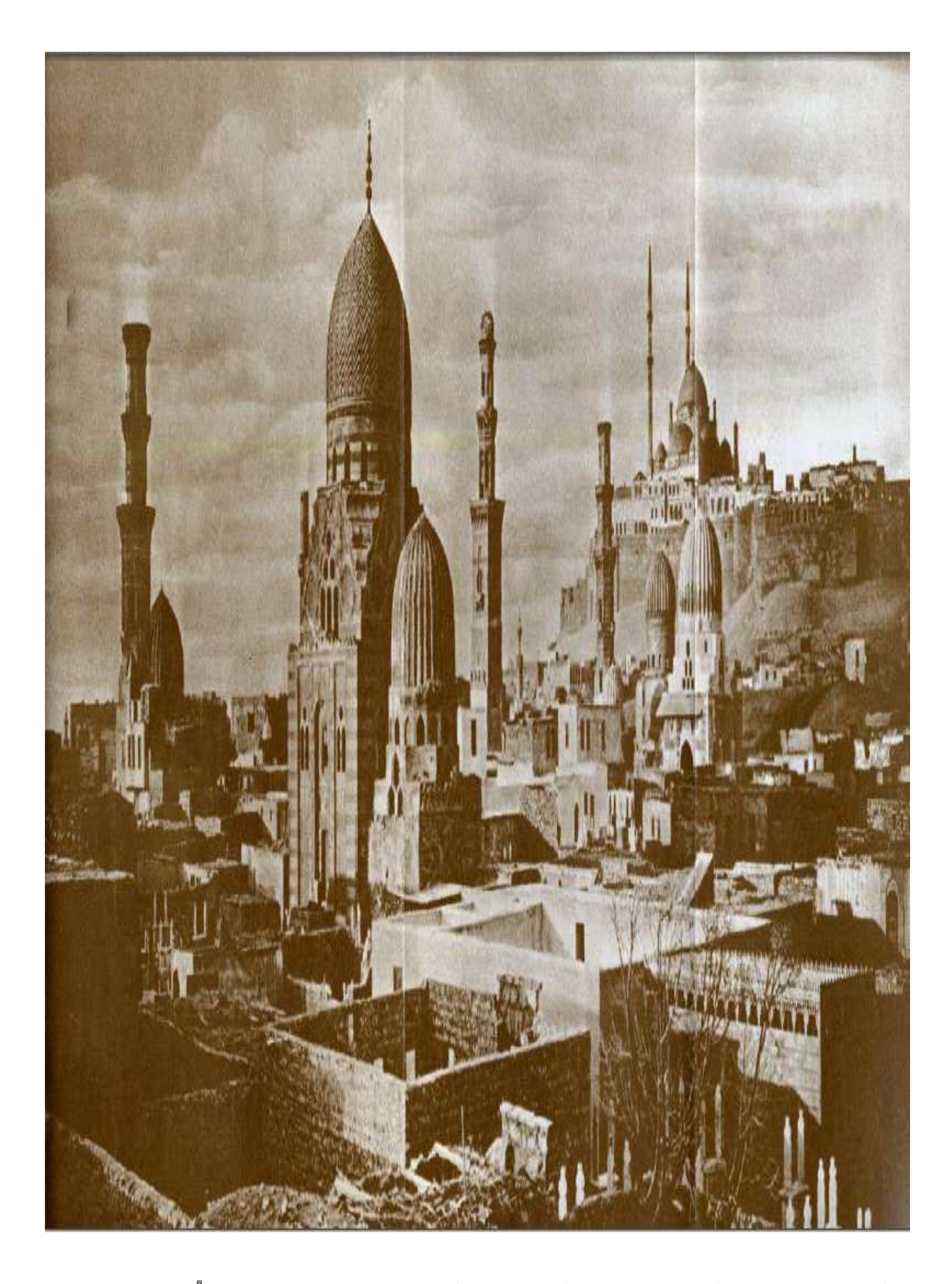
البنية السياسية والإدارية لدولة صلاح الدين الأيوبي و دورها في حركة الجهاد ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي (569-589هـ/1173-1193م)

رسالة علمية مقدمة لنيل شهادة الإجازة العالية (الماجستير) في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب : أسامة عبد الحميد وريّث

إشراف الدكتور : عبد الواحد عبد السلام شُعيب

فصل الربيع / 2012 م



البنية السياسية والإدارية لدولة صلاح الدين الأيوبي ودورها في حركة الجهاد ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي (569-589ه/1173-1193م)

إعداد الطالب: أسامة عبد الحميد وريّث   إشراف الدكتور: عبد الواحد عبدالسلام شعيب

بسم الله الرحمن الرحيم

{ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ

فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا }

سورة فاطر ؛ آية (43)

الإهـــداء

إلي عائلتي الموقّرة؛ التي غرست فيّ حب المعرفة والبحث والثقافة والاطلاع ... عائلة وريّث ، وجميع أبناءها في مصراته وطرابلس .

إلى عماد الدين وريّث ؛ شهيد الأسرة ومُلهما ، وإلى أرواح كافة شهداء ليبيا، الأبرار ، الذين زكّوا بدمائهم الزكية الطاهرة، تراب هذا الوطن الغالي، أهدي هذا العمل .

الباحث

10 فبراير 2012

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سائر الأنبياء والمرسلين، اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

يسعدني وقد أنهيت العمل من إعداد رسالتي هذه؛ أن أتقدم بفائق الشكر والتقدير وبالغ الامتنان، إلى أستاذي الفاضل الدكتور؛ عبد الواحد شعيب، الذي أشرف مشكوراً على توجيه رسالتي هذه، حيث أحاطني بكل رعاية وعناية وأخاء، فأفادني بالتالي من غزير علمه وطيب إرشاداته، ورصين لغته، وعميق توجيهاته؛ مما كان له بالغ الأثر في إظهار هذا العمل؛ على صورته النهائية، الطيّبة .

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى أساتذتي الأجلاء بجامعة طرابلس، وأخص بالذكر منهم السيد الدكتور محمود أبوصوة؛ والذي استفدت منه كثيراً حقيقةً، ومن معلوماته، وطرق البحث وأدوات التفكير لديه، وتوجيهاته القيّمة؛ خصوصاِ ً خلال الفترة التمهيدية، المُعدة هي الأساس، وأتقدم بالشكر أيضاً إلى السيد الدكتور محمد مروان، رئيس قسم التاريخ؛ على نصائحه وإرشاداته خصوصا خلال فترة إعداد البحث، والى السيد الدكتور جمال عريكيز، الذي يتعيّن عليّ، أن أشكر له تزويده لي؛ ببعض الكتب والمصادر ذات العلاقة، بعد إرشاده وترشيده في اختيار هذا الموضوع، والى السيد الدكتور بشير التليسي، والسيد الدكتور عياد النقراط، والسيد

الدكتور رمضان الرياني على تشجيعهم لي، خصوصا خلال فترات التمهيد وورقات العمل . كما أشكر أيضاً منسقي الدراسات العليا على مستوى القسم؛ وهم السيد الدكتور محمد عيسى، والسيدة الدكتورة خديجة الطناشي، على طيب مساعيهم في تسيير ودعم العملية التعليمية بالقسم . والشكر موّجه أيضاً إلى كافة أساتذة القسم الأجلاء ، وجميع زملائي الطلبة . والى مكتبة كلية الآداب وقسم مبيعاتها بطرابلس، ومكتبة الدراسات العليا بالجامعة، والمركز الوطني للوثائق والمحفوظات بالعاصمة، ومكتبة زرّوق الأهلية بمصراته، ومكتبة كلية الآداب والدراسات العليا / مصراته .

كما لا يفوتني في هذه اللحظة؛ أن أتوجه بفائق التقدير والامتنان؛ للسادة الممتحنين؛ أعضاء اللجنة الموقرة، اللذين تفضلوا مشكورين؛ بمراجعة وتقييم رسالتي هذه؛ فلهم مني جزيل الشكر والتقدير، والعرفان والامتنان .

ولا يفوتني أيضاً أن أقدم الشكر؛ إلى أساتذتي وزملائي وأصدقائي من أساتذة ومعيدي قسم التاريخ، ومن أساتذة ومعيدي كلية الآداب، والذين لا يتسع المقام إلى ذكرهم، أو ذكر أسماءهم .

وفي الختام أقول؛ الشكر موصول إلى جامعة طرابلس المعمورة، والى رئيسها، ومدير إدارة الدراسات العليا بها، والى كلية الآداب الموقرة بها، والى عميدها، ومدير إدارة الدراسات العليا بها، وجميع القائمين على شؤونها العلمية والإدارية ؛ والله وليّ التوفيق .

(محتويــات الرســالة)

(الفصل الأول)

الخلفية السلجوقية والزنكيـة في البنية السياسية والإداريـة الأيوبية وظهور صلاح الدين الأيوبي

(الفصل الثاني)

دواوين الدولـة الأيوبيـة عهد صـلاح الدين الأيوبـي ودورها في حركة الجهاد

(الفصل الثالث)

النُّخبّ السياسية والإدارية / مؤسسات الدولة وطبيعة نظام الحُكم

(الفصل الرابع)

الفقهاء والقضاة والسفراء والشعراء؛ دورهم في تأليف بنية الدولة الأيوبية وتعزيز الجهاد ضد الصليبيين

(الفصل الخامس)

أسس وخصائص النظـام الإقطاعي الأيوبـي الشرقي

المقدمـة

نال تاريخ الدولة الأيوبية في المشرق الإسلامي، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بالعصر الوسيط، سيّما عصر المؤسس صلاح الدين الأيوبي . ودوره في تعزيز حركة الجهاد الإسلامي، ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي الصليبي . من الأهمية التاريخية والتأريخية، ما يعمق حقيقة دورها الريادي في المنطقة الإسلامية، خلال مرحلة من أخطر المراحل الاستعمارية في التاريخ، ونجاحها الكبير بالتالي؛ في فتح واستعادة مدينة بيت المقدس سنة (583هـ/ 1187م)، والتي فقدت من المسلمين خلال الحملة الإفرنجية الصليبية الأولى، ولمدة قاربت القرن تقريباً؛ (91 عاما) والتصدي لأكبر حملة صليبية شهدتها البلاد الإسلامية، وهي الثالثة؛ والتي جاءت بدافع انتزاع القدس من يد صلاح الدين وتحطيم القوة العسكرية الأيوبية، وإعادة احتلال الساحل الفلسطيني.

وقد مثل عصر السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي؛ أزهى العصور الإسلامية شهرة في التاريخ الوسيط، لم دونته كتب التاريخ والأدب والتراجم من مددٍ لسيرته الجهادية والنضالية؛ ضد الإفرنج الصليبيين، كما شهد عصره بروز العديد من النُخب والفئات السياسية والمدنية؛ كالكُتّاب والقضاة والفقهاء والشعراء، وارتقاء المؤسسات كالدواوين والإقطاع، والمدارس ذات التوجه الديني و(الأيديولوجي)/الفكري والنظري، لتنال مكانتها، وحظوتها في التاريخ السياسي والجهادي بالمنطقة، إلى جانب النُخب السياسية من صفوة القوم، وكبار الأمراء والقادة والسادة الإقطاعيين في الشرق الإسلامي؛ ومن هنا جاءت فكرة موضوع الرسالة والمعنونة بـ(البنية السياسية والإدارية لدولة صلاح الدين الأيوبي ودورها في

حركـــة الجهـــاد ضد الغـزو والاحتـلال الإفرنجي 569-589هـ/1173-1193م) لتدرس بشكل خاص ومحدد؛ تركيبة وبنية الدولة الأيوبية عهد صلاح الدين؛ مؤسساتها، ومكوناتها السياسية والإدارية، والمتمثلة في الدواوين الإنشائية والمالية والعسكرية، والتعريج على مجالس الدولة، وفهم طبيعة نظام الحكم، والتعرف على رجال البلاط من أرباب السيوف وأرباب القلم، والفئات المتقدمة بالدولة، ونمطها الأيديولوجي، ومؤسسة الإقطاع الحربي العسكري؛ ودوره إلى جانب المكونات السابقة؛ في تثبيت وتعبئة الدولـة بالجهـاد .

هيكلية الدراسة والخطة العامة لموضوع الرسالة؛ تقع في مقدمة، ثم خمسة فصول منقسمة إلى مجموعة مباحث؛ موزعة بدورها على عدة محاور، ثم خاتمة للدراسة ، ومجموعة ملاحق ووثائق وصور وخرائط، وقائمة لمصادر ومراجع الدراسة .

الفصل الأول و تحت عنوان (الخلفية السلجوقية والزنكية في البنية السياسية والإدارية الأيوبية، وظهور صلاح الدين الأيوبي) وهو فصل أولي، أصبغنا عليه الشكل التمهيدي، وقد تم تقسيمه إلى مبحثين وعدة محاور، يتطرق المبحث الأول منه إلى الخلفية القيادية للأمراء الأيوبيين في إمارات وأتابكيات الشرق الإسلامي؛ ظهورهم وتدرجهم في المناصب، حتى تولي ابرز قياداتهم وهو صلاح الدين الأيوبي؛ مقاليد الحكم في مصر، وإنهاءه بالتالي للنظام الفاطمي هناك، مع مرحلة ربط مصر إدارياً بالشام، بينما يناقش المبحث الثاني؛ مسألة تقاليد الوحدة وقواعد الجهاد

الإسلامي في الشرق، ذات الخلفية الزنكية في الشام، والظروف الاستثنائية التي نشأ بها صلاح الدين، والتي أثرت في توجهاته العامة، وتوجهات دولته الناشئة، والمسارات التي اتبعتها القيادة الأيوبية بخصوص مفاهيم الوحدة بين الأوساط الإسلامية، والإشكالية التي تخللتها، مع عرض تاريخي، لأبرز حيثيات وتقاليد الوحدة والجهاد ضد الصليبيين .

أما **الفصل الثاني** والمعنون بـ (دواوين الدولة الأيوبية عهد صلاح الدين الأيوبي ودورها في حركة الجهاد) – كجزء من التركيبة الإدارية الأساسية للدولة – فهو مقسم إلى ثلاث مباحث وست محاور، حيث سيتطرق المبحث الأول بالنقاش – بعد التعريف بماهية الديوان وعمله – إلى مسألة الارتباط الروحي بين صلاح الدين والمقام العباسي، و علاقة الديوان الصلاحي بنظيره العباسي، وأثره في تشكيل وتأليف بنية الدولة، إلى جانب الدعم العباسي (السيكولوجي)/الروحي والمعنوي، لحركة الجهاد الإسلامي ضد الفرنجة، وعموم الصليبيين . بينما يهتم المبحث الثاني بالتعرض إلى أبرز رؤساء الدواوين الأيوبية عهد صلاح الدين، الجانب الأهم والمؤثر في الرسائل الديوانية، عبر دواوين الإنشاء الأيوبية في مصر والشام، وأثرها في تحديد اتجاهات وتوجهات الدولة محلياً، إقليمياً، وخارجياً، وتعزيز حركة الجهاد ضد الصليبيين . وذلك بمعية أبرز كُتّاب الدواوين في ذاك الوقت؛ وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني؛ اللذان كانا من أبرز موظفي الدولة، وأكثرهم أهمية في صنع مراحل مهمة من تاريخها السياسي، والإداري، والجهادي . أما المبحث الثالث من هذا

الفصل، فلقد خصصناه لدراسة ديوانيّ الجيش وبيت مال المسلمين؛ كجزء من تركيبة المنظومة الإدارية لدولة صلاح الدين الأيوبي، وكنا قد تطرقنا خلاله إلى أهم النقاط المتعلقة بديوان الجيش الأيوبي، مهامه، أعماله، وأبرز رؤسائه، وأهميته كجزء من بنية وتركيبة الدولة الأيوبية الصلاحية ، وأهم النقاط ذات العلاقة أيضاً بديوان بيت مال المسلمين، إلى جانب محاولة تعقب السياسة المالية المتبعة داخل الأقاليم الأيوبية، عهد السلطان صلاح الدين، وما يتعلق بشؤون الإنفاقات، والعملة، والمكوس والضرائب، والتمويل العسكري، خصوصا في فيما يتعلق بشؤون الجهاد .

الفصل الثالث من الرسالة وهو بعنوان (النُخبّ السياسية والإدارية / مؤسسات الدولة وطبيعة نظام الحكم) وهذا الفصل ينقسم إلى مبحثين وأربعة محاور ؛ ويهتم برصد طبيعة وشكل النظام السياسي في دولة صلاح الدين، من حيث هرميته، وصفاته السلطانية والملكية الناصرية، المتداخلة في تركيبة النظام السياسي الصلاحي، إلى جانب أبرز مجالس الدولة التي تُعقد من خلالها وتصنع أهم وأحلك قرارات الدولة؛ الداخلية والخارجية، كما تطلعنا عليه المصادر، وهما مجلسيّ الشوري والعدل؛ وأثرهما بالتالي في توجيه سياسات ومسارات الدولة، خصوصاً على الصعيد الخارجي/الجهادي . بينما سنتطرق خلال المبحث الثاني إلى التعريف والتعريج بأبرز أرباب الدولة من نواب، وأمراء وموظفين، وقادة ومقدمين؛ والوقوف على دورهم السياسي والجهادي داخل إطار الدولة. مع مبادرة منفردة؛ ستكون لرصد وتتبع الاتجاه (الثيولوجي)/العلوم ديني، و(الأيديولوجي) / العقائدي والفكري للنظام الأيوبي، والنمط الديني الذي كانت تتألف عليه بنية الدولة الإسلامية، عهد صلاح الدين الأيوبي؛ وأثره مع باقي الأنماط والاتجاهات؛

في سياسة ومسارات الدولة داخلياً، وتعبئتها بالجهاد ضد الصليبيين خارجياً.

أما **الفصل الرابع** وهو تحت عنوان (الفئات المتقدمة في الدولة والمجتمع/ الفقهاء والقضاة والسفراء والشعراء؛ ودورهم في تأليف بنية الدولة وتعزيز الجهاد ضد الصليبيين) وهو ينقسم إلى ثلاث مباحث؛ وقد اهتممنا خلال هذا الفصل بدراسة فئات الفقهاء والقضاة والسفراء والشعراء؛ وهم أبرز الفئات المدنية التي مارست التوجيه السياسي في دولة صلاح الدين، فألسنة الشيوخ كانت في ذاك الوقت، بمثابة أبواق دعاية دينية وسياسية قوية جداً، وقد كانوا – إلى جانب دورهم الوظيفي الديني – أداة مهمة ورئيسية في الدعاية والترويج؛ ما يشبه الإعلامي، لسياسات النظام الصلاحي، كما ساهموا في تعبئة الجيش، روحياً و(سيكولوجياً) خصوصاً في ميادين القتال. أبرز رجالات الدولة في هذا المجال؛ كان الفقيه المقدم؛ عيسى الهكاري، والعالم الزاهد؛ نجم الدين الخبوشاني، والقاضي محي الدين بن الزكي، وهؤلاء جميعاً كانوا مقدمين بالسلم الوظيفي، وكانوا أدوات ناجحة في دعم وتسويق سياسات الدولة الداخلية والخارجية، وتأييد وتشكيل توجهاتها الجهادية، والإقليمية التوسعية، وذلك النجاح كان بين الرعية وأمام الرأي العام، كما جرى اهتمام النظام الأيوبي بالسفراء، والرسل، الذين كان لهم دور في توطيد العلاقات بين القوى الإسلامية، إلى جانب نقل الشعائر والبشائر إلى الديوان العزيز العباسي ببغداد، وعقد الهدن والمعاهدات، في أوقات النزاع أو الاتساع والجهاد . أما الشعراء والمدوّنين؛ فلقد كانوا يدعمون الأهداف السياسية والتوجهات الجهادية للدولة الصلاحية، وقد كانوا من الفئات المضطلعة بالدولة، وكان لهم مركزهم المرموق بها، نذكر منهم الشاعر الأمير؛ أسامة بن منقذ، والرشيد بن النابلسي، ونجم الدين بن

المجاور؛ وغيرهم من شعراء الحماس والجهاد، الذين كان لهم دور بارز ورائد؛ في رفع و تأجيج الروح الحماسية لدي الجند وقادة الجيش .

الفصل الخامس والأخير؛ هو بعنوان (الإقطاع الشرقي الأيوبي / دراسة في النظم، الأسس، الطبيعة، والخصائص) وقد اعتنينا خلال مبحثه الأول، بعرض جوانب متعددة من طبيعة وخصائص الإقطاع الأيوبي، عهد صلاح الدين، علاقته بالنظم الإقطاعية السالفة؛ كالسلجوقية والأتابكية ، شروطه، عطاءاته، وأهم القوى الإقطاعية ذات العلاقة الأيوبية في الشرق . في حين تعمدنا خلال المبحث الثاني، وعلى النهج التحليلي؛ عرض مزايا وملامح نظام الإقطاع العائلي، الذي اصطبغ به الإقطاع الأيوبي، على عهد صلاح الدين، وما صاحبه من عيوب ومشاكل ذات صلة بالتوريث الإقطاعي ، أما المبحث الثالث وهو آخر مباحث الرسالة، فلقد خصصناه لعرض ودراسة، دور وجهود القوى الإقطاعية؛ في تثبيت دعائم الحكم الأيوبي في الشرق، وأثرهم في دعم و تعبئة الدولة بالجهاد ضد الفرنجة الصليبيين، مع التركيز على أهم مكونات الجيش الإسلامي عهد صلاح الدين؛ عناصره وتعداده، وأبرز القوى والنماذج الإقطاعية في الشرق، من أمراء وفرسان وأصحاب العساكر كما ورد ذكرهم في المصادر المختصة.

تقع **أهمية الموضوع** في كونه يدرس وبشكل خاص، ومحدد؛ تركيبة ومكونات البنية السياسية والإدارية للدولة الأيوبية؛ عهد صلاح الدين، وتأثيرها في ردود الفعل الصلاحية، من الغزو والاحتلال الإفرنجي للشام، و**تهدف** الرسالة إلى إبراز وتوضيح البنية السياسية والإدارية، التي كانت

عليها دولة صلاح الدين الأيوبي، ورصد حقيقة خلفيتها البنيوية والتأسيسية، والأهم من ذلك توضيح أثر وأهمية تلك البنية؛ في دعم الموقف الجهادي ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي. وإبراز مكانة المجالس والمدارس والدواوين والنظم الإقطاعية، وأثرها في تثبيت الدولة سياسياً وتعبئتها بالجهاد خارجياً. كذلك تهدف الرسالة إلى فرز واستبيان الأنماط (الثيولوجية)/العلوم دينية، و(الأيديولوجية)/المذهبية والفكرية، وأثرها على مسار وسياسات الدولة، مع التعريف بكبار أرباب الدولة من مستشارين ونواب وأمراء وقادة ومقدمين وموظفين؛ فقهاء وقضاة، سفراء وشعراء، حيث سنتعمد توضيح وإظهار دور هذه الفئات والمؤسسات والمكونات، في بنية وتركيبة الدولة، وأثرها بالتالي على حيوية ونجاعة ردود الفعل الإسلامية الأيوبية الصلاحية، من الغزو والاحتلال الصليبي؛ عهد السلطان المؤسس، صلاح الدين الأيوبي .

السبب في **اختيار الموضوع** يرجع إلى إننا لم نجد في الواقع دراسة علمية معينة، ومحددة، درست بشكل محدد وعميق، مباشر ودقيق؛ شيئاً مستفيضاً عن مؤسسات الدولة الأيوبية عهد صلاح الدين، وأثرها بالتالي على (دينامية)/ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين، مع رصد خلفيتها البنيوية والتأسيسية، كجزء من **الإشكالية** التي تتخلل هذه الدراسة، وعلاقتها بالنظم والتقاليد السلجوقية، والزنكية الأتابكية السالفة، من حيث كونها وليدة عصرها، أم كانت نتيجة تراكمات سياسية وإدارية سابقة، مرت بها المنطقة خلال فترات وعهود فائتة . وعما إذا كانت القيادة الأيوبية قد ابتكرت شيئاً جديداً وإضافياً؛ داخل بنية الدولة الإسلامية نفسها، أم كانت في وجهها الأخر مطبقة تماماً، لتجربة النصف قرن الماضية، أو الستين عام، السلجوقية السالفة . ومن هنا جاء السبب في اختيار الموضوع والحرص على تتبعه وإشكاليته بالبحث والتحري والتمحيص.

المنهج المتبع خلال الرسالة سيكون على طريقة السرد والتحليل والنقاش .

الإطار الزمني: يبدأ بشكل أساسي منذ عام (569هـ/1173م) أي منذ تولي صلاح الدين الأيوبي، مقاليد الحكم بشكل مستقل في مصر، أثر وفاة الملك العادل نورالدين محمود، وتنتهي الدراسة عند عام (589هـ/1193م) وهو العام الذي توفي فيه السلطان الناصر صلاح الدين؛ بعد رحيل الحملة الصليبية الثالثة .

الإطار المكاني: يقع في داخل حدود أقاليم الدولة الأيوبية (الفيدرالية) الاتحادية ذات الحكم الذاتي، والممتدة من أطراف غربيّ العراق وبلاد الموصل شرقاً، حتى إقليم برقة غرباً، مروراً بمصر والشام والحجاز في الوسط . ومن ديار بكر، وبلاد ما بين النهرين وجنوب الأناضول شمالا؛ حتى اليمن جنوباً .

بعض تساؤلات في الدارسة:

1- هل صنع صلاح الدين مجد دولته وشهرته بيده، أم ثمة نخبة من السياسيين والإداريين ، مستشارين وأمراء، قادة وقضاة، ساهموا في صنع قرارات الدولة، وكان لهم الفضل في تحديد اتجاهاتها السياسية وتوجهاتها الجهادية؟

2- ما هو طبيعة نظام الحكم في دولة صلاح الدين؟ وهل كانت الدولة الصلاحية دولة الرجل الواحد؟ أم دولة النُخب والمؤسسات ؟

3- ما هي طبيعة وخصائص الإقطاع الأيوبي عهد صلاح الدين؟ وما هي نظمه وشروطه، مزاياه وعيوبه ؟

4- هل يمكن اعتبار الإقطاع الأيوبي نظاماً مستحدثاً وانقلاباً عن النظم الإقطاعية السلجوقية والأتابكية؟ أم هو امتداد للإقطاع الشرقي في المشرق الإسلامي؟

5- ما هي خصائص المؤسسة العسكرية المحققة للانتصارات الحاسمة ضد القوى الفرنجية؟ وهل امتلك الناصر صلاح الدين جيشاً أيوبياً مستقلاً؟ أم كان يعتمد على الفرق الإقطاعية، والمجاهدين و الغزاة والمتطوعين؟

6- ما هي النظم الإدارية والسياسية المبتكرة في دولة صلاح الدين؟ وما هو الموروث منها من النظم السالفة؟

7- كيف ساهمت بنية الدولة الصلاحية في التعبئة وتطبيق الجهاد ضد الفرنج ؟ وهل كانت تلك البنية نتاج واقع الدولة الإسلامية الأيوبية؟ أم كانت نتيجة تراكمات سياسية إدارية موروثة عن نظم سلجوقية وأتابكية زنكية سالفة، بلغت مرحلة نضجها في عهد صلاح الدين الأيوبي ؟

الدراسات السابقة والمتصلة اتصالاً مباشراً بهذا الموضوع؛ تعتبر قليلة، ولعل رسالة (موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي 492 – 660هـ / 1098 – 1262) للباحث جمال محمد عريكيز؛ أكثرها قرباً وتداخلاً مع بعض جوانب الرسالة؛ كالجوانب المتعلقة مثلاً بشؤون القضاة والفقهاء، وهي رسالة ماجستير، منشورة سنة 2000، بمركز جهاد الليبيين، طرابلس، تتكون من أربعة فصول، منقسمة بدورها إلى مجموعة من المباحث والمطالب، بالإضافة إلى مقدمة الدراسة، وخاتمتها، وملاحقها، وقائمة المصادر والمراجع المتعلقة بها، وهي دراسة تهتم بالدور الديني

والخطابي والعملي، لفقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي. والدراسة توضح كيف شارك الفقهاء والقضاة؛ في التعبير عن امتعاضهم من الوجود الصليبي، سواء برفضه، أو التحريض ضده، والدعوة إلى الجهاد، أو بالمشاركة الذاتية في القتال . وتتقاطع هذه الرسالة مع رسالتي، في النواحي المتعلقة بإبراز دور النُخب المدنية من قضاة وفقهاء، وشيوخ وأئمة ووعاظ، وغيرهم، في المجتمع الإسلامي بالشام؛ من حركات الجهاد الإسلامي ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي؛ خلال مراحل المقاومة والجهاد ضد الوجود الفرنجي الصليبي بالشرق .

وبالنظر في **أهم مصادر ومراجع الرسالة؛** فإننا عقدنا دراسة تحليلية نقدية مقارنة؛ للتعريف بأبرز مؤرخي البحث؛ الذين أفادونا كثيراً خلال اشتغالنا بهذا الموضوع، والذين تتصل كتاباتهم التاريخية اتصالاً مباشراً بموضوع الرسالة، وقد كانت النتاجات الأدبية في الواقع، والإنتاجات التاريخية المكتوبة بالعربية في عهد صلاح الدين بالذات، والفترة المحيطة به؛ أكثر عدداً وأكبر حجماً من نظيرتها المكتوبة باللاتينية، وذلك على عكس مما كان معروفاً خلال فترة الحملة/الحقبة الصليبية الأولى، وقد اعتمدنا وتعمدنا بناء وتأسيس رسالتنا هذه، تأسيساً مصدرياً أولياً، دون الاعتماد بشكل أساسي على الأعمال الثانوية والمرجعية وما يدخل في نطاقها، خصوصا وأننا مضطرون لاستخراج معلوماتنا هذه، والتي نصبو إليها؛ استخراجاً شاقاً وجاداً؛ من بطون الكتب ومن بين سطورها أيضاً، سيّما وأنها – خصوصاً المعلومات المتعلقة بالشؤون الديوانية منها، والنظم الإقطاعية والوظائف والمعاملات والتوجهات والاتجاهات – غارقة في المتن، وعالقة بين النصوص والفقرات، فلا يمكن بالتالي العثور عليها طافيةً بكل بساطة، وفي منتهى الوضوح، أو أن تكون في هيئة عنوانين، أو

أن تكون مبوبة في فهارس ومحتويات. ومن جانب آخر نوّد أن ننوه أيضاً؛ إلى أن دولة صلاح الدين؛ كانت قد أخرجت لنا ثلاث من أشهر المؤرخين في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب؛ ممن سجلوا أعمال المسلمين وانجازاتهم الفريدة؛ في مناهضة الوجود الصليبي في بلاد المشرق الإسلامي، وان كان التدوين التاريخي في ذاك الوقت مقتصراً على شخص صلاح الدين وحده، مع من يدور في فلكه من أعيان وشخصيات، وأحداث وحوادث، ويأتي في مقدمة هؤلاء قاضي قضاة العسكر الأيوبي، وكاتب سيرة صلاح الدين، وهو القاضي بهاء الدين بن شداد، ثم الكاتب الأديب ورئيس ديوان الإنشاء بدمشق، العماد الأصفهاني، إلى جانب متولي ديوان بيت مال المسلمين بمصر؛ الوزير الأسعد بن مماتي، دون أن نغض النظر، عن ما يعرف بالمتجددات، وهي يوميات ورسائل ديوانية مهمة، تركها لنا القاضي المستشار رئيس الديوان المصري؛ القاضي الفاضل، والتي حُفظت لحسن الحظ في مصادر أخرى؛ ككتاب الروضتين . وجميع هذه المصادر المذكورة إلى جانب كتب/مؤلفات أولية أخرى – مثل كتاب (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي و(الاعتبار) لابن منقذ و(الكامل) و(الباهر) لابن الأثير و (زبدة الحلب) لابن العديم – تعد من الكتب المهمة في العلاقات، والمستخدمة بشكل أساسي حتى في الدراسات والأعمال الأجنبية .

بالنسبة لأهم مؤرّخي مصادر البحث؛ حسب المعايير الزمنية، والاعتبارات العلمية والعملية، والقيّم التاريخية؛ يأتي الأصفهاني/العماد الكاتب، أبوعبدالله محمد بن صفي الدين حامد الأصفهاني، ولد بأصفهان عاصمة سلاجقة بلاد فارس، عام (519هـ/1125م) وتوفى في دمشق عاصمة الدولة الأيوبية في الشام، سنة (597هـ/1200م) وهو أحد كُتّاب

صلاح الدين، ورئيس ديوانه الإنشاء بدمشق، درس في بداياته ببغداد، مقر الخلافة العباسية، ثم اشتغل بصناعة الكتابة والوظائف الإدارية هناك، حتى تم تكليفه بالنظر في شؤؤن البصرة وواسط بالعراق، ثم تولى رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق، والتدريس بالمدارس في عهد الدولة النورية، ثم استمر في عمله بتوجيه من القاضي الفاضل؛ مستشار صلاح الدين في ذلك الوقت، وذلك بعد وصول الأيوبيين إلى الحكم في الشام، و نعتبره قطعاً المؤرخ الأوّل الذي يعد من أهم مؤرخي فترة البحث، ترجع أهميته إلى كونه من كبار رجال الإدارة في الدولة الأيوبية الصلاحية، وأحد المقدمين القائمين على شؤؤن الديوان، والمطلعين على كافة المراسلات والوثائق، وقد ألّف الأصفهاني مصنّفين في التاريخ، هما (البرق الشامي) – وأغلب أجزاءه السبع مفقودة – ثم (الفتح القسيّ في الفتح القدسيّ) وهو من الأعمال العظيمة والمحفوظة، ويقع في مجلد واحد . وهما عملين تاريخيّين حول حروب صلاح الدين، فتوحاته وسطوته، أعماله ومراسلاته، نضاله وجهاده ضد الفرنج، واسترداده بالتالي لبيت المقدس مع أربع وسبعون فتوحاً بالشام والساحل الفلسطيني، غير أن الفتح القسيّ يعد الأهم بالنسبة لموضوع البحث، نظراً للفائدة النصية والوثائقية الكبيرة؛ التي قدمها لنا، باعتباره سجل تاريخي، وثبت دقيق حول مراسلات وسياسات صلاح الدين وفتوحاته، كتبت بطريقة أدبية شعرية، مبنية على أسس جميلة من السجع والجناس والطباق، وبعض الأساليب الوحشية الحماسية أحياناً، والأساليب (الفلكلورية)/ أي قائمة على أنماط مغايرة من الأدبيات/الثقافات الشعبية، المعادية للوجود الفرنجي في الشرق، أحيانا أخرى . وقد ترك لنا العماد الكاتب رسائل قيمة في السياسة، والتخطيط والتحريض على الجهاد، وأخرى، ساهم من خلالها في لملمة الصف الإسلامي، وتوحيد الصفوف

أمام الفرنجة، والتنبيه – إلى جانب زميله المستشار القاضي الفاضل – عن مخاطر الحملة الصليبية الثالثة، كما منحنا معلومات هامة؛ عن كبار القادة والمقدمين، والسادة الإقطاعيين والموظفين، والنواب والقضاة والفقهاء والسفراء وغيرهم بالدولة، وأمدنا بمعلومات أصيلة في المالية الصالحية، وما يتعلق بها من جرايات وإنفاقات، وشواهد أخرى على السياسة التشاورية الصلاحية في مجلس الشورى، والاتجاهات النظرية العباسية، والفكرية السنية الشافعية في بنية النظام، ومعلومات أخرى حول الإقطاع الأيوبي، أمراءه، نظمه، شروطه، وخصائصه .

وإذا كانت دولة صلاح الدين وعهده؛ لا تزال تلقى أهمية مؤرخي الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، منذ بدايات القرن التاسع عشر، وحتى يومنا هذا، فلا عجب أن يسجل أكثر من مؤرخ معاصر لتلك الأحداث والوقائع والأعمال، فالي جانب العماد الأصفهاني؛ كان هناك؛ القاضي المؤرخ ابن شداد؛ صاحب كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسّفية) وهو بهاء الدين أبوالمحاسن يوسف بن تميم، المعروف بابن شداد؛ وهو من بني تميم، إلا أنه تربى لدى أخواله من بني شداد؛ لذلك نُسب إليهم . ولد ونشأ بالموصل عام (539هـ/1145م) حيث تلقى علومه الدينية الأولى بها، وتوفي في حلب سنة (632هـ/1239م) ويعد ابن شداد أحد قضاة المدارس في بلاد المشرق الاسلامي؛ حيث تولى التدريس في الموصل وبغداد، وقد اشتهر بسداد الرأي، فأوكل له الأمراء الزنكيون في الموصل، عدداً من المهام (الديبلوماسية) ثم دخل في خدمة صلاح الدين منذ عام (584هـ/1188م) حيث ولاه شؤؤن قضاء العسكر، والحكم بالبيت المقدس، ولابن شداد عدد من المؤلفات التاريخية وغير التاريخية، ككتاب (فضائل الجهاد) وهو في الشؤؤن الدينية، غير أن أبرزها يبقى هو كتاب

(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسّفية) وهو من الكتب التاريخية، كما أنه أفادنا وأمدنا كثيراً في واقع الأمر، بمعلومات دقيقة وعميقة وبالغة الأهمية؛ عن تفاصيل موضوعنا هذا، ويمكن تقسيم محتوياته إلى قسمين؛ القسم الأول، عنى بسيرة صلاح الدين الأولى؛ نشأته وثقافته وأخلاقه وشمائله، أما القسم الثاني فلقد اهتم بذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي شاهدها و عاينها ابن شداد بنفسه، خلال خدمته لدولة صلاح الدين. ويعتبر هذا الكتاب من الكتب الرئيسية الموثوقة، سيّما وأن صاحبه قد استقى أخباره؛ من خلال مشاهدات شخصية له، أو لغيره، من شهود العيان، أو ممن تحصل عليه من أشخاص ثقاة، بعد التحقق من معلوماتهم. وقد استفدنا منه في تغطية نشأة وصعود النفوذ الأيوبي؛ وتأسيس صلاح الدين للحكم الأيوبي، والسلطة الصلاحية. إلى جانب معلومات مستفيضة عن توجهات الناصر صلاح الدين، اتجاهاته وأخلاقه وسياسته، فتوحاته وتوسعاته، وفقرات مهمة عن مجلسيّ الشورى والعدل، والعدالة والقضاء، مع بعض الإشارات الإدارية في الدواوين والإقطاع العائلي، والتوزيع الإقطاعي، والمعاملات والتكليفات والقصص، لكننا فقط؛ نأخذ عليه، وباعتباره مؤرخاً معاصراً، وشاهد عيان – ورغم تسجيله الدقيق لمعظم الحوادث والوقائع – عدم التفاته الواضح إلى التغيرات الحضارية والإدارية والبنيوية؛ التي أحدثتها الدولة الأيوبية، عهد صلاح الدين، شأنه في ذلك شأن زميليه الآخرين؛ العماد الكاتب، وابن مماتي، وربما كان ذلك يرجع إلى الفتوحات الباهرة، والانتصارات المدوية، التي حققتها الدولة الأيوبية الصلاحية، والتي انعكست بالتالي على سلوك المؤرخين، ونتاجهم العلمي والأدبي.

إلى جانب ابن شداد والعماد الكاتب، هنالك مؤرخ ثالث يعد أحد مؤرخي الدولة، على عهد صلاح الدين، وأيضاً أحد كبار موظفي الدولة

الأيوبية الصلاحية، وهو الأسعد بن الخطير المهذب بن مماتي، والمتوفي سنة (606هـ/1209م) صاحب كتاب (قوانين الدواوين) وهو كتاب يقع في مجلد واحد؛ وهو حقيقة من الكتب الفريدة من نوعها؛ نظراً لاهتمامه بالجوانب الإدارية والمؤسساتية، في النظم والموارد والدواوين والمعاملات، والإقطاع والتخطيط الجغرافي والزراعي، وان كان مقتصراً على القطر المصري فقط، خلال العهد الأيوبي الأول، مع انتفاء الشمولية وسعة الأفق عنه، غير أنه يبق أحد أهم المصادر الإدارية بوجه عام، و المحلية في التاريخ الأيوبي بالقطر المصري، بوجه خاص . وقد أمدنا حقيقةً؛ بمعلومات محددة ودقيقة – وان كانت مختصرة أحيانا – عن قوانين الدواوين، حيث أبلغنا بالشروط الواجب توافرها في شخص رئيس الديوان؛ اختصاصاته وأعماله، وأبرز معاونيه ومساعديه، كما أخبرنا عن ظروف توليه رئاسة ديوان الجيش الصلاحي بالقطر المصري، ثم رئاسة بيت المال فيما بعد، كما أمدنا بمعلومات طيبة أيضاً؛ عن الإقطاع الشرقي وقوانينه الإقطاعية، وأخرى عن طبيعة وشكل النظام السياسي الأيوبي، عهد صلاح الدين .

المؤرخ الرابع للعهد الصلاحي؛ هو أبو المعالي محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، (ت617هـ/1220م) المعروف بشاهنشاه ابن أيوب، صاحب (كتاب التاريخ) هذا المؤرخ هو من أمراء البيت الأيوبي بمدينة حماة، وهو أحد أبناء للملك المظفر تقي الدين عمر – الأمير والقائد الأيوبي الشهير في دولة صلاح الدين – ورغم انه لا يُحسب في خانة/مصاف؛ مؤرخي الدولة الكبار، إلا أنه يعد قطعاً؛ أحد المؤرخين المطلّعين، والشهود عيان؛ خاصة على السنوات الأخيرة من حكم صلاح الدين، والتي كان على هو شخصياً؛ على وعي ذاتي بها، ناهيك وأننا لا

نشك في أنه نشأ نشأة ارستقراطية، أو ملكية راقية، داخل إمارة حماة الأيوبية، التي أسسها والده الملك المظفر تقي عمر، ذات الإقطاعيات المجندة عسكرياً، كما فهمنا منه هو شخصياً؛ في سمسياط بالجزيرة الفراتية، والموزر وميافارقين بديار بكر، وحماة والمعرة وسلمية ومبنج، وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطس وبكراس في الشام .

أما بالنسبة لكتابه المسمى بـ(كتاب التاريخ) فهو خلافاً لاسمه/عنوانه العائم، الفسيح والفضفاض؛ فهو كتاب لطيف، يقع في مجلد واحد، دقيق بعض الشيء، وقد بدأه بحوادث مصر الداخلية (556هـ/1160م) والخلافات والنزاعات الوزارية؛ التي ساهمت في انهيار الدولة الفاطمية بمصر آنذاك، وظهور النفوذ الأيوبي، مستمراً في ذكر الوقائع ذات العلاقة بهذه الأسرة، وبالدولة الفاطمية عهد صلاح الدين، حتى وفاة الأخير عام (589هـ/1193م) وقد استفدنا منه في النقاط المتعلقة بإلغاء الخطبة العلوية، ونهاية الحكم الفاطمي بمصر، وبعض الإشارات الجيدة عن بدايات صلاح الدين التأسيسية، وانطلاقاته المبكرة من داخل بنية سياسية مقامة على النمط الزنكي، وفي التوجه المذهبي، وأولوية الجهاد، وتقديم القضاة والفقهاء وغير ذلك، مع معلومات أخرى في الشؤون المالية والإقطاعية المتعلقة بالإنفاقات، والتمديد الإقطاعي وغير ذلك .

أما بالنسبة لأبرز المصادر المهمة في تاريخ البحث؛ والتي تأتي في الصف الثاني، عقب خانة المؤرخين المعاصرين المذكورين آنفا؛ يأتي في المقدمة كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، مقدسي الأصل دمشقي الدار، (ت665هـ/1266م) كان متقناً للقراءات واللغة، والفقه والحديث و

الأخبار والتاريخ، وقد وضع كتابه الشهير هذا حول أخبار دولتي نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين يوسف الأيوبي؛ في مجلدين مقسمين إلى أربعة أجزاء، وما يهمنا فيه بصورة أساسية؛ الجزئين الأخيرين؛ الثالث والرابع، والمركزين بشكل مباشر على أخبار ووقائع الدولة الأيوبية الصلاحية، ويعتبر هذا الكتاب من الكتب المهمة التي تحتل منزلة مرموقة، في تاريخ الحروب الصليبية، والعلاقات الدولية، وأوضاع الشرق الإسلامي في تلك الحقبة، ويمكن أن نلاحظ بأنه من الكتب المستخدمة بشكل أساسي؛ حتى في البحوث الغربية، نظراً لاعتماد مؤلفه على مصادر مهمة، وبعضها مفقودة؛ لمؤرخين معاصرين لصلاح الدين وعهده؛ ككتاب (البرق الشامي) وهو من المصادر الأولية المفقودة للعماد الأصفهاني، وبعض متجددات ووثائق ورسائل القاضي الفاضل؛ الضائعة، والتي تحتوي على بيانات مهمة، في المراسلات والمعاملات والعلاقات والتوجهات؛ وتعد غاية في العظمة والأهمية، ومؤلفات (السيرة الصلاحية) ليحى بن أبي طي، الحلبي الشيعي، الذي كان مذهبه سبباً في إحراق مؤلفاته في الشام، إلى جانب هذه الكتب المفقودة نقل أبوشامة أيضاً؛ من مؤرخين آخرين معروفين ومشهورين، بعضهم كان معاصراً للحدث كابن القلانسي، وابن شداد والعماد الأصفهاني، وابن عساكر وابن الجوزي، وبعضهم كان قريباً منه؛ كابن الأثير وسبط بن الجوزي . كما يعد كتاب الروضتين من أكثر الكتب اعتماداً في موادها على الوثائق الرسمية، والشواهد التاريخية المعاصرة، وقد أمدنا حقيقة بمعلومات عالية القيمة والأهمية، وقد تفرد صاحبه؛ وهو أبوشامة؛ باستعراضه لأراء ومعلومات المؤرخين، كلٍ على حدة، كما تعمد الحذر والانتقائية في المعلومات، في كثير من المناسبات، خصوصاً خلال النقل من المؤرخيّن ابن الأثير، وأبو طيء الشيعي؛ نظراً لتفهمه

للحساسيات السياسية و(السيسيولوجية) بين الزنكيين والأيوبيين، و(الأيديولوجية)/ المذهبية بين العلويين في حلب، وبين الأيوبيين الشافعيين في دمشق؛ وربما منعنا ذلك من رؤية بعض الاختلافات في الحقائق والتوجهات، غير إننا فقط نأخذ عليه التزامه الحذر المفرط، وغياب شخصيته البحثية بشكل مستمر، بسبب اعتماده المنهج النقلي على طريقة القص واللصق – إذا جاز التعبير – دون إبداء رأيه بالتمحيص والتعليق .
لكن رغم كل ذلك يبق أن نشير إلى أن أبوشامة؛ وكتابه الضخم الروضتين؛ قدم لنا فائدة كبيرة ومتواصلة، أفادتنا كثيراً في دعم رسالتنا بتفاصيل كثيرة، أساسية ومهمة، حول صفات صلاح الدين الرسمية، وطبيعة نظام حكمه، وسياسته تجاه الإمارات الفرنجية والقوى الإسلامية، علاقته بالمقام العباسي، والشرعية العباسية، ونماذج من تطبيق الشورى والعدالة الصلاحية، كما احتوى كتاب الروضتين أيضاً على نصوص ووثائق ومراسلات عديدة، تجاوزت المائتين وثيقة، (206) تحديداً، أبرزها كانت نصوص ورسائل مهمة للقاضي الفاضل؛ ودوره في التخطيط الإداري والسياسي، والدعوة إلى التعاضد والتوحد بضم القوى الإسلامية بطرق سلمية، وتخطيطه الجهادي ضد الفرنجة، إلى جانب تحريضه الدائم على الجهاد، بالإضافة إلى وثائق ومعلومات أخرى حول القوى الإقطاعية والأمراء الإقطاعيون، وشروط الخدمة الإقطاعية، وآراء وتعليقات حول أوضاع الدولة وظروف العصر، كما أمدنا أبوشامة ببعض الأشعار المهمة والحماسية؛ والمعبرة عن اتجاهات وتقاليد الوحدة والجهاد الصلاحي، وقد أمدنا أيضاً بفقرات طيبة عن السياسة المالية الصلاحية، وما يتعلق بها من إنفاقات ومكوس وضرائب وغيرها، وابرز أرباب الدولة وكبار الأمراء، والقادة والمقدمين والموظفين .

ومن بين الكتب المهمة كذلك؛ والتي يمكن إدراجها في الصف الثاني بعد الكتب المعاصرة؛ والتي أفدنا منها كثيرا؛ يأتي كتاب (الكامل في التاريخ) لأبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الجزري، المعروف بابن الأثير (ت630هـ/1232م) ولد بجزيرة ابن عمر من أعمال الموصل، ونشأ نشأة علمية في أسرة (أرستقراطية) أي عاشت في البلاط الزنكي بالموصل، وخدمت الملوك الزنكيين والأيوبيين، ويعتبر كتابه المشهور في الشرق والغرب (الكامل في التاريخ) مصدراً رئيسياً ذا قيمة عظيمة وهائلة؛ في الدقة والشمولية والتحليل، ويتميز بالوضوح والإشراق، إلى جانب أسلوبه الشيّق وتبويبه الجيد، مع الموازنة الفريدة والواعية حقيقةً؛ بين تاريخ الأقطار الإسلامية، موازنة تتسم بالشمولية وبعد النظر، وبالرغم من الولاء الداخلي العميق؛ الذي يكنه ابن الأثير للبيت الزنكي، والحكم الأتابكي بشكل عام؛ في الموصل والشام، وما نتج عنه بالتالي من حساسيات وعداء، لسياسات صلاح الدين، الذي ألغى حكم الزنكيين في الجزيرة وحلب ودمشق، وأخضعهم بالتالي لدولته الفتية في مصر، إلا انه يبدي تقديره وإعجابه الواضح بصلاح الدين، رغم انتقاده المتعمد له في أكثر من مناسبة، خصوصاً فيما يتعلق بالنزاع الأيوبي الزنكي . ويعد كتابه هذا من أهم وأفضل الكتب الحولية في التاريخ العام، وتاريخ العلاقات والصدام بين المسلمين والصليبيين بوجه خاص، خاصة في أجزاءه الأخيرة، وما يتصل بها من وقائع للتاريخ الإسلامي في المرحلة الوسيطة بالذات، والتي عاينها ابن الأثير معاينة شخصية، أو كان قريباً منها . وقد سجلها ابن الأثير تسجيلاً علمياً غنياً ورصيناً، وجعل مادته التاريخية تتمتع بالأصالة الواضحة وسعة الأفق ، كما تميز بنقله للوقائع من الحوادث التي شاهدها بأم عينه؛ كموقعة تل السلطان بين الأيوبيين والزنكيين وغيرها، أو من

الروايات الشفهية التي أخذها عن والده وأعمامه، أو من الرجال الثقاة، ورواة الأخبار الذين عاصرهم وجالسهم بنفسه .

ويمكننا القول إن (الكامل في التاريخ) كتاب شامل في التاريخ الإسلامي، وهو مؤلف من أحد عشر جزء ، غير إن ما يهمنا فيه صراحةً؛ الجزء العاشر؛ الذي تدخل فيه حوادث ووقائع وفتوحات الدولة الأيوبية؛ إقليمياً ودولياً، في عهد صلاح الدين، وخاصة ما يتعلق بالتوسعات التي تمت على حساب القوى الإسلامية، بالشام وأعالي الفرات، وما نجم عنها بالتالي من حساسيات وإشكاليات أتابكية صلاحية . كما استخرجنا من نصوص ابن الأثير، بعض النتف والتلميحات الجيدة؛ عن (ديناميكية وسريان البنية السياسية والإدارية النورية – كجزء من الإشكالية – داخل مؤسسات الدولة الصلاحية، والمتمثلة في الشورى والعدالة والقضاء، والتوريث الإقطاعي، وغيرها من النماذج الأيوبية ذات الخلفية الزنكية، كما أمدنا ببعض المعلومات عن عدد من الموظفين والأمراء، والقادة الكبار، ونقاط أخرى تتعلق بالشأن الإقطاعي، النظم والتقاليد والمزايا والعيوب الإقطاعية، ودور الأمراء الإقطاعيون، والقوى الإقطاعية بالشرق؛ في تثبيت الدولة سياسياً، وتعبئتها بالجهاد عسكرياً .

من الكتب الأولية المهمة أيضاً؛ كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لأبي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي، المعروف بسبط بن الجوزي، (ت654هـ/1256م) وهو من مواليد بغداد، وقد قضى معظم حياته مقدماً وصديقاً لأمراء البيت الأيوبي في دمشق، فاشتغل بالوعظ وكتابة التاريخ، وكتابه المهم هذا؛ هو كتاب عام وضعه صاحبه ورتبه على أساس حولي، ويُعتبر مصدر مهم فيما يتعلق بأحداث الشام زمن حياة

المؤلف، ولكن القسم الأكبر من هذا العمل لا يزال مخطوطاً، فيما يتعلق بحوادث القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، غير إنني استفدت بشكل خاص من الجزء الثامن، القسم الأول، المطبوع منه، والذي عنى كثيراً بأعمال وسياسات وفتوحات الدولة الأيوبية عهد صلاح الدين، والواقع أن هذا الكتاب يُعد من المصادر المهمة التي تناولت موضوع البحث، خصوصاً وأن صاحبه استمد معلوماته من مؤرخين معاصرين، وآخرين قريبين من الحدث، حيث نقل تاريخه عن روايات شخصية من جده الفقيه المؤرخ المعروف؛ الحافظ بن الجوزي؛ والذي كان واعضاً ببغداد، ومؤرخين آخرين معاصرين للحدث؛ كابن القلانسي، وغرس النعمة، وابن شداد، وابن الأثير، غير أنه يؤخذ عليه إهماله لمصادر رئيسية، وأخرى معاصرة كمؤلفات العماد الأصفهاني، وعدم رجوعه إلى رسائل ووثائق القاضي الفاضل رجوعاً أساسياً ومباشراً، وغيرها من الوثائق . وفي جميع الأحوال فإننا وجدنا مادة جيدة فيه، ومن جوانب متعددة؛ منها ما يتعلق بأوجه التقارب والاختلاف بين شخصيّ صلاح الدين وسلفه نورالدين، وبعض الإشارات المفيدة حول استمرار الاتجاهات النورية في السياسة والإدارة والجهاد؛ داخل مؤسسات الدولة الصلاحية، والتأثيرات الزنكية في العدالة والقضاء والإقطاع، وبعض النصوص الفاضلية المهمة في التخطيط السياسي والجهادي .

ومن الكتب المهمة أيضاً، والتي اعتمدنا عليها بشكل أساسي في بحثنا هذا؛ كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) لأبي العباس احمد بن علي القلقشندي، (821هـ/1418م) وهو كتاب طويل، مؤلف من أربعة عشر جزء، فيه مواد على قدر عالي من الأصالة والأهمية، وصاحبه يُعد من كبار رؤساء الدواوين في دولة المماليك بمصر، مما يعطينا بالتالي

صورة طيبة وانطباعاً اشراقياً غير باهت حقيقةً؛ عن النموذج الأمثل للمؤرخ الإسلامي، الموسوعي الفذ، الذي عنى بجوانب مغايرة في دراسة التاريخ؛ من جوانب إدارية ومؤسساتية وبشرية، فالكتاب موسوعة علمية أدبية في دواوين الدولة؛ خصائصها وشروطها ومهامها، وفي الأحكام السلطانية والوظائف والمراتب والألقاب، والمعاملات والعقود والعهود والمكاتبات، إلى جانب الشؤون التاريخية والجغرافية، و(الجيوسياسة) / الجغرافية السياسية، والمسالك والممالك، والولايات والأقاليم والمؤسسات والمنشئات، وفي السياسة وفي الإدارة والعلاقات، والشؤون العسكرية والإقطاع، والتقسيمات الأممية، والانتماءات الاجتماعية، والأدب والتراث والخط. وقد استعنت بأجزاء عديدة منه؛ منها الجزء الأول، والثالث، والثالث عشر؛ وقد استخرجت منه مادة غنية، ونصوص غاية في الأهمية؛ عن طبيعة نظام الحكم الصلاحي، وعن وخصائص الدواوين الأيوبية، وأبرز رؤساءها خلال العهد الصلاحي، وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني؛ مهامهم وأبرز أعمالهم، نصوصهم ورسائلهم ذات الأثر والتحريض؛ في بنية الدولة وتوجهاتها الجهادية ضد الفرنجة، مع التعريف بديوان الجيش، اختصاصاته وعلاقاته بالإقطاع، وأبرز الوظائف الإدارية؛ كالحجوبية والجاندارية؛ اللتان كانتا من الوظائف الرئيسية في الدولة الأيوبية . وبعض النتف والشذرات المهمة عن الفرق السلطانية؛ كالفرق الصلاحية والناصرية والأسدية وغيرها، مع معلومات أخرى عن الإقطاع العسكري؛ نظمه وخصائصه؛ ودوره في تثبيت وتعبئة الدولة سياسياً وجهادياً .

هناك كتابات وأعمال مصدرية أخرى؛ لمؤرخين لاحقين؛ ونقصد بهم ممن عاشوا وتربوا في كنف العهد الأيوبي الأخير، أو في العهد المملوكي المبكر؛ المتصل به، وسجلوا بالتالي بعض الأعمال والوفيات، والسياسات

والفتوحات للسلاطين الأيوبيين، وكان استنادنا على هؤلاء استناداً ثانوياً؛ نظرا لابتعادهم زمنياً إلى حد ما؛ عن فترة البحث. ومن أبرز هؤلاء المؤرخين؛ ابن أيبك الدواداري؛ أبو بكر بن عبدالله بن أيبك (تـ بعد 736هـ/1335م) وهو حفيد أحد قادة المماليك الأوائل؛ الأمير عز الدين أيبك، كما إن كتابه المعروف بكنز الدرر وجامع الغرر، القسم السابع/ والمعروف بدوره بالدر المطلوب في أخبار بني أيوب، يعتبر من الكتب الجيدة في التاريخ الأيوبي بوجه العام، غير أنه اتسم في أحيان كثيرة بالتلخيص والنقل الموجز، لبعض الحوادث الطويلة، لكننا استفدنا منه في جميع الأحوال – باعتباره كتاب متعلق بالشأن الأيوبي – من خلال بعض رسائله الفاضلية، وبيانات في الشؤون المالية والحدود السياسية؛ وان كانت بشكل سريع وخاطف، وهناك أبو الدم الحموي، شهاب الدين إبراهيم (تـ642هـ/1244م) صاحب كتاب (التاريخ المظفري) المنسوب إلى الملك المظفر الثاني، صاحب حماة، وحفيد القائد الأيوبي الشهير؛ الملك المظفر تقي الدين عمر. أما المؤرخ أبو الدم الحموي؛ فلقد تميز بنشأته في كنف الدولة الأيوبية، فأمدنا بالتالي ببعض المعلومات المهمة عن أهمية كل من؛ رسائل القاضي الفاضل والعماد الكاتب الديوانية؛ وأثرها في بنية الدولة وتوحيد القوى الإسلامية، مع بعض الفقرات الإقطاعية المهمة، وان كانت في شكل نتف وإشارات سريعة؛ نتيجة لاعتماده النهج المختصر في التدوين. وهناك مؤرخين آخرين ممن استفدنا من بعض معلوماتهم في هذا الشأن أو ذاك؛ وان كانت استعانتنا بهم تعد ثانوية؛ نظراً لثانوية مؤلفاتهم في بحثنا/رسالتنا المتواضعة هذه، مقارنة بالمصادر الرئيسية والأعمال الأولية الأساسية في هذا الموضوع . ومن هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر؛ ابن العديم (تـ660هـ/1262م) كمال الدين عمر، الذي

أعدّ كتابه (زبدة الحلب) حول تاريخ حلب بالدرجة الأولى، والشام والمناطق المجاورة لهما في المشرق، بالدرجة الثانية، وابن تغري بردي؛ المؤرخ المملوكي المعروف صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) والنويري (ت732هـ/1331م) في مؤلفه الضخم بـ(نهاية الأرب في فنون الأدب) والسبكي (ت771هـ/1369م) صاحب (طبقات الشافعية الكبرى) وابن كثير (ت774هـ/1372م) صاحب (البداية والنهاية) والمقريزي (ت845هـ/1441م) في خططه المقريزية، ونقوده، ورسائله الشهيرة . وجميع هؤلاء وغيرهم من المؤرخين، كنا قد أطلعنا على مؤلفاتهم، وترقبنا معلوماتهم، واستخرجنا منها ما يناسب بحثنا هذا؛ من بيانات ومعلومات، تفيد البحث والمادة العلمية .

كما استخدمنا نصوص متفرقة لعدد من المصادر اللاتينية، وكان بعضها قريباً من عهد صلاح الدين، لكنها لم تكن مهتمة أصلاً بالتحولات السياسية والإدارية الداخلية في الشأن الإسلامي، و كان أبرزها كتاب (تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار) للمؤرخ وليام الصوري (ت581هـ/1185م) رئيس الأساقفة بمدينة صور، الواقعة وقتذاك تحت الاحتلال الصليبي، أما المصادر السريانية فكان أهما كتاب (حولية السرياني) لميخائيل الكبير، وقد كان معاصراً لعهد صلاح الدين (ت562هـ/1166م) ويعتبر عمله ذو قيمة تاريخية عالية؛ نظراً لاستناده على أدبيات شعبية، ومصادر سريانية مفقودة، إلى جانب بعض الاستعارات والتأثيرات الإسلامية، ويمكن أن نلاحظ ذلك من استخدامه للتاريخ الهجري مثلاً، رغم انشغاله بشؤون البطريركية في إمارة أنطاكية

الصليبية، إلا أننا كنا قد أفدنا من بعض إشاراته التاريخية المهمة . والى جانبه هناك واحد من أعظم المؤرخين السريان، وأقواهم في عصره؛ والمتأثر أيضا بالاستعارات العربية الإسلامية، وهو المؤرخ جريجوار غريغوريس؛ ابن العبري، (ت685هـ/1286م) صاحب (مختصر الدول) وهو من مدينة ملطية بغربيّ الأناضول، والذي تولى رئاسة الكنائس اليعقوبية في الشرق، وقد وضع كتابه بمنهج تاريخي عام، فأفدنا منه ببعض الفقرات والنصوص الخجولة البسيطة، والتي خدمت البحث على كل حال .

أما فيما يتعلق بمراجع الدراسة، فإنه وعلى غرار اعتمادنا على المصادر، وخاصة ذات العلاقة المباشرة منها، فإننا لم نتعمد الاستناد المباشر على الأعمال المرجعية، نظراً لاهتمام كثير منها بالشؤون العسكرية والحربية والجهادية، في التاريخ الصلاحي، وعلى أية حال فإن أبرز المراجع التي تعاملنا معها من حيث الاستفادة والاستخدام، كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) لهانز ماير، وهو بحاثة ألماني في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ورغم إيجازه المخل أحياناً، والناتج عن توسعه زمنياً في إطار البحث، إلا أنني اكتسبت منه إشارات جيدة ومهمة؛ عن ماهية الدواوين في عهد صلاح الدين، وشكل الإقطاع الأيوبي الصلاحي وغيره، فكانت بالنسبة لي كالإشارات الضوئية التي أرشدتني من حين إلى آخر نحو جادة الطريق، وخارطته العامة.

وهناك أيضا كتب أخرى استفدت منها؛ ككتاب (صلاح الدين الأيوبي) للبحاثة البريطاني الشهير جب هاملتون، وكتاب (صلاح الدين والمماليك)

للباحثة الروسية ليديا سيمينوفا، وكتاب (صلاح الدين وعصره) للأستاذ المصري؛ محمد أبو حديد . أما الأعمال الأجنبية التي رجعنا إليها؛ فإن من أهمها؛ كتاب : (The Crusades) لدافيد نيكول؛ وهو بحاثة سكوتلاندي من جامعة أدنبرة، وكتاب (History Of The Crusades) لجونثان سميث، وهو باحث بريطاني من جامعة ويلز، وقد استفدنا من بعض المعلومات في هذه الكتب؛ والتي خدمت البحث وأهدافه، صُحبة أعمال أجنبية أخرى، ممن استفدنا منها ومن معلوماتها وأفكارها، والله ولي التوفيق .

أجدد التحية بكم ، وأود أن أوجّه امتناني وتقديري إلى أستاذي الأستاذ الدكتور عبد الواحد عبد السلام شُعيب، الذي أشرف مشكوراً بكل عناء وصبر على توجيه رسالتي هذه، حيث أحاطني بكل رعاية وعناية و أخاء، فأفادني بالتالي من غزير علمه وطيب إرشاداته، ورصين لغته، وعميق توجيهاته؛ مما كان له بالغ الأثر في إظهار هذا العمل؛ على صورته النهائية، الطيّبة .

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة؛ إلى أستاذي الأستاذ الدكتور رمضان المبروك، والأستاذ الفاضل، الأستاذ الدكتور علي الشطشاط، على تكفلهما بمراجعة وتقييم رسالتي هذه، وتجشم عناء السفر والحضور والملاحظة والتقييم .

والشكر موصول إلى جامعة طرابلس الموقرة، رئاستها وعمادتها وإدارتها، ومقار الدراسات العليا وقسم التاريخ بها، ومكتباتها، وجميع القائمين على شؤونها العلمية والإدارية بها . والله وليّ التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

الفصل الأول

الخلفية السلجوقية والزنكية في البنية السياسية والإدارية الأيوبية وظهور صلاح الدين الأيوبي

المبحث الأول:- الخلفية القيادية للعائلة الأيوبية في الدولتين السلجوقية والأتابكية :

أولاً:- الإدارة السياسية للأمراء الأيوبيين في حكومات العراق والشام ومصر :

ثانياً:- وزارة صلاح الدين الأيوبي في مصر :

ثالثاً:- إنهاء الخلافة الفاطمية / المراحل والتبعات :

المبحث الثاني:- تقاليد الوحدة والجهاد وإشكالية العلاقة بالبيت الأتابكي:

أولاً:- مفهوم وتقاليد الوحدة والجهاد الإسلامي الأيوبي :

ثانياً:- الشام ومصر في ظل الإدارة الزنكية والأيوبية/ دراسة في العلاقات والإشكاليات الأيوبية الزنكية :

المبحث الأول:- الخلفية القيادية للعائلة الأيوبية في الدولتين السلجوقية والأتابكية:

أولاً:- الإدارة السياسية للأمراء الأيوبيين في حكومات العراق والشام ومصر.

يعتبر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، مؤسس الدولة الأيوبية الناشئة في مصر، سليل عائلة أيوبية خدمت في دول الشرق الإسلامي آنذاك ؛ كالسلاجقة والزنكيين والأتابكة ، وقد تقلد أبرز أفرادها أمثال، نجم الدين أيوب[*]، وأسد الدين شيروكوه [*] ، مناصب قيادية رفيعة ، كمنصبي أمير مقدم على الأمراء ، يجلس دون استئذان ، الذي تقلده نجم الدين أيوب في الدولة النورية، دولة نور الدين محمود زنكي في حلب ودمشق، وقد ذكر ابن الأثير بخصوص مجلس السلطان نور الدين محمود ((لم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف)) [1]، وأسد الدين شيروكوه أمير حمص ، وأحد قادة أركان الدولة النورية، وصاحب الحملات الزنكية الثلاث على

---

[*] أيوب بن شادي بن مروان، كنيته نجم الدين، وهو والد السلطان صلاح الدين، للمزيد من المعلومات ينظر، أبو العباس شمس الدين بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) ج 1، ص 255 .

[*] أسد الدين بن شادي، كنيته شيروكوه وهو لفظ أعجمي يعني أسد الجبل ، لمزيد من المعلومات ينظر؛ تيمور باشا أحمد ، ضبط الأعلام ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1947 م، ص 85.

[1] أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق ، عبد القادر طليمات ، الكتب الحديثة ، القاهرة ،(د.ت) ص 172 .

مصر، والتي أدت إلى تحويل مصر إلى جناح غربي للدولة الأتابكية في الشام [1] .

أما صلاح الدين ، فقد أشار بن خلكان؛ إلى تعاظم منزلته في دولة نور الدين، بعد تعيينه أصفهسلاراً ، أي قائداً عاماً، في الدولة أثر نجاحه في إنهاء الخلافة الفاطمية بمصر عام 567هـ / 1171م ، حتى أن الأخير صار يناديه في مكاتباته ((بالأمير الأصفهسلار ، ويكتب علامته تعظماً)). [2].

وبالعودة إلى الجذور القيادية للعائلة الأيوبية؛ فإن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي، يعتبر رأس الهرم في هذا الشأن، والشخصية الأولى التي ينتمي لها جميع الأيوبيين، فهو وكما ذكر العيني، ((أصلهم وكبيرهم)) [3]، و بداياته ترجع إلى زمن سلاجقة فارس والعراق على عهد السلطان محمد بن ملك شاه [*] ، وكما يقول النويري فانه كان ((قد خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجقي ، فرأى منه أمانة وعقلاً ... فولاه قلعة تكريت)) [4] .

---

[1] للمزيد من المعلومات حول هذه الحملات، ينظر؛ بهاء الدين أبي المحاسن بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق ، بكر إبراهيم ، دار صلاح الدين للتراث ، القاهرة ، 2000 م، ص 30-34.

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7 ، ص 155.

[3] بدر الدين أبو محمد العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، الكتب المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1998 م، ص 189.

[*] محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان ، تولي السلطنة عام 498هـ ، قام بعدة إصلاحات إدارية وإجراءات عسكرية ، للمزيد ينظر؛ عماد الدين محمد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، 1900 م، ص 81.

[4] شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق ، نجيب فواز وآخرون ، الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 م، ج28 ، ص 234 .

من جانب آخر ينتمي الأيوبيين إلى عشائر الأكراد الروادية، المنتسبة إلى بلدة دوين من أعمال اذربيجان ، [1]. غير أنهم نزحوا جنوباً – ولأسباب تبدو متعلقة بالبحث عن وظائف إدارية وعسكرية مرموقة، في بلد إسلامي متحضر، ومتعدد الثقافات كالعراق – فدخلوا هذا البلد في عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله [*] ، حيث تم تعيين نجم الدين أيوب ، من قبل السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه ، دزداراً / حاكماً ، على قلعة تكريت [2] ، ومن موقعه بهذه القلعة ، أقام أيوب إلى جانب أخيه شيروكوه، علاقات طيبة مع صاحب الموصل الأتابك عماد الدين زنكي، وقتذاك ، ولقد أدت تلك الصلة إلى دخولهما في خدمة الدولة الزنكية بعد خلاف وقع بين شيروكوه، وبين كاتب تكريت يدعى بهروز ، فقام الأتابك زنكي بتعين نجم الدين أيوب؛ حاكماً على قلعة بعلبك عام (530هـ / 1135م)، فأستمر الأخير في عمله طوال فترة ولاية عماد الدين زنكي، ثم اضطر للخضوع لسياسات الإمارة البورية في دمشق، بعد وفاة زنكي عام (541هـ/1146م)، مما سمح للبوريين باسترجاع بعلبك [3]. فيما كان

---

[1] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج7 ، ص 139.

[*] المسترشد بالله؛ هو أبو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله ، بويع بالخلافة سنة 512هـ ، ويعتبر أحد أبرز خلفاء بني العباس ، حاول استعادة الحكم الفعلي للخلافة العباسية ، حارب الشيعة في العراق ، والسلاطين السلاجقة ، وحاصر عماد الدين زنكي في الموصل ، اغتيل على يد الباطنية ، دعاه العمراني بـ ((فحل بني العباس)) ، للمزيد ينظر؛ محمد بن علي العمراني ، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، 1999 م، ص 210.

[2] أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق ، يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط4 ، 2003 م، ج 10 ، ص 16.

[3] النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 235 .

شيروكوه قد اتصل بخدمة دولة نور الدين محمود في حلب، فأعجب الأخير بفروسيته وكفاءته؛ فعينه على حمص والرحبة [*]، وقد كانت له من الأهمية في إدارة هذه المناطق، ما خولته تولي رتبة مقدم على العسكر النوري، وذلك بأمر من نورالدين محمود، آنذاك [1]، وبعد سنوات أصبح نجم الدين أيوب رئيساً لحامية دمشق ، وصادف أن وقع حصار الجيش النوري على المدينة، حيث كان أسد الدين شيروكوه أحد قادة الحصار ، وبصفته رئيساً لحامية المدينة قام أيوب بتسهيل مهمة دخول الجيش النوري [2] ، فـ((عظمت منزلته في دولة نور الدين، وعلت رتبته حتى صار يجلس دون إذن بالجلوس)) [3] .

كما يؤكد ابن القلانسي، رئيس ديوان الإنشا بدمشق، آنذاك، ما يفيد أن الأميرين شيروكوه وأيوب؛ كانا من القيادات البارزة، والتي أسهمت بشكل فعال في تثبيت الدولة النورية، وإدارة عملياتها التفاوضية والحربية بنجاح، في جهات دمشق وأعمالها [4].

من جانب آخر كان للأمير شيروكوه دوراً بارزاً في الشأن المصري، وكان يرجع إليه الفضل في ضم مصر إلى الدولة النورية بالشام ، وإنقاذ أراضيها من الغزو الإفرنجي الأوربي، ويكاد ينفرد بدر الدين العيني بالقول؛

---

[*] الرحبة قرية تبعد عن دمشق مسيرة يوم ، للمزيد ينظر؛ ياقوت شهاب الدين الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1977 م، ج 3 ، ص 34.

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 16.

[2] كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب نبيه فارس وآخرون ، العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1968 م، ص 350.

[3] النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 235 .

[4] حمزة بن أسد بن القلانسي ، تاريخ دمشق ، تحقيق ، سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ، 1983 م، ص 489.

أن شيروكوه هو صاحب الفضل في ضم مصر، بعد أن أضمحل دورها أواخر العهد الفاطمي ، وأصبحت مركزاً رئيسياً للتهديد الفرنجي الصليبي والبيزنطي ، وذلك حينما قال:

((بلغ ذلك – يقصد التهديد الفرنجي – أسد الدين شيروكوه، عم السلطان، صاحب البلاد الحمصية ، فأستأذن السلطان العادل نور الدين أن يذهب إلى مصر؛ ليستنقذ المسلمين من الكفرة المتمردين))[1]. كل ذلك كان خلال الحملة الثانية (562هـ / 1166م)[2] .

أما الحملة الأولى ، فإن مبرراتها ترجع إلى أن نزاعاً وزارياً قد حصل في مصر الفاطمية بين الوزيرين شاور وضرغام[3]، وقد ذكر ابن شداد الذي كان شاهد عيان لتلك الأحداث، بأن الوزير شاور قد قصد الشام طالباً تدخل الملك العادل نور الدين محمود [4]، فيما يضيف ابن العديم بأن الوزير الفاطمي شاور قد أقترح بأن ((يكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره))[5].

وعلى أية حال إن نقض الوزير شاور لاتفاقاته السياسية والإدارية مع الدولة الزنكية؛ أدت إلى تسيير الحملة الثالثة نحو مصر سنة (564هـ/

---

[1] العيني ، السيف المهند ، ص 190.

[2] ويستنفلد ، جدول السنين الهجرية بما يوافقها من الميلادية ، تعريب؛ عبد المنعم ماجد وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1980 م، ص 54.

[3] كمال الدين بن القاسم بن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1954م، ج2 ، ص 316

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 31.

[5] ابن العديم ، زبدة الحلب، ج2 ، ص 316.

1168م)، بقيادة شيروكوه ، حيث «لم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً »[1]. وعلى إثرها ضمت مصر بشكل شبه رسمي للدولة الزنكية الأتابكية في الشام ، فيما كان أسد الدين شيروكوه قد تمت ترقيته على يد الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ، من قائد عام ، إلى وزير فاطمي ، حيث أرسلت له « خلعة الوزارة فلبسها »[2]. غير أنه لم يعمر في الوزارة طويلاً إذ أنه توفي بعد نحو شهرين من تكليفه ، في (17 ربيع الآخر 564هـ - 22 جمادي الآخرة من العام نفسه) ، حيث دفن بالقاهرة، ثم نقل جثمانه على اثر وصية منه كما يبدو، إلى مدينة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام[3]. بعد أن كان قد فوض أمر الوزارة خلال مرضه، إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي .

ثانياً :- وزارة صلاح الدين الأيوبي في مصر :-

لعلّ تكليف صلاح الدين بالوزارة في مصر، يأتي نتيجة سببين رئيسيين هما :- أن المعني كان يحظى بمكانة مميزة لدى عمه الوزير شيروكوه، والأمر الثاني يكمن في الكفاءة التي أظهرها صلاح الدين نفسه في الحملات العسكرية على مصر تحت قيادة شيروكوه[4]. وبالإضافة إلى هذا، فإن صلاح الدين كان قد حظي برعاية خاصة في دولة نور الدين؛ باعتباره ابن أحد أكابر الأمراء، ويرى لين بوول أن صلاح الدين تعلم كيف ينهج طريق الاستقامة، وكيف « يكون متحمسا في الحرب ضد

---

[1] عمارة بن أبي الحسن اليمني، النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق؛ هرتويخ دربنرغ ، مطبعة مارسو ، باريس ، 1897م، ص 81.

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 34.

[3] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص 480.

[4] جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002 م ، ص 91.

المسيحيين))[1]، إلى جانب إتقانه فنون القتال والفروسية والصيد ، والتزامه بالمثل العليا ، تلك التجارب التي كانت قد صقلت من شخصيته، وبالتالي توليه الوزارة قبل تجاوزه للسنة الخامسة والعشرين .

تولي صلاح الدين الأيوبي مقاليد الوزارة الفاطمية في (25 جمادي الآخرة من عام 564هـ / 1168م) ، فمنحه الخليفة الفاطمي العاضد؛ لقب الملك الناصر[2] ، و((استقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام))[3]، حيث ((بذل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وشكر نعمة الله تعالى عليه ، فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص تقميص الجد والاجتهاد))[4].

وبهذا يكون صلاح الدين، هو أحد الوزراء من أرباب السيف، لأن النظام الإداري الفاطمي في بداياته، كان يقلد الوزارة للموظفين من أصحاب العمائم وأرباب القلم، و لهم السلطة التنفيذية ، فيمارسون بطبيعة الحال، نوعاً من المرونة أو التسلط (البيروقراطي)/ الوظيفي والإداري، في البلاد، غير أنه مذ تولي حاكم عكا بدر الدين الجمالي، مقاليد الوزارة على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427هـ - 487هـ / 1035-1094م) وحتى عهد صلاح الدين ، صارت الوزارة تقلد للمحاربين والمقدمين من فئات الجيش، وتحولت إلى وزارة تفويض لا تنفيذ ، إلى جانب ممارسة نوع

---

[1] ستانلي لين بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ، تعريب؛ فاروق أبو جابر ، مطابع الأهرام ، القاهرة، 1995 م ، ص 82.

[2] النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 238.

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص 34.

[4] جمال الدين أبي المحاسن بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، (د.ت) ج6 ، ص 14.

من التسلط العسكري، الذي يمارسه العسكر ضد الرعية، و ترى سيمينوفا أن ذلك التحول الإداري، قد أدى إلى تدهور سلطات الخليفة الفاطمي، وأن ذلك التدهور أخذ شكله النهائي في وزارة صلاح الدين [1].

ثالثاً :- إنهاء الخلافة الفاطمية / المراحل والتبعات :-

عندما تولى صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيروكوه ، كان وزيراً سنياً في دولة شيعية، وكان يفكر في وحدة العقيدة المذهبية على الطريقة الشافعية بين أهل البلد ، لذلك سعى إلى إلغاء الخلافة الفاطمية [2]، ذات المذهب الشيعي، حرصا منه على إتمام الهدف الزنكي في عودة الخطبة العباسية إلى الديار المصرية ، وكان ذلك يجري تحت إلحاح وتأثير سيده الملك العادل نور الدين محمود ، وقد ذكر المقريزي أن نور الدين كان ((يعاتبه على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر)) [3]، وان صلاح الدين كان متخوفا من ردود الفعل الداخلية [4]، ففضّل انتظار وفاة الخليفة الفاطمي العاضد الذي كان على فراش الموت ، فيما يعتقد ابن الأثير أن سبب التأخير يرجع إلى شكوك صلاح الدين في نوايا نورالدين، بانتزاع مصر منه بعد عودتها إلى السلك العباسي [5] ، وفي تقدير الباحث يظل الرأي الأخير هو الأقرب إلى الصواب، بناء على ما أثبته

---

[1] ليديا سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك في مصر ، تعريب ، حسن بيومي ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1998 م ، ص 190.

[2] عزيز سوريال ، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، تعريب فيليب سيف ، دار الثقافة ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 63.

[3] تقي الدين احمد المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق ، محمد حلمي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1996 م ، ج3 ، ص 316.

[4] المصدر نفسه ، ج3 ، ص 317.

[5] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 33.

التطورات اللاحقة عن تأسيس الكيان الأيوبي العائلي في مصر، أول عهد صلاح الدين .

وعلى أية حال فإنه بالرغم من أن صلاح الدين كان قد لقي معارضة شديدة من بعض كبار الأمراء في الدولة النورية ، الذين كانوا أكبر منه سناً وتجربة، أمثال : ((عز الدين الياروقي ، رأس الأتراك ، وسيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب ، ملك الأكراد ، وشهاب الدين محمود صاحب حارم ، وهو خال صلاح الدين)) [1]، إلا أنه لم يختلف معه أحد حول أمر إلغاء الخطبة العلوية ، فما حصل هو انقطاع سلمي للخطبة الفاطمية بمصر، مما يشير بوضوح إلى السطحية التي جرت بها الدعوة الفاطمية على حياة المصريين الدينية والاجتماعية، أو كما قال شاهشناه ((لم ينتطح فيها عنزان)) [2]. فغالبية الشعب المصري كانت أواخر العهد الشيعي بمصر، تنظر أصلاً نظرة لا مبالاة إلى النظام الفاطمي، فلم تكن تلك الجموع قد انتمت قط إلى المذهب العلوي[3]. كما أن إنهاء الخلافة الفاطمية لم يتم في ظل انتفاضة شعبية أو حركة مسلحة قام بها الجيش النوري ، بل تم بتشجيع من بعض الفئات الشافعية المدنية من أصحاب العمائم، كعبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل[*] الذي

---

[1] شمس الدين بن المظفر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، 1951 م ، ج8 ، ص 278.

[2] تاج الدين شاهشناه بن أيوب، كتاب التاريخ ، تحقيق بكر إبراهيم ، دار صلاح الدين للتراث ، القاهرة ، 2000 م ، ص 249.

[3] كلود كاهن، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب ، تعريب ، أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، 1995 م، ص 165.

[*] عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين البيساني، القاضي الفاضل الشافعي رئيس الديوان المصري، للمزيد من المعلومات ينظر، صلاح الدين خليل الصفدي، الوافي بالوفيات ، تحقيق، أيمن سيد، فرانزشتايز للنشر، شتوتغارت، 1991 م، ج18، ص 335 .

تعاضد كما أشار المقريزي مع صلاح الدين ((على إزالة الدولة الفاطمية)) [1]. وقد حدد صلاح الدين أهميته في التخطيط الإداري والجهادي، قائلاً: ((أما الفتح فمن جملة بركات همته، وأثار جذبات عزمته...))[2]. وكان يثني على جهوده في التنظير السياسي، بالقول والتصريح أمام جنده : ((لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم؛ بل بقلم الفاضل))[3]. والفقيه نجم الدين الخبوشاني[*] الذي أفتى على رأس جماعة من الفقهاء بجواز إزالة الخلافة الفاطمية [4]، إذ وقف كما يقول السبكي ((بعصاه أمام المنبر ، وأمر الخطيب أن يذكر بني العباس ، ففعل)) [5]. مما يعطينا تفسيراً بأن خطباء المساجد في ذاك الوقت، وعامة الناس بالديار المصرية، وخصوصا بالقاهرة، كانوا في الغالب على المذهب السني، وأن المذهب الشيعي كان مقتصراً، أو راسخاً فقط داخل النظام الفاطمي الحاكم، ومؤسساته، لذلك قطعت الخطبة العلوية بالقاهرة وسائر الديار المصرية في هدوء ، وانتهت الخلافة الفاطمية بلا أية مشاكل .

---

[1] تقي الدين أحمد المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، تحقيق ، محمد زينهم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998 م، ج3 ، ص 114.

[2] شهاب الدين عبد الرحمن أبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق ، إبراهيم شمس الدين ، الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 م، ج3 ، ص227.

[3] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 157.

[*] محمد بن الموفق بن سعيد الخبوشاني، أحد الأئمة الفقهاء في المذهب الشافعي، للمزيد من المعلومات ينظر؛ تاج الدين أبي نصر السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق ، محمد الطناحي وآخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، (د.ت) ، ج7 ، ص 14 .

[4] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 251.

[5] السبكي ، طبقات الشافعية ، ج7 ، ص 15.

لقد حدث ذلك في أواخر عهد الخليفة الفاطمي العاضد ، حيث قطعت الخطبة في المحرم من عام (567هـ [1] / سبتمبر 1171م) [2]، وتم محاربة التشيع في مصر في المساجد وعبر الخطب ، والمنابر ، وفي الأذان ، والعملة ، والنسب ، و نشرت أفكار تناقض صحة انتسابهم إلى آل البيت [3]، وذلك من قبل الفقهاء الشافعيين والنسابة فيما يبدو، والفقيه نجم الدين الخبوشاني كان أحدهم، حيث كان يحرض صلاح الدين على الفاطميين الذين كان ينعتهم بـ «بني عبيد اليهودي » [4]، إلى جانب ذلك أقيمت الخطبة باسم صلاح الدين بعد اسم الخليفة العباسي المستنصر بأمر الله ، والملك نور الدين محمود زنكي ، كما أقيم السواد شعار العباسيين [5]، « وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر » [6]. بالإضافة إلى ذلك، فإنه وخلال وفاة العاضد، كان صلاح الدين قد جلس للعزاء، فيما رتب مملوكه قراقوش [*] ، لحفظ القصر الفاطمي إلى جانب الحرس الأيوبي، ويضيف ابن تغرى بردى بأنه قد تم إخراج الخدم والحرس والعبيد والإماء ، وامتلكت ذخائر القصر وأثاثه ، حتى « أخلي القصر من سكانه وأهله » [7]. فيما بادر صلاح الدين إلى رفض مبايعة الأمير داوود، ابن الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ، فأمر باعتقاله مع كامل أفراد أسرته

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 36.

[2] شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ، دار القلم ، دمشق ، 1998 م، ص 107.

[3] عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، الفكر العربي ، القاهرة ، ط4 ، 1994م، ص 390.

[4] السبكي، طبقات الشافعية، ج 7، ص15.

[5] أيمن سيد، الدولة الفاطمية في مصر ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1992 م، ص 139.

[6] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 34.

[*] قراقوش ، لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب، للمزيد ينظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4 ، ص 92 .

[7] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج6 ، ص 20.

وجميع الأسر الفاطمية ، حيث تم نقلهم إلى سجن القلعة ، وكانوا ((ثلاثة وستون فرداً)) [1] ، فتم عزلهم عن بعض لمنعهم من المصاهرة ، وبالتالي قطع ذريتهم بـ ((منعهم عن نسائهم لئلا يتناسلوا)) [2] ، ومن جانب آخر فإنه أرسلت إلى بغداد بشائر إقامة الدعوة العباسية بمصر مع أحد قضاة دمشق، أبي سعد ابن عصرون ، ((فغلقت بغداد فرحاً ، وعملت القباب)) [3] ، وعلى اعتبار أن الملك العادل نور الدين محمود كان صاحب فكرة قطع الدعوة العلوية بمصر، نتيجة إدراكه للإضافة البشرية والأهمية المادية التي تشكلها مصر، في الجهاد ضد الفرنجة، في ظل التدهور الحاصل في الجانب الفاطمي، مع أطماع فرنجية صليبية متزايدة تجاه البلاد المصرية، فإن الخلافة العباسية أرسلت له الخلع الفائقة والرائقة، التي تعبر عن أهمية ذاك العمل ، منها طوق ذهب ولواء ، ((حصانان وسيفان قلد بهما ، إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام)) [4] ، إضافة إلى خلع لصلاح الدين بمصر ، وأعلام سود وخلع أخرى لخطباء المساجد بالديار المصرية [5] .

وبعد زوال الحكم الفاطمي، بادر صلاح الدين إلى إجراء تغييرات في بنية الدولة الجديدة بمصر ، لاسيما فيما يخص القضاة والجيش ، وقد قال

---

[1] المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج3 ، ص 347.

[2] أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تحقيق أحمد حطيط وآخرون ، عالم الكتب ، (د.م) ، 1992 م، ج2 ، ص 255.

[3] الحافظ شمس الدين الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد زغلول ، الكتب العلمية ، بيروت ، 1985، ج3 ، ص 49.

[4] شهاب الدين أبي الفلاح الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وآخرون ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، 1989 م، ج6 ، 364.

[5] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 35.

ابن أيوب أن صلاح الدين ((عزل قضاة المصريين ، وكانوا شيعة ، ورتب قضاة شافعية)) [1]، كما قام باستدعاء أهله وعشائره ، فـ ((تلاحق به أصحابه وأقاربه)) [2]، وفيما يتعلق بالجيش، فان القوات التي أرسلها نور الدين إلى مصر ، كانت خليطاً من عناصر، كردية، تركية وتركمانية [3]، وعلى اعتبار أن رتبة صلاح الدين العسكرية قد تحولت، وكما أشير سابقا، إلي اسفهسلار بالدولة النورية ، أي قائد عام لجيوش نور الدين في مصر، فإنه قام بإعادة تنظيم القوات المصرية، بإبعاد العناصر السودانية والمغربية والأرمنية ، وإدخال المماليك المجندين؛ الأتراك والأكراد إلى سلك الجيش [4]؛ وقد بلغت قوات صلاح الدين في مصر، كما يقول المقريزي: أثني عشر ألف فارس ((من الأكراد والأتراك)) [5]، وفي الواقع فان صلاح الدين كان قد استفاد من تركيبة وبنية الجيش النوري خلال ضم مصر، وقد ذكر سبط بن الجوزي بان صلاح الدين ((كان مبدأ فتوحه مصر بهمة نور الدين وأمواله، وعساكره، ورجاله)) [6]، فالإدارة / القيادة الأيوبية، ورثت كما يرى دافيد نيكول أيضا، التقاليد السائدة آنذاك في المشرق؛ بتأليف الجيوش من المماليك المجندين من الأناضول وأواسط آسيا، وذلك إلى جانب الأكراد، كما جرى في وقت لاحق الاعتماد على عناصر عربية وفارسية، وأخرى متطوعة [7] ، ويضيف كاهن بأنه منذ

---

[1] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، 249.

[2] ناصر الدين محمد بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق ، حسن الشماع ، جامعة البصرة ، (د.ت)، ج4، ص 129.

[3] Jonathan Smith, History Of The Crusades, Oxford, 1999, p,228 .

[4] David Nicolle , The Crusades, osprey Publisnins; Chicago, 2001,p 36 .

[5] المقريزي، الخطط المقريزية، ج1، ص 272 .

[6] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج 8 ، ص 433 .

[7] Nicolle, The Crusades, ,p 22.

العهد الزنكي حصلت حالات استدعاء أعداد هائلة للأتراك والأكراد المجاورين في جهات ما بين النهرين . الأكراد كانوا مشاة جيدين، والأتراك كانوا فرساناً من ذوي مؤهلات خاصة، وكان الوعي المستمر بين هؤلاء بضرورة الجهاد ضد الصليبيين، يخلق تقارباً بين جميع هذه العناصر، وسائر العناصر المحلية [1]، ومن جهة أخرى فإن التفوق التقني على مستوى المشاة، والخيالة للجيش التركي الكردي ، مقارنة بالجيش الفاطمي ، أتاح للنظام الصلاحي الجديد فرص متتالية لقمع حركات التمرد، التي قامت بها الأطراف الدينية والعسكرية في مصر، خلال وبعد الحملات الزنكية الثلاث [2]، إلى جانب محاولات أجنبية، فرنجية وأوربية لاحتلال البلاد المصرية، فمنذ عام (565هـ/1169م) ، تعرضت إدارة صلاح الدين لضغوطات داخلية وخارجية شديدة، كادت تعصف بنظام حكمه الناشئ ، تمثلت في حملة صليبية فرنجية بيزنطية مشتركة، شنت على مصر من جهة دمياط [3] ، غير أنها باءت بالفشل نتيجة لشدة مقاومة قوات صلاح الدين، والإمدادات التي تلقاها الأخير من نور الدين في حلب [4] ، بينما اندلعت في أسوان، ثورة بعد أربع سنوات أدارها أحد مقدمي العسكر المصري ، يدعى الكند ، نجح في تأليب العسكر السوداني ضد جيش صلاح الدين ، وكانت بدورها بالغة الخطورة، لكن العادل سيف الدين، شقيق صلاح الدين، تمكن من إخمادها ، وعلق ابن شداد على الخاتمة

---

[1] كاهن ، الحروب الصليبية ، ص 221.

[2] المرجع نفسه ، ص 165.

(3 Thomas Madden, Crusades. The Illustrated History, Michigan Press, 2004,p 68.

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 35 .

التي أدت إلى إثبات الدولة الصلاحية الناشئة ، فـ ((استقرت قواعد الملك وأستوت أموره)) [1].

ما وقع من حوادث فيما بين سنوات (567–570هـ/1171–1174م) [2]. كانت من الأهمية ما حددت فيه مستقبل النظام السياسي والإداري، لدولة صلاح الدين، وتوجهات الإدارة والقيادة الأيوبية في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، بضم مصر والشام؛ كجزء من تركيبة البنية السياسية والإدارية للدولة الصلاحية، وإعادة ترتيب الجيش وعناصره، بالإضافة إلى مواجهة الأخطار الخارجية، والقضاء على حركات التمرد الشيعية الداخلية، كما أشرنا سابقاً، وهي السنوات نفسها التي أزيل فيها النظام الفاطمي نهائياً من وسط القاهرة؛ عاصمة الدولة، وعادت خلالها سائر الديار المصرية إلى السلك العباسي .

---

[1] المصدر نفسه ، ص 38.

[2] أسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، أسكندرية، 1990م، ص 22 .

المبحث الثاني:- تقاليد الوحدة والجهاد وإشكالية العلاقة بالبيت الأتابكي:-

أولاً:- مفهوم وتقاليد الوحدة والجهاد الإسلامي/الأيوبي.

ترجع تقاليد الوحدة والجهاد في الجانب الإسلامي إلى العهدين السلجوقي والزنكي، (492-539هـ / 1098 - 1144م)، أي منذ المحاولات السلجوقية الأولى، لرفع الحصار الصليبي في مهده، عن أنطاكية،وذلك خلال الحملة الصليبية الأولي [1]، حتى توصل الزنكيين إلى فتح الرها[2]، غير انه يبق أن الأتابك عماد الدين زنكي ، هو من أول وضع القواعد الراسخة والأسس النظرية والعملية الفعالة، لسياسة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والتي اتبعها من جاء بعده من الأمراء والحكام[3]، تلك السياسة المبنية على أسس دينامية/عملية، تهدف وبشكل مباشر إلى إسقاط المعاقل/القلاع الفرنجية المحيطة بحدود الإمارة الرئيسية، ومن تم فتحها. عماد الدين زنكي، يعتبر أول زعيم مسلم، سعى عملياً – وكما تقول فارني - إلى فتح أول الإمارات الصليبية ، إذ استطاع خلال خمس سنوات، تخفيض عدد هائل من القلاع المهمة على طول حدود إمارة الإديسا / الرها، حتى نجح في فتحها عام (539هـ/1144م)[4]. وذلك طبعا دون تجاهل الإرهاصات والحركات الجهادية الأولي، رغم

---

(1) للمزيد من التفاصيل المصدرية عن شاهد عيان حول هذا الموضوع يراجع، فوشيه دوشارتر، تاريخ الحملة إلى القدس، تعريب، زياد العسلي، دار الشروق، عمان، 1990م، ص 59 .

(2) عن أحداث فتح الرها ينظر، محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1990م، 335.

(3) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، تعريب السيد العريني ، النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، (د.ت) ، ص 154.

(4) Allen Varney , The Crusades Campaign Source Book, TSR, USA, 1994, p 12 .

كونها في مطلق الأحوال بطيئة وغير فعالة في النضال ضد الفرنجة، إلا أنه يمكن اعتبارها الخلفية الأولى لعمليات المقاومة والجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وتعقيبا على ما سلف فان هناك من يرى أن سياسة ومفهوم الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، كانت قد صارت في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، من المفاهيم الثورية ضد الفرنجة[1]، وهو تفسير سياسي لردود الفعل الإسلامية من الوجود الصليبي في المشرق، ومن شانه على الأرجح أن يزيل الطابع الجهادي، والمفهوم الديني من الحركات الشعبية المدنية التي دعا لها القضاة والأعيان[*] ، أو ردود الفعل العسكرية التي قادها الأتابكة والأمراء المسلمون ضد الفرنجة .

تجدر الإشارة إلى أن توحيد مصر والشام ، ورفع كفاءة الجبهة الاسلامية لفتح بيت المقدس ، هي من مشاريع صلاح الدين، غير أنها تعكس استمرارية التوجهات الزنكية في المنطقة العربية الإسلامية [2]، وعلى اعتبار أن خلفيات الجهاد الإسلامي ترجع إلى عهود سلجوقية وزنكية، فان صلاح الدين نشأ في أجواء مماثلة خلال عهد سلفه نورالدين محمود زنكي، حتى عرف عنه شغفه واهتمامه بالجهاد ، وقد ذكر قاضي قضاة العسكر ابن شداد ؛ أن ((الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه، يحثه على الجهاد))[3]، وهو من الفضائل التي يشترك فيها صلاح الدين مع معلمه

---

(1) هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، تعريب ، عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح ، طرابلس ، 1990 م، ص 164.

(*) للمزيد من المعلومات عن دور الفقهاء والقضاة والأعيان من الغزو الصليي، ينظر ، جمال سالم ، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، طرابلس، 2000.

(2) جمال سالم ، الحروب الإفرنجية والجهاد الإسلامي ، مجلة كلية الآداب ، طرابلس ، العدد الثامن ، 2008 م، ص 14.

(3) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 19.

نور الدين ، كما أكد على ذلك القاضي ابن الجوزي، بقوله : ((بينهما مقاربة في السيرة والعدل، والأيام واجتناب الآثام ، وكلاهما لا يبلغ ستين سنة ...)) [1].

وفيما يخص الجهاد؛ فإن نور الدين زنكي ((جاهد الثغور وانتزع من أيدي الكفار، نيفا وخمسين مدينة وحصن ...)) [2]. أما صلاح الدين الذي يمكن اعتباره الوارث الروحي لأجندة الملك العادل نور الدين [*] ، فإنه بعد انتهاجه هذا النهج الجهادي ، فتح ((أربعة وسبعون فتوحاً، أستنفده من أيدي المشركين)) [3].

غير أنه من اللافت للانتباه في الدولة الصلاحية، أنه لم يتم تفعيل الجهاد عملياً ضد الصليبيين ، إلا بعد توحيد الجبهة الإسلامية واستيعاب القوى المتنافرة ، وتثبيت أركان الدولة في مصر بالذات ، إلى جانب ضمان كسب صوت المواطن العربي والمسلم في المشرق ، وبالتالي إقناعه بمشروعية الدولة الصلاحية الناشئة على أنقاض الدولة الأتابكية ، وهذا ما جعل صاحب كتاب طبقات الشافعية، يقول بأن صلاح الدين قد أظهر أثناء ضمه لحلب وحمص ((حسن المقاصد ، وأنه قاصد إعزاز الدين ، وإنقاذ البلاد من الفرنج ، وتسهيل أمور المسلمين)) [4]، بينما يشير ابن شداد إلى أنه بعد استقرار دولة صلاح الدين ((وانقياد الناس لطاعته

---

[1] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 433.

[2] أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عطا ، الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 م، ج18 ، ص 209.

[*] لمعلومات مصدرية من شاهد عيان حول جهاد نور الدين ، يراجع الرهاوي المجهول ، تعريب سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة ، دمشق ، 1995م، ج5 ، ص 80-86.

[3] أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، (د.ن) ، القاهرة ، 1972م، ج7 ، ص 120.

[4] السبكي ، طبقات الشافعية ، ج7 ، ص 343.

ولزومهم قانون خدمته ، ليس له شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى إقامة قانون الجهاد)) [1].

وبالإضافة إلى ما تقدم ، يمكن القول أن سياسات صلاح الدين الخارجية، في ضم المدن الشامية الكبرى؛ كحلب ودمشق وحمص، قد لقيت قبولاً وتجاوباً من بعض الأمراء المسلمين ، وكبار الشخصيات المدنية في الشام، في الدعوة إلى لم شمل الأمة؛ مثل كمال الدين الشهرزوري، قاضي قضاة دمشق والشام وأحد كبار موظفي الدولة النورية، والذي كان – كما يقول سبط بن الجوزي – ((إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنكية دمشق إليه ... كتب إليه صلاح الدين أن يساعده على اخذ دمشق ؛ أعانه وفتح له أبوابها)) [2] ، وذلك إلى جانب مساهمة كبار أمراء الشام في دخول الأيوبيين سلما إلى دمشق عاصمة الدولة النورية، أو كما القاضي الفاضل ((ملكنا دمشق عناية لا عنوة)) [3]، ويشير أبو شامة ؛ إلى أن الأمير شمس الدين بن المقدم وهو أحد أكابر أمراء الدولة النورية ، كان قد سهل على الأيوبيين دخول دمشق [4]، بالذات ، حيث كان الملك الناصر صلاح الدين يردد هناك : ((ما قصدي إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج !)) [5]. كما تمكن صلاح الدين أيضا من ضم حلب سلما، وهي الأخرى إمارة زنكية يديرها عماد الدين زنكي الحفيد، والذي اشترطت عليه

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 60.

[2] سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8 ، ص340 .

[3] المصدر نفسه ، ج8، ص 327 .

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 3.

[5] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 328.

إدارة وقيادة دولة صلاح الدين أمداد الجيش الأيوبي بالعساكر وقت الحروب والجهاد، وهذه السياسة السلمية كانت على الأرجح من تنظير القاضي الفاضل الذي ذكر في احد كتبه ((تسلمنا مدينة حلب وقلعتها بسلم، وضعت بها الحرب أوزارها ... واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة في مواقف الغزو والمصابرة، فأنتظم الشمل الذي كان نثيرا وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا)) [1].

أما فيما يخص الجهاد ضد الفرنجة الصليبيين ، فإنه يلاحظ أن نجاعة القوات الأيوبية، مرتبط بسياسة الدولة تجاه مفهوم ومتطلبات الجهاد بذاك العصر ، وتلك السياسة في تقديرنا، مقامة على عدد من الركائز الأساسية؛ أبرزها:-

تحفيز صلاح الدين لجنده ، حيث كان ((يعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد)) [2]. وتقربه وتفقده لصفوف الجيش قبيل القتال ، حيث يردد لجنده : ((ما أنا إلا واحد منكم ! ؟)) [3]، إلى جانب كثرة عطاياه ونفقاته [4]، ثم تدينه ، وذلك باستناده على قناعات دينية ؛ منها اهتمامه بتوقيت خروج الجيش الإسلامي ، في يوم الجمعة ، ووقت الصلاة ((تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر)) [5] إلى جانب استشارته الدائمة لمستشاره ورئيس ديوانه، القاضي الفاضل، وقد ذكر أبو شامة أن صلاح الدين ((هم بالغزاة – أي أخذ يفكر في الغزو والجهاد – فبدا بزيارة القاضي

---

(1) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 105.

(2) المصدر نفسه ، ج4 ، ص 53.

(3) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 428.

(4) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 16.

(5) المصدر نفسه ، ص 60.

الفاضـــل ... فاستضـاء برأيـه فيمـا يريـد فعلـه، وكـان لا يـأتي أمـرا إلا مـن بابـه)) [1]. وفـي هذا الاتجاه ، يقـع ارتبـاط الجميـع من أمـراء ومـوظفين ، عامة وجند ، بالنظرية الدينية في الجهاد ضد الفرنج ، والتي يعتبر صـلاح الـدين أبـرز منظـر ومجسـد لهـا [2]، تلـك القناعـات الفكريـة والدينيـة التـي دعـت الأميـر العـادل سيف الـدين أبـي بكـر، شـقيق صـلاح الـدين، إلـى الإعـلان خـلال المفاوضـات مـع ريتشـارد قلـب الأسـد ، وصـليبي الحملـة الثالثة؛ عن عدم التنـازل للصـليبيين عن أي جزء من تراب الإسـلام ، وعدم التخلـي عـن الجهـاد، والالتـزام بطـرد الفرنـج ، واسـترجاع حـدود المسـلمين ، حيث ختم ((دون حدود البلاد حدود الحداد)) [3].

من جانـب آخـر ، فإن تحالفات صـلاح الدين مع الأمـراء المسلمون فـي الشـام، لتأسيس وحـدة / رابطـة دينيـة ؛ مـع القـوى الإسـلامية ، وعلـى النهج/النموذج الزنكي، كان مقاماً على أسس من الحماس والحمية الدينية ، بالإضافة إلى الاستياء الشعبي من غارات الفرنجة [4]، ذلك الاستياء الذي دب كما ذكر ابن الجوزي مذ دخول الإفرنج الشام عام (491هـ/1097م)، عندما ((كثر الاستنفار على الإفرنج وتكاثرت الشكايات بكل مكان)) [5]، وانطلاقاً من ذلك، فإن الملك الناصر صـلاح الدين، شعر منذ توليه مقاليد الحكم؛ بأنه مطالب بتنفيذ مهمة دينية ، تفضـي إلى فتح الإمارات الصليبية، واسترجاع القدس، وإنقاذ الناس من شر الفرنج، حيث أخبر قاضـي قضـاة

---

[1] أبو شامة، كتاب الروضتين ، ج 4 ، ص 7 .

[2] ستيمفين همفريز ، من صـلاح الدين إلى المغول ، تقديم ، عايدة نعمان ، مجلة تاريخ العرب ، بيروت، 1980 م، العدد 15 ، ص م .

[3] محمد العماد الكاتب الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، دار المنار ، (د.م) ، 2004 م، ص 284.

[4] Michael Oneal, , The Crusades Almanac, Thomson Gale, USA, 2005, p 100 .

[5] ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الأمم،ج 17 ، ص 43.

عسكره ابن شداد ، بأنه يشكر الله على نعمة الملك واستطرد قائلاً :- ((لما يسر لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي)) [1].

وفي الوقت نفسه، يعدّ فتح الساحل ذاته إلى جانب استرجاع القدس، مشروع عمل زنكي ، وإن كان صدى وقوع القدس في يد الصليبيين بعيد الأثر في نفوس المسلمين ، حيث يشير الحنبلي العليمي، إلى انزعاج ((المسلمين في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس ، غاية الانزعاج)) [2]. غير أن أحداً لم يصمم على فتح المدينة المقدسة كما فعل صلاح الدين ، حيث كان يعبئ أمراء دولته وكبار مساعديه بضرورة تحرير القدس ؛ نجد ذلك في رد أرسله إلى أحد كبار أمراء دولته ، وهو الملك المظفر تقي الدين عمر[*] الذي كان يسعى إلى مد جناح الدولة من جهة الغرب وتثبيت اسمه هناك ، فجهّز تقي الدين قائده قراقوش لغزو إفريقية [*] ، بعد التقرير الذي تلقاه عن أن ((البلاد سائبة)) [3]، لكن

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 34.

[2] مجير الدين أبو اليمن الحنبلي العليمي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، 1973م، ج1 ، ص 308.

[*] تقي الدين عمر شاهنشاه بن أيوب، كنيته الملك المظفر، أحد الأمراء الأيوبيين البارزين بالدولة، تولت أسرته من بعده تأسيس حكم ذاتي في حماة، للمزيد ينظر، ادوارد فون زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تعريب، زكي حسن وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، 1980م، ص 153.

[*] للمزيد من المعلومات المحلية عن غزوة قراقوش لبرقة وطرابلس وأفريقية ، يراجع كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، محمد خليل بن غلبون، اعتناء ونشر، الطاهر الزاوي، القاهرة، 1930 ، طرابلس ، ص 60 .

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين، ج3 ، ص 165.

صلاح الدين رفض المشروع بكامله من الناحية النظرية ، بقوله له في رد بعثه إليه : ((لعمري أن فتح المغرب مهم ، ولكن فتح البيت المقدس أهم ، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم)) [1]، وفي الواقع أن غزوة قراقوش لأفريقية، والتي سببت الخلاف بين الموحدين والأيوبيين، ووقوفها بالتالي حائلا دون تجاوب أمير الموحدين أبو يوسف بن عبد المؤمن، لطلب صلاح الدين في المساعدة بشأن صد الحملة الصليبية الثالثة عام (586هـ/ 1190م) [2]، هذه الغزوة تعتبر عملا فرديا من جانب الأمير الأيوبي تقي الدين عمر خلال نيابته على مصر، إذ أن ابن الأثير خلال حديثه عن هذه الغزوة لم يذكر شيء عن صلاح الدين، في الوقت الذي كان يتحدث فيه عن تقي الدين عمر وما أسفرت عنه حملة قائده بهاء الدين قراقوش [3]، كما إنها لم تحظ بموافقة القيادة الأيوبية، أو تصديق الديوان الأيوبي عليها، وقد أوضح رئيس الديوان المصري القاضي الفاضل، وجهة نظره في هذه المسالة، فكتب إلى تقي الدين عمر في أفريقية : ((يا مولانا ماهذا الوقع الذي وقع ... أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت؟ والأسباب بنا مقطوعة، ولا والله ما انقطعت؟ يا مولانا إلى أين وما الغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد ؟ أو في شكوى من عدم، كيف نختار على الله وقد اختار لنا !...)) [4] .

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3، ص 166 .

[2] المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 111 .

[3] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 47 .

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 166 .

وبالعودة إلى موضوع فتح القدس، فإنه ثمة مؤشرات تفيد بأن فتحها كان مخططاً نورياً ؛ أعده الملك العادل نورالدين محمود، صاحب الدولة النورية بالشام ، فلقد ذكر ابن أيوب أن صلاح الدين أمر بعد فتح القدس، بإحضار المنبر الذي صممه نور الدين في حلب ، وأن هذا الأخير كان يردد في شأنه : ((هذا لأجل القدس !)) [1]. كما ذكر ابن الجوزي هذه النقطة بشيء من التفصيل، حيث قال : ((كان في عزمه أن يفتح بيت المقدس ، فعمر منبراً وقبلة ، بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفي قبل الفتوح ؛ فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب)) [2] .

وهكذا يمكن أن نستنتج من هذين النصين ما يلي :

1- اقتفاء نورالدين محمود لنهج سلفه عماد الدين زنكي، في توحيد الجهود الإسلامية لرد عادية الفرنج عن بلاد الشام .
2- قوة الوازع الديني لدى نورالدين محمود، وذلك من خلال اهتمامه وتشاغله بتحرير القدس حتى وفاته، لما لها من مكان وقدسية دينية عند المسلمين قاطبة .
3- تأسّي صلاح الدين الأيوبي بسياسة نورالدين محمود في الذود عن ديار الإسلام ضد الصليبيين، وتسخير كل الإمكانيات من أجل تحرير القدس من أيديهم .
4- أن جهود الزكيّين، عماد الدين ونور الدين محمود، في توحيد القوى الإسلامية، لمواجهة الخطر الصليبي المحدق ببلاد الشام، قد توّج وآتى الله على يد البطل الأيوبي صلاح الدين، الذي دحر

---

(1) ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 275.

(2) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 313.

الصليبيين في حطين سنة (587هـ / 1191م) واسترجاع القدس للحظيرة الإسلامية، بعد أن بقيت مستعمرة صليبية ردحاً من الزمن .

بيد أن صلاح الدين، لم يكن سوى طاقة متجددة لحركة الجهاد الإسلامي، لأنه لم يركن إلى حياة الترف واللين التي عاشها الحكام الفاطميون قبله [1] ، فسعى إلى توحيد الجبهة العربية والإسلامية لقناعته بأن صمود المملكة اللاتينية ببيت المقدس، لا يرجع إلى التحالفات الذكية التي أقامها الصليبيون، أو القلاع (الإستراتيجية) المحصنة أو حتى بعض الانتصارات الحاسمة جزئيا طوال تسعين عاماً، بقدر ما يرجع ذلك إلى تفتت القوى الإسلامية وانحلالها زمن الحروب الصليبية [2]. وعليه فإن مسألة توحيد الجبهة، هي السياسة نفسها التي سار عليها نور الدين ضد الفرنجة في سوريا، وفلسطين ، تلك السياسة التي مهدت الطريق أمام صلاح الدين لإقامة دولة أيوبية مترامية الأطراف [3]. « بعد فتح الساحل جميعه في ثلاث وثمانين وخمسمائة » [4]. وفي دولة إسلامية وفق مفاهيم ذاك العصر، ضمت كل من مصر والشام والجزيرة الفراتية ، وبرقة

---

[1] محمد عوض ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، عين للدراسات ، (د.م) ، 2000م، ص 210.

[2] جيمس رستون ، محاربون في سبيل الله ، تعريب ، رضوان السيد ، مكتبة العبيكات ، الرياض ، 2002 م، ص 31.

[3] كليفورد بوزورث ، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، تعريب حسين اللبودي ، الشراع العربي ، الكويت ، ط2 ، 1995م، ص 175.

[4] الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء ، التبر المبسوك في تواريخ الملوك ، تحقيق محمد عزب ، الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1995 م، ص 68.

واليمن والحجاز [1] ، مع خطبة عباسية أيوبية تجاوزت النطاق الجيوسياسي لتلك البلدان ، فامتدت من همذان شرقاً حتى المغرب غربا، وكما يقول سبط بن الجوزي : ((وخطب له على المنابر من باب همذان؛ إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن المغرب إلى أفريقية)) [2].

ثانياً : الشام ومصر في ظل الإدارة الزنكية والأيوبية/دراسة في العلاقات والإشكاليات الأيوبية الزنكية :-

كما أتضح خلال المبحث الأول ، فإن ثمة علاقات جيدة كانت تربط بين الأيوبيين الأكراد ، وبين الأتابكة الأتراك ، تلك العلاقات التي ترجع إلى خلفيات عهود زنكية وسلجوقية ، غير أن الظروف السياسية، كانت قد تبدلت مع تولي صلاح الدين مقاليد الوزارة في مصر ، وهو أعلى منصب من الناحية الإدارية في ذاك البلد، فساءت العلاقات بين الطرفين – لأسباب سنأتي عليها – قبيل وفاة نورالدين محمود عام (569هـ/1173م) ، وفي الواقع كان صلاح الدين الذي كان وزيرا في تلك الفترة، لا يزال يوطد نظام حكمه في مصر، بينما كان السلطان نور الدين محمود قد عزم السير إلى بلاد الأفرنج ، والابتداء بإمارة الكرك الصليبية، الواقعة على الحدود المصرية الشامية؛ فأرسل يطلب مساندة صلاح الدين وقواته [3] ، غير

---

[1] ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج7 ، ص 68.

[2] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 433.

[3] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 36.

أن صلاح الدين الذي كان لا يزال منشغلاً بأحوال مصر الداخلية ، إلى جانب تحريض مساعديه له بعدم الاجتماع بنور الدين ، كتب وكما يقول ابن الأثير ((يعتذر فيه على الوصول إليه، باختلال البلاد)) [1].

وقد أدي ذلك إلى وقوع الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين، فظهرت الشكوك في النوايا، وأتهم صلاح الدين بالتمرد والسعي إلى الاستقلال بمصر، بعد رفضه تحريك عسكره من مصر باتجاه الكرك ، وغضب السلطان نور الدين ((فلم يقبل عذره، وتغير عليه، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية)) [2] ، قاصدا انتزاع مصر من الأيوبيين، وكان تدخل الأمير نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، قد أدى إلى عودة تحسن العلاقات بين الأيوبيين والزنكيين، بعد إعلانه أن ((هذه البلاد – يقصد مصر – لنور الدين، ونحن مماليكه ونوابه فيها)) [3]. والواقع أن مصر والشام لم يكونا دولة واحدة طوال عهد نور الدين، بمعنى أن إدارة وقيادة صلاح الدين، كانت شبه مستقلة في مصر [4] ، وذلك دون أن نغض النظر عن الحكم الإقطاعي العائلي الأيوبي في مصر، والذي سنفرد له فصلا، ودوره في إدارة وتعبئة البلاد، فلقد استقبل صلاح الدين كما يذكر أبوشامة، والده الأمير المكنى بالملك الأفضل نجم الدين أيوب ((وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه[*] قوص وأسوان

---

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، ص 158.

[2] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2 ، ص 699 .

[3] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2 ، ص ص 699 – 700 .

[4] أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب ، تعريب ، عفيف دمشقية ، دار الفارابي، (د.م) (د.ت) ، ص 232.

[*] شمس الدولة توران شاه بن أيوب، شقيق صلاح الدين، كنيته الملك المعظم، أرسله صلاح الدين لضم اليمن سنة 569هـ، فتولى نيابتها، للمزيد ينظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1 ، ص 306 .

والبحيرة، وكانت عبرتهما في هذه السنة مائتي ألف، وستة وستين ألف دينار))[1] وإن كانت مصر – في عهد نور الدين وصلاح الدين – من الناحية الإدارية تابعة للشام، حيث مقر الدولة الأتابكية ، فإن تلك التبعية كانت اسمية، خصوصا وأن ضم النوبة واليمن والحجاز، إلى مصر فيما بين سنوات (568–569هـ/ 1172–1173م) قد تم بفعل الأيوبيين في مصر، رغم تصديق نور الدين وإقراره بذلك[2] ، وهو ما كان قد لاحظه الأتابكة حول نور الدين في الشام، فكان سبباً من مسببات الإشكال في العلاقات بين الجانبين.

بعد وفاة نور الدين محمود عام (569هـ/1173م)، وطبقاً لسير الأحداث ، فإن صلاح الدين أخذ يوجه أنظاره نحو دمشق ، عاصمة الدولة النورية ، حيث كان نور الدين قد خلف ابناً وحيداً لتسلم الحكم ، وهو في العشر سنوات من عمره[3]. ودمشق هي واحدة من أكبر العواصم الإسلامية في الشرق، إلى جانب القاهرة وحلب والموصل ، وهي من المدن ذات الإمكانيات ، فقلعتها تضم عدداً من ((الآبار ومجار للمياه ، ومصارف ، بحيث إذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه))[4] ، وضمها هو مطلب أساسي لأي قيادي يسعى إلى تأليف جبهة متحدة ، ويمكن اعتبار أن صلاح الدين كان يحدو حدو معلمه نور الدين، الذي سبق وأن ضم دمشق إلى عاصمته حلب ، وكان تحولاً مهماً وخطيراً علق عليه وليام الصوري ، والذي كان شاهد عيان حين قال : ((

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 2 ، ص 100.

[2] محمد المطوى ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، الغرب الإسلامي ، تونس ، 1982 م، ص 82 .

[3] Zoe Oldenbourg, The Crusades , Random House , NewYork, 1966 , p 382.

[4] أبو البقاء عبدالله البدري ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، الرائد العربي ، بيروت ، 1980 م، ص 35.

كان هذا التغيير الذي أحدثه نور الدين في دمشق ، كارثة لحقت بمصالح مملكة بيت المقدس)) [1]. بواقع أن المصالح اللاتينية الأمنية والتجارية، كانت قد تعرضت على الأرجح للضغط بعد ربط حلب بدمشق ، كما أن ربط المراكز الإسلامية الكبرى في الشام؛ كحلب ودمشق وغيرها، يؤدي تباعا إلى توحيد الجهود، فتكون ردة الفعل الإسلامية بالتالي أكثر تركيزاً، وأبلغ ضرراً على الإمارات الصليبية .

لكن في واقع الأمر ثمة سببين رئيسيين، كانا وراء ضرورة تحرك صلاح الدين إلى ضم المدن الكبرى ببلاد الشام ، فالمؤرخ شمس الدين الذهبي، يتحدث عن استئناف الصليبيين لنشاطهم في الشام، بعد إدراكهم نبأ وفاة الملك نور الدين ، حيث نازلوا بانياس[*] ، بينما أضطر الملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين، إلى مصالحتهم ، فكان ذلك سبباً كافياً في رأي هذا المــؤرخ، حول توجه الملك الناصر صلاح الدين لضم الشام ((ليرهب الفرنج)) [2] ، خصوصاً وأن الملك الصالح كان ولداً لم يكد يتجاوز العشر سنوات ، أو كما ذكر القاضي ابن شداد ، كان ((طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد)) [3] .

---

[1] وليام الصوري ، تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار ، تعريب حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د.م) ، 1994 م، ج3 ، ص 360.

[*] بانياس مدينة قريبة من دمشق هي ثغر لبلاد المسلمين ، كانت بيد الفرنج فاسترجعها نور الدين ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، هيدلبرغ ، بيروت ، ط2 ، 1984م، ص 74.

[2] الحافظ شمس الدين الذهبي ، دول الإسلام ، تحقيق حسن مروة ، دار صادر ، بيروت ، 1999 م، ج2، ص 76.

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 40 .

من وجهة نظر زنكية لم يكن صلاح الدين اسفهسلاراً [*] أو قائداً عاماً ، يفكر في مصالح الرعايا المسلمين ، بل اعتبر مجرد متمرد عسكري على النظام الأتابكي ، ويرى هاملتون أن الأتراك في تلك الفترة احتقروا كثيراً من الأجناس الإسلامية الأخرى؛ وخصوصاً الأكراد ، ذلك التعالي كانت نتيجة الافتخار بالتقاليد العسكرية والإدارية المغروسة في أذهانهم ، إلى جانب احتكار أمرائهم احتكاراً شبه كامل للجهاز السياسي والإداري والعسكري [1]. الأمر الذي دعا ابن الأثير أن يدّون تعليق أحد عرفاء الموصل الأتراك، حول تعثر صلاح الدين في امتطاء جواده في حضرة ملك سلاجقة الروم، معز الدين قيصر شاه ، وأبن أتابك الموصل علاء الدين خرمشاه ، قائلاً : ((وما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت ، يركبك ملك سلجوقي ، وأبن أتابك زنكي)) [2]. وفيما يبدو فإن الحساسيات ذات الشكل الإثني/ العرقي، كانت متبادلة بين الطرفين [*] ، فلقد ذكر الأصفهاني ما يفيد بأن الأكراد يرفضون أن يتقمص أبناؤهم زياً غير محلي ، كما كانت لهم طريقة خاصة في قص شعورهم ، ويرفضون ظفر شعورهم تجنباً لمحاكاة الأتراك [3]. من جانب آخر، وفيما يخص العلاقات الأيوبية

---

[*] الأسفهسلار هو مقدم العسكر، وهو لقب من ألقاب أرباب السيوف، مركب من لفظين فارسي تركي، أسفه بالفارسية تعنى المُقدم، وسلار بالتركية تعنى العسكر، أبو العباس أحمد القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ج 6، ص 7 .

[1] السير هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبي ، تعريب يوسف ايبش ، بيسان للنشر ، بيروت ، ط2 ، 1996م، ص 189.

[2] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 212.

[*] الخلافات الأزلية بين الأتراك والأكراد ، كانت قد أخذت أبعادا عرقية في جهات ما بين النهرين على عهد صلاح الدين ، حيث ذكر ابن شداد أن وقعات كثيرة كانت قد وقعت بين الطرفين قتل فيها خلق عظيم ، للمزيد ينظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 57.

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 306.

الزنكية في الشام، فإن صلاح الدين كان قد دخل دمشق سلماً ، بعد أن دخل صاحب بصرى[*] في خدمته ، حيث أظهر مبدئياً أنه جاء لحفظ البيت الأتابكي ، و((أنه أحق الناس بتربية ولد نور الدين)) [1]. كما أعلن عن استمرار الخطبة والسكة باسمه ، وفي ظل هذه الشرعية ، بادر الملك الناصر إلى محاصرة حمص وإخضاع حماة عام (570هـ / 1174م) ، ثم تبدل موقفه من عماد الدين زنكي الحفيد صاحب حلب ، الذي رفض الاعتراف فيما يبدو بشرعية الموقف الأيوبي؛ أما بالنسبة لصلاح الدين فإنه ((سار فحاصر حلب ، وأساء العشرة في حق آل نور الدين)) [2].

وعلى أية حال؛ فإن أول نزاع وقع بين الأيوبيين والزنكيين، كان من جهة صاحب الموصل، سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود، وهو أبن أخ لنور الدين محمود، وأحد أحفاد الأتابك زنكي، والواقع أنه كان قد أصابته شكوك في نوايا صلاح الدين في الشام ، وحدس إلى أنه سينتهي إلى حصار الموصل ، ولقد كان صائباً في توقعاته، لذلك بادر إلى الاشتباك به في موقعه عرفت بقرون حماة؛ غير أنها أسفرت عن هزيمة القوى الزنكية [3] . حدث ذلك عام (570هـ/1175م) ، غير أن العلاقات تعقدت أكثر مع قيام الأتابكة بالاتصال بصليبي أنطاكية، لغرض تشجيعهم

---

[*] بصرى كورة من كور دمشق بالشام، أي من أعمالها وتقع بقربها، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، أبو القاسم عبيد الله بن خردادبة ، المسالك والممالك ، بريل ، ليدن ، 1889م، ص 77.

[1] عماد الدين القرشي بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق ، عبدالله التركي ، هجر للطباعة ، الجيزة ، 1998م، ج16 ، ص 501.

[2] الذهبي ، العبر ، ج3 ، ص 59 .

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 40-41.

على مهاجمة قوات صلاح الدين في الشام ، حتى يضطر الأخير للتراجع عن استهداف الموصل [1].

كما بلغ صلاح الدين أمر تحريض الزنكيين للفرنج، غير أنه كان مقتنعاً أيضا بضرورة ربط المراكز الإسلامية في الجهاد ضد الفرنجة ، لذلك ((أنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدو الله)) [2]. وبالتالي فإنه صرف العقد الأول من حكمه ، في إخضاع القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وأطراف العراق [3]. فورث أملاك الأتابكة في الشام ، كما ورث أملاك الدولة الفاطمية بمصر [4].

وبالرغم من أن الأشكال والتوتر في العلاقات بين صلاح الدين والبيت الأتابكي ، والقائم على التعالي وسوء الفهم، وعدم اقتناع الأمراء الزنكيين بسياسة صلاح الدين في ضم الشام إلى مصر، كان قد استغرق من الطرفين نحو عشر سنوات (570هـ - 581هـ / 1174 - 1185م) وهي سنوات أخذت في بعض الفترات، وجها مسلحا [*] ، غير أنه يلاحظ أن الأيوبيين تمكنوا من إنهاء النظام الأتابكي في دمشق وحلب، تماماً، وأن الأمر لم يكن مماثلاً في الموصل والجزيرة الفراتية ، وسنجار؛ حيث استمر النظام الأتابكي قائماً هناك – رغم خضوعه لسلطة صلاح الدين

---

[1] حامد زيان ، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، 1983 م، ص 82.

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 46.

[3] Oneal, The Crusades Almanac, p 124.

[4] السيد سالم ، وآخرون ، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، مؤسسة شباب الجامعة ، أسكندرية ، 1992 م ، ص 101.

[*] للمزيد من المعلومات عن الصدامات العسكرية والحروب الأيوبية الزنكية، ينظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10 ، ص ص 74 – 76 .

الاسمية – حتى وصول جحافل المغول أواسط القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وهو ما لم يشر إليه ابن الأثير، في تاريخه (الباهر عن أتابكة الموصل) [1].

ومن جهة أخرى وإلى جانب استنفاذ صلاح الدين للموارد الإسلامية في ذلك النزاع ، فإنه ثمة ضغط من اللاجئين من الأهالي المسلمين ، بالإضافة إلى إلحاح الفئات المدنية [2]. لاسيّما من النساء الأتابكيات ؛ اللاتي خرجن كما يذكر سبط بن الجوزي؛ للتشفع عند صلاح الدين بوقف القتال [3] ذكر منهن النويري، والدة عز الدين مسعود صاحب الموصل ((وأبنه عمه الملك العادل نور الدين الشهيد ، وغيرهما من النساء في جماعة من أعيان الدولة ...)) [4]. وبالإضافة إلى إلحاح الفئات المدنية ، ثمة آراء كبار موظفي الدولة كالعماد الأصفهاني[*]، والقاضي الفاضل بالذات، اللذان كانا يحثا صلاح الدين على ضرورة وقف القتال بين المسلمين، وتوجيه السيوف نحو خصم خارجي [5] ، وقد ذكر ابن العبري أن العامة سخطت على صلاح الدين، بعد رفضه شفاعة النساء عنده، كما

---

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، ص 204.

[2] Smith, History of the Crusades, p 229.

[3] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 384.

[4] النويري ، نهاية الأرب ، ج28 ، ص 257.

[*] هو محمد بن صفي الدين أبي الفرج، كنيته أشهر من أسمه، وهي العماد الكاتب أو العماد الأصفهاني، أتقن في بغداد الفقه والخلاف والأدب والرسائل، للمزيد ينظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5 ، ص 147 .

[5] Smith, History of the Crusades, p 229.

((جاءته كتب القاضي الفاضل وغيره، يقبحون فعله وينكرونه))[1]. ومن أقوال القاضي الفاضل المأثورة في هذا الشأن ((وكيف نعدل إلى حرب الإسلام المنهي عنها؛ ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب !))[2].

كل هذه الظروف التي سبق ذكرها مجتمعة؛ كانت وراء قرار تجميد صلاح الدين لجميع خلافاته مع الأتابكة ، حيث حدث أن أطلق وعداً سنة (581هـ / 1185م)، نذر فيه إذا ما تعافى من مرضه الذي أصابه خلال حصار إمارة الموصل الزنكية؛ أن لا يستل سيفه في وجه مسلم ، وأن يسخر قوة جيشه ضد الفرنج الصليبيين، ((ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولا يقاتل بعد ذلك مسلما))[3]. ويبدو أن المرض الشديد الذي ألم بصلاح الدين تحت أسوار أتابكية الموصل ، كان حافزاً ودافعاً غير من اتجاهاته السياسية في المنطقة ، وبالتالي غيّر توجيه أنظاره نجو الجهاد ضد المملكة اللاتينية، وفتح بيت المقدس ، إذ أن أبو شامة ، يتحدث صراحة – وفيما ورد عن العماد الكاتب – أن صلاح الدين نذر إذا تعافى من مرضه؛ بأن يشتغل ((بفتح البيت المقدس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس ، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام...))[4]، وأكثر من ذلك فإنه يستطرد في موضع آخر ، بما يدعو إلى دحض ذلك النزاع الذي يتحمل صلاح الدين ،

---

[1] غريغوريس الملطي العبري ، تاريخ مختصر الدول، تصحيح، أنطون صالحاني، الرائد اللبناني، بيروت، ط2 ، 1994، ص 168 .

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 166.

[3] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج16 ، ص 570.

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 154.

حسب رأيه المسؤولية في الجانب الأكبر منه ، ((كان ذلك المرض تمحيصاً من الله للذنــوب وتنزيها ، وتذكرة موقظـــة من سنة الغفلة وتنبيها)) [1]. أو كما قال القاضي الفاضل عن تلك الحرب بين الأيوبيين والزنكييـــن في جهات الموصل، والمرض الذي ألـّم بصلاح الدين هناك: ((أطفئت نارها وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وما كانت إلا فلتة وقى الله شرها، وعظيمة كفى الإسلام أمرها)) [2] .

يمكن القول أن تعمد القيادة الأيوبية، وعلى رأسها صلاح الدين؛ إلى إخضاع المدن والحواضر والقوى الإسلامية بحد السيف، كان إجراءً ضرورياً من وجهة نظر أيوبية، لما له من تأثير بالغ على مسار القضية الإسلامية في بلاد الشام والأراضي الفلسطينية، ومن جهة أخرى يتعين علينا أن نستنتج أيضاً أن تقاليد الوحدة وأسس الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ترجع إلى خلفيات عهود زنكية نورية؛ وأن صلاح الدين نشأ في ظروف مملوءة بأجواء الحرب والجهاد، وذلك في ظل الدولة النورية، فتشبع بالتالي بأفكار جذرية وراسخة عن ماهية الوجود الصليبي في الشام، وهي خصائص مكنته – بعد انتهاجه النهج الزنكي في الوحدة والجهاد – من ربط مصر والشام، وإزالة الحكم الفاطمي، ومن ثم، لم شمل الأمة؛ من همذان شرقاً، إلى برقة غرباً، والنجاح بالتالي في تحرير أجزاء واسعة من الأراضي المقدسة وبلاد الشام، بعد فتح القدس والانتصارات التي تلت نصر حطين (587هـ / 1191م) .

---

(1) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 155.

(2) المصدر نفسه ، ج 3 ص 156.

الفصل الثاني وهو بعنوان: دواوين الدولة ، وهو جزء من مكونات البنية الإدارية لدولة صلاح الدين، سيتم التعريف خلاله برئاسة الديوان الأيوبي/الإنشاء نموذجا، وعلاقته بالديوان العباسي، باعتباره الجهة الأهم التي تعطى الشرعية لسياسات الدولة الصلاحية في مصر والشام، مع التعريف بأبرز رؤساء الدواوين في الدولة الأيوبية؛ وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وأهمية رسائلهما السلطانية، وأثرهما على السياسة الداخلية والخارجية الجهادية، مع محاولة ستكون في المبحث الثالث لتسليط الضوء على الديوانين الآخرين بالدولة؛ وهما ديوان الجيش وبيت مال المسلمين، وما يرتبط بهما من سياسات مالية، بحسب المعلومات والمواد المصدرية الأولية .

الفصل الثاني

دواوين الدولة الأيوبية عهد صلاح الدين الأيوبي
ودورها في حركة الجهاد

المبحث الأول :- الدور السياسي للديوان الأيوبي في العلاقات مع العباسيين وأثره في الجهاد ضد الصليبيين :

أولاً :- التعريف برئاسة الديوان الأيوبي/ الإنشاء نموذجاً ، طبيعة عمله، مهامه و متطلباته :

ثانياً :- صلاح الدين والسلطة الروحية/ العلاقات السياسية والدبلوماسية مع المقام العباسي وأثرها في بنية الدولة والجهاد :

المبحث الثاني :- أهمية ديوانيّ الإنشاء في مصر والشام من خلال الرسائل الديوانية :

أولاً :- رئيس ديوان الإنشاء بالقاهرة / القاضي الفاضل ودوره في الدولة والجهاد :

ثانياً :- رئيس ديوان الإنشاء بدمشق / العماد الكاتب ودوره في الدولة والجهاد :

المبحث الثالث :- ديوانيّ الجيش وبيت مال المسلمين :

أولا :- ديوان الجيش/ الناظر قاضي قضاة العسكر الأيوبي ، مهامه وأبرز أعماله :

ثانيا :- المالية الصلاحية و بيت مال المسلمين/ دراسة في الشؤؤن المالية الداخلية والخارجية الجهادية :

المبحث الأول: الدور السياسي للديوان الأيوبي في العلاقات مع العباسيين وأثره في الجهاد ضد الصليبيين :-

أولاً : التعريف برئاسة الديوان الأيوبي/الإنشاء نموذجا / طبيعة عمله، مهامه، متطلباته :

الديوان هو الجهاز الإداري الرفيع بالدولة ، والذي يحوي الوارد والصادر؛ من الرسائل السلطانية، ويختص كما يقول المقريزي " بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال " [1]، أما الإنشاء، فهي كما يوّضح القلقشندي " مصدر أنشأ الشيء ؛ إذا ابتدأه أو أخترعه على غير مثال يحتديه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام، ويبتكره من المعاني، فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها " [2].

رئاسة الديوان تعتبر من الوظائف الراقية في السلم الوظيفي بالدولة الأيوبية الصلاحية ، وصاحبها يعد مستشاراً للسلطان ، وليس بينه وبين الحاكم حجاب ، ومصّرح له بالدخول متى شاء [3]، و يعد أيضاً مقدماً بين الملوك والحكام، كما انه مطّلع على أسرار الدولة وخفايا النظام، وبالتالي فإن رئاسة الديوان تعد كوظيفة " أرفع محل وأشرف قدر" [4] بين كثير من وظائف الدولة . وكما يخبرنا ابن الفرات؛ فإنه لا يتولاها " إلا أجّل الكُتّاب بلاغة " [5]. ورئيس ديوان الإنشاء تحديداً، لديه متطلبات يجب

---

(1) المقريزي ، الخطط المقريزية، ج1 ، ص 262.

(2) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج1 ، ص 52.

(3) المقريزي ، الخطط المقريزية، ج2 ، ص 149.

(4) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج1 ، ص 101.

(5) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج4 ، ص 140.

توافرها في شخصه؛ أبرز هذه المتطلبات، كما يذكر ابن الصيرفي: " أول ما يجب أن يكون رئيس ديوان الرسائل، ومتولي الكتابة عن حضرة المُلك؛ ذا دين وورع ، وأمانة، فأنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة " [1]. و يضيف ابن مماتي؛ قائلاً : " يجب أن يكون الكاتب حراً مسلماً، عاقلاً ، صادقاً، أديباً ، فقيهاً ، عالماً بالله تعالى ، كافياً فيما يتولاه ، أميناً فيما يستكفاه " [2] ، كما يجب على الكاتب أيضاً ، كما يرى القلقشندى؛ أن يكون بشوشاً، فصيحاً في ألفاظه ، وطليقاً في لسانه ، مجداً في عمله ، أصيلاً ويتقد ذكاءً ووقاراً [3]، إلى جانب الاطلاع والدراية ببحور اللغة العربية، والضلوع في القواعد النحوية ، والمعرفة باللغات الأخرى؛ غير العربية، كالفارسية والتركية واليونانية واللاتينية وغيرها من لغات ذاك العصر، كي يستطيع الترجمة والرد؛ على ما يصل عبر البريد، إلى ديوان الرسائل؛ من الدول والأمم الأخرى [4] .

في واقع الأمر يتعين علينا التنويه، إلى أن دواوين الدولة في عهد صلاح الدين؛ كانت لا تزال كما كانت عليه دواوين الدولة العربية الإسلامية، دواوين عربية أصيلة في نهجها ونظمها، فاللغة العربية هي اللغة المستخدمة، كما هو ظاهر في الوثائق والكتب، والرسائل السلطانية،

---

(1) أمين الدين أبي القاسم الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل ، تحقيق ، أيمن سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1990 ، ص 7.

(2) الأسعد الوزير بن مماتي ، قوانين الدواوين، تحقيق، عزيز سوريال، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1991، ص 66 .

(3) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج1 ، ص 104.

(4) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط2، (د.ت) ، ص 333.

الموثقة من دواوين الإنشاء، والمحفوظة بشكل جيد في المصادر ذات العلاقة المباشرة؛ ككتاب الروضتين لأبي شامة . وإذا ما أخذنا العماد الكاتب، باعتباره غير عربياً/ فارسياً؛ تولى رئاسة الديوان الأيوبي في الشام، فإن ابن تغرى بردي أعتبره " فاضلاً حافظاً لدواوين العرب " [1] ، وعلى الرغم من وصول عناصر قيادية غير عربية – ولا تحكي العربية – إلى سدة الحكم، كالأتابكة الأتراك، والأراتقة التركمان، والأيوبيين الأكراد، والذين كان بعضهم لا يتحدث العربية فعلاً، ككربوغا حاكم الموصل، والقائد السلجوقي الشهير، الذي أضطر صليبيو الحملة الأولى، وكما يخبرنا النورماني المجهول؛ إلى التفاوض معه باللغة التركية بشأن هوية وتبعية مدينة أنطاكية [2]، أو أفراد العسكر الزنكي، الذين ذكر ابن منقذ بأنهم " يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون " [3]. رغم كل ذلك، وعلى الرغم أيضا من أن بعض تلك العناصر، كان مؤلفا رئيسيا للنسيج الاجتماعي في بعض مدن وبلدان المشرق، كالأتراك الذين كانوا ينتشرون بمختلف فروعهم في مناطق مختلفة من الشرق الإسلامي، وربما شكلوا الغالبية في بعضها كحمص التي كانت، وكما أشار ابن القلانسي بما يفيد بأن " أكثر سكانها من الأتراك " [4] إلا أن الدواوين ظلت في الواقع تكتب بالعربية، و نتيجة لظروف تراكمية سياسية، تقوم على تشجيع الأعمال التي تتم بالعربية، خصوصا من عناصر لاتحكي العربية بطلاقة، كالمغاربة الذين كان

---

(1) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 178 .

(2) النورماني المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995 ، ج 6 ص 148.

(3) أسامة بن مرشد بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، تحرير، فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، 1930 ، ص 151.

(4) ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص 230.

القاضي الفاضل مشجعاً لهم، ومعجباً بأشعارهم من خلال " تسع مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على أشعار أهل العصر من المغربيين، وآدابهم، وهو يثنى فيها على إعرابهم "[1] ، ومنطلقات دينية ساهمت في تعزيز العربية لغةً لدواوين إسلامية، خصوصا في اكبر المدارس والمعاهد الدينية بأصفهان، والموصل والبصرة وبغداد، وحلب ودمشق، والقاهرة، هذا إلى جانب أن التأليف والتدوين في المجالات العلمية والأدبية، والفقهية، والتاريخية منها بالذات؛ كان يجري باللغة العربية، كمؤلفات العماد الأصفهاني، والذي برغم إجادته فك تراجم العديد من اللغات الشرقية، إلا أن مؤلفاته كانت تتم بالعربية؛ فكتابه الشهير حول فتوحات صلاح الدين، عنوانه كان، وبتوجيه من القاضي الفاضل؛ (الفتح القسي في الفتح القدسي) نسبة إلى فصاحة قس بن ساعدة الأيادي، وهو أحد شعراء العرب في العصر الجاهلي، فكان العمل نسبة إلى " فصاحة قس وبلاغته "[2] وأكثر من ذلك فان العربية بفضل بلاغتها وانتشارها، كانت وكما يلاحظ أيضاً البحاثة الفرنسي كلود كاهن؛ قد أفعمت حتى في الأعمال غير الإسلامية، كمؤلفات الرهاوي المجهول، وحولية ميخائيل السرياني، و اللتان تمت كتابتهما بالعربية رغم سريانيتهما ونبرتهما المسيحية الواضحة، كذالك ابن العبري اليهودي الأصل، الذي كتب تاريخه الذي أشتهر به حول مختصر الدول، باللغة العربية، وبالتاريخ الهجري أيضا [3]. ذلك إلى جانب شواهد أخرى حتى في الأوساط المسيحية، وكل ذلك دون أن نغض النظر طبعاً، عن واقع النظم السياسية، التي كانت وفق

---

[1] العماد محمد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، موقع الوراق، ج4 ، ص 227.
Http: // www. Alwarraq. Com .

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 41 .

[3] كاهن ، الحروب الصليبية ، ص 238 .

مفاهيم ذاك العصر، نظماً إسلامية أكثر من أي شيء آخر، فلم تتخذ أي انحناءات اثنيه، أو مفاهيم قومية، فبفضل الرباط الإسلامي، ظلت اللغة العربية؛ و باعتبارها لغة الدين، تكتب بلا أي حساسية، وفي مؤسسات غير عربية عديدة؛ في بلاد فارس وسلاجقة الروم بالأناضول، الجزيرة الفراتية، وديار بكر، وأعالي العراق، وغيرها من أصقاع الشرق الإسلامي.

وفي سياق متصل بشؤون الدواوين؛ ينبغي الإشارة إلى أن السلطان، كان يجلس مع كاتبه؛ كي يرى الوارد من الرسائل ، ويوقع على القصص ، والمراسلات ، والمعاملات ، وشكاوي الرعية وغيرها . قاضي قضاة العسكر الأيوبي، ابن شـــــداد، ذكر أن صلاح الدين كان يفعل ذلك خلال جلوسه " مع الكاتب، ساعة ، أما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة " [1].

إن العلاقة بين القلم والسيف، تبدو متمايزة من خلال أطوار النمو الثلاثة، للدولة؛ النشوء، التوسع، الانحلال. بواقع أن الدولة ، وكما يشير ابن خلدون ، تظهر حاجتها للسيف أكثر ؛ في أول ابتداء الملك، وفي آخره، وهما فترتي التوسع والضعف، في حين يظهر تفوق القلم في وسط الدولة ، تلقائياً اثر استقرار المُلك ، والاتجاه بالتالي إلى إجراء ترتيبات إدارية ، حيث تحدث عن ذالك قائلاً : " فيكون للسيف مزيةً على القلم في الحالتين – يقصد فترتي العظمة والضعف – ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاهاً وأكثر نعمة ، وأسنى إقطاعاً ، وأما في وسط الدولة، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف ، لأنه قد تمهد أمره ، ولم يبق همه إلا

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 13 .

في تحصيل ثمرات من الجباية والضبط، ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك " [1].

من جهة أخرى، وكما تم التعريف بديوان الإنشاء و متطلباته، ثمة مهام وواجبات تقع على عاتق صاحب الديوان أيضاً، فالقلقشندى يعتبر أن من مهام صاحب الإنشاء؛ صنع القرارات السياسية في الدولة، بالتفكير والتدبير، وصناعة الصادر من الوارد [2] ، إلى جانب ذلك، من شأنه كما يشير المقريزي؛ أن يستلم المكاتبات، بتفحصها والنظر فيها ، وتحويلها من ثم إلى الخليفة أو السلطان [3]. كما يمكنه أيضاً؛ التوقيع على القصص وشكاوي الرعية ، والتوقيع أحياناً حتى على الأوامر السلطانية [4]، وهذا بدوره يبين مدى الميزة والمزية، اللتان يحظ بهما رئيس ديوان الإنشاء في دولة صلاح الدين، والمعد أسمى الوظائف الإدارية، بالدولة الأيوبية الصلاحية الناشئة، ويضيف ابن مماتي، أن متولي ديوان الإنشاء ، يقوم بإجراء الحسابات ورفعها ، والتعليق على ما يرفع من معاملات . بواقع أن رئيس ديوان الإنشاء الكاتب ، يجري عادةً تقارير عن معاملات أخرى، صدرت من موظفين آخرين ، حيث يبدى فيها رأيه، إن أستحسنها " بالصحة والموافقة " [5]. الأديب الشريشي، يتحدث في شرحه لمقامات رائد أدباء المشرق؛ الحريري، صاحب المقامات؛ عن مدى رفعة تلك الوظيفة، في السلم الإداري بالدولة ، وأعتبر أن سلاح الكاتب هو

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق خليل شحاذة ، سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001 ، ج1 ، ص 318.

[2] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج1 ، ص 102.

[3] المقريزي ، الخطط ، ج2 ، ص 149.

[4] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج1 ، ص 102.

[5] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 303.

قلمه؛ قائلا :- " اعلم أن القلم من الكاتب، محل الرمح من الفارس " [1].
فيما أعتبر ابن مماتي، أن ديوان الإنشاء، هو الأصل في الخدمة الإدارية كلها ، وأنها رأس الوظائف في الدواوين . وأن رئيس ديوان الإنشاء؛ له مجموعة مساعدين من حملة الأقلام، عددهم سبعة عشر موظفاً ، وهم " ناظر ، متولي ديوان ، مستوفى ، معين ، ناسخ ، مشارف ، عامل ، كاتب، جهبذ ، شاهد ، نايب ، أمين ، ماسح ، دليل ، حايز ، خازن ، حاشر " [2]. وهم في مساعدة وخدمة رئيس الديوان، صاحب القلم الرفيع ، ولمعاضدته ، و" لضبطه ، والشد منه " [3].

ثانياً : صلاح الدين والسلطة الروحية / العلاقات السياسية والدبلوماسية مع المقام العباسي وأثرها في بنية الدولة والجهاد :

سنتعمد خلال هذا المبحث، التركيز على العلاقات الأيوبية العباسية، على المستوى السياسي والدبلوماسي، باعتبارها النقطة الأكثر أهمية، والأوفر حظاً على صعيد العلاقات السياسية بحسب ما تطلعنا عليه - كما سنرى- المصادر المختصة، إلى جانب أن العلاقات مع المقام العباسي؛ تعد المحور الرئيسي في البنية السياسية لدولة صلاح الدين الأيوبي، خصوصاً فيما يتعلق بالشرعية وإقرار نظام الحكم، وما لها من أثر على حركة الجهاد ضد الاحتلال الإفرنجي، فالذي نؤكد ونشدد عليه هو أن : النظام الأيوبي الصلاحي، نظام سلطاني، يستمد شرعيته الروحية، وسلطته

---

[1] أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي ، شرح مقامات الحريري، تحقيق؛ محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1992، ج1 ، ص 243.

[2] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 303.

[3] المصدر نفسه ، ص 303.

الزمنية، من الخلافة العباسية . وأن صلاح الدين شخصياً كان يعتبر نفسه خادماً للخليفة العباسي في بغداد ، وحامي حمى البيت العباسي . نجد ذلك في أكثر من رسالة سلطانية صادرة من القاهرة أو دمشق ، إلى ديوان العباسيين ببغداد ، حيث ورد وصف الخادم في الكتب الفاضلية؛ بقلم القاضي الفاضل، إلى بغداد سنة (577هـ / 1181م) : " والخادم – والحمد لله – يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا تعدها ... خلع من كان ينازع الخلافة ردائها ... " [1]. بينما ذكر العماد الكاتب، في إحدى رسائله إلى حاضرة بني العباس ، أن صلاح الدين بالنسبة للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ / 1179-1225م) هو " ناصر دعوته وداعي نصرته ، ووليه الطائع ، وسيفه القاطع ، والمُحكم بأمره، والمؤتمر بحكمه " [2].

في سياق غير بعيد، كان السلطان الأيوبي، يُطلع الخلافة العباسية على انتصاراته ضد الصليبيين ، بإرسال البشائر والهدايا والمكاسب ، فلقد ذكر العماد الكاتب أن الديوان الأيوبي كان يطلع الديوان العباسي بشكل أولي؛ على كافة الأعمال والفتوحات الجارية في المواقع الصليبية، " بإنشاء الكتب إلى الأفاق وتقديم البشرى به إلى العراق " [3]. ويضيف الحريري أنه في وقعة مرج عيون(575هـ / 1179م) – والتي انتصر فيها المسلمون – استطاع صلاح الدين أن يأسر وجوهاً بارزةً من قيادات

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 57.

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 41.

[3] المصدر نفسه ، ص 100.

الفرنجة، أفتك بعضهم بفدية ، وبعث بالبعض الآخر إلى بغداد، إلى جانب " شيء كثير من التحف والنفائس، والأموال "[1].

الخلافة العباسية كانت من جانبها تقوم بدعم صلاح الدين روحياً ، خلال عملياته الجهادية ضد الصليبيين ، فيذكر قاضي قضاة العسكر الأيوبي، ابن شداد ، أنه بعد حصار الكرك [*] عام(580هـ / 1184م) وصل وفد عباسي يحمل خلعاً للسلطان، ولأخيه الملك العادل ، وبقية أركان الدولة ، وقد قام صلاح الدين بارتداء خلعته الشرفية ، وألبس كبار مساعديه الخلع والتشريفات العباسية، والتي كانت بمثابة أوسمة [2]. كذلك حدث خلال عملية ضم الشام إلى مصر ، أن وصلت إلى مدينة حماة؛ وفوداً رسمية؛ تحمل طبقا لنصوص ابن كثير" الخلع السنية، والتشريفات العباسية ، والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام " [3]. ومع احتدام الصراع بين الجانبين الإسلامي، والصليبي، أثر فتح بيت المقدس، عام (583ه/ 1187م) ، واندلاع حرب الحملة الصليبية الثالثة، بالساحل الفلسطيني ، حيث العمليات العسكرية الشاقة، التي أملتها الظروف حول عكا؛ أرسلت الخلافة العباسية من بغداد؛ خبراء حرب في استخدام النفط وإشعاله ، وتوقيع بعشرين ألف دينار، تنفق على عمليات الجهاد ضد الحملة الصليبية الثالثة [4] وذلك بدوره يعكس وعياً، وان كان

---

[1] أحمد بن علي الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق ، سهيل زكار ، مكتبة الملاح ، دمشق ، 1981 ، ص 80 .

[*] الكرك ، اسم عجمي لقلعة جد حصينة، مقامة على سفح جبل محاط بأودية، وهو أبرز الحصون الصليبية جنوبي الشام ينظر؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج4 ، ص 453 .

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 54.

[3] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج16، ص 506.

[4] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 196.

متقطعاً، من جانب الخلافة العباسية، بضرورة وأهمية الجهاد الإسلامي، ضد الفرنجة و عموم الإمارات اللاتينية في المشرق . وإجمالاً، يمكن القول أن العلاقة بين السلطان الأيوبي، والخليفة العباسي ، كانت علاقة ولاء وتوقير من الطرف الأيوبي، مقابل إقرار وشرعية جيوسياسية من الطرف العباسي؛ أي شرعية تقر السلطة الأيوبية في الشام ومصر والجزيرة واليمن والنوبة، وسائر المناطق التابعة والخاضعة لدولة صلاح الدين، إقراراً سياسياً وإقليمياً، مع دعم روحي وزمني للقيادة الأيوبية من المقام العباسي، وقد ذكر أبو شامة، أن الخليفة الناصر لدين الله، الذي سبقت الإشارة إليه، كان قد أقّر صلاح الدين الأيوبي، كحاكم شرعي على مصر والشـــام التي ضمها الأيوبيـــون إلى سلطتهم، وبعث بعد عام من توليه الخلافـــة " بالتفويض والتقليد، و التشريف الجديد "[1]. وذلك في ظل المعارضة المتزايدة والمتصاعدة، من قبل الزنكيين في الجزيرة الفراتية والموصل . حيث تسلم صلاح الدين التشريفات العباسية، المهمة بالنسبة للاتجاه السياسي والديني لدولته الناشئة، فأبدى " الإجلال والإعظام؛ نزل وترجّل، وأبدى الخضوع وتوجّل "[2]. وأكثر من ذلك فإنه؛ وكما ينقل أبوشامة " تقبّل الفرض، وقبّل الأرض " [3]. ومن بين تلك التشريفات : راية سوداء وفق الشعار العباسي ، ثوب أسود واسع الأكمام ، عمامة كبيرة سوداء، مطرزة بالذهب ، جواد من الجياد العربية الأصيلة للخليفة، مزين ومسّرج ، وغيرها من الخلع " وكان يوماً عظيماً " [4]

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 45.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3، ص 45.

[3] المصدر نفسه ، ص 45.

[4] المصدر نفسه ، ص 45.

في المقابل حرص صلاح الدين، على عدم إثارة مخاوف وشكوك الخلافة العباسية، من تحركاته ونشاطاته السياسية والعسكرية، خصوصاً في أطراف العراق، وقرب الحدود العباسية ، حيث يذكر ابن أبي الدم الحموي ، وهو أحد مؤرخي ذاك العصر ، أن صلاح الدين عندما أراد إخضاع مدينة آمد [*] كتب " إلى الإمام الناصر، طلب منه إذناً في قصد آمد وأخذها ... " [1]. فيما كان السفراء العباسيون قد تدخلوا سنة (578هـ / 1182م) في الصراع الدائر بين الأيوبيين، ونظرائهم الزنكيين؛ خصوصاً مع توصل صلاح الدين إلى حصار الموصل، مركز نفوذ الزنكيين الأساسي في الشرق الإسلامي، بعد سقوط دمشق وحلب، في يد الأيوبيين، وباعتبار أن الموصل وأعمالها متاخمة تماماً لأعمال بغداد[*]، فإن السلطان الأيوبي، كان قد اقترب بما يكفي، من مدينة السلام العباسية؛ لذالك حدث أن " أرسل إليه الخليفة؛ يأمره بالترحال عنها ! " [2].

وفي هذا المناخ السياسي، تظهر تساؤلاتنا عما إذا كان النظام الأيوبي؛ نظاماً شرعياً بما يكفي، وموثوقاً به في نظر العباسيين بشكل خاص، إذ انه يصعب الاعتقاد أن العلاقات بين الجانبين؛ قد ظلت في حالة ثقة، وتوقير متبادل، ففي واقع الأمر كانت الخلافة العباسية، تحتفظ ببعض الشكوك ، حول استمرارية تبجيل صلاح الدين، وتوقيره للمقام العباسي . و بحسب وجهة نظر القلقشندي؛ فأن الأيوبيين " وان كانوا

---

[*] آمد بلد من بلدان دجلة و الفرات يبعد عن الموصل مسيرة خمس أيام ، للمزيد ينظر؛ عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، تقويم البلدان ، صادر ، بيروت ، (د.ت) ، ص 274.

[1] شهاب الدين أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، تحقيق؛ سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995، ج 21 ، ص 260 .

[*] للتوضيح على الخارطة؛ وتبيان المدن والقوى الإسلامية في الشرق الإسلامي؛ ينظر مجلد التاريخ العربي الإسلامي ، إعداد؛ شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، دمشق ، ط5 ، 2002 ، ص48.

[2] الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، ص 84 .

يدينون بطاعة خلفاء بني العباس؛ فهم ملوك مستقلون "[1] لاسيّما في ظل تنامي نفوذ صلاح الدين السياسي بشكل متزايد ، غير أن القاضي الفاضل، رئيس ديوان الإنشاء، وأحد أبرز الشخصيات العربية؛ التي تسهم في صنع القرارات الخارجية للدولة الأيوبية؛ كان في الواقع يؤدي دوراً حيوياً ومؤثراً، في تحسين صورة صلاح الدين، وتوضيح نواياه الإيجابية تجاه المقام العباسي، وسائر الأمة الإسلامية في المشرق، وصدقية موقفه من القضية الأساسية ضد الفرنجة، وخدمته بالتالي للدين، وللرعية الإسلامية ككل ، حيث حدّد في كتاب فاضلي، أرسل إلى الديوان العباسي؛ ثلاث نقاط؛ شكلت حجر الزاوية في تقديرنا لبنية الدولة الأيوبية، وموقفها من الخلافة العباسية، و سياستها الداخلية تجاه الرعية، والأهداف الخارجية التوسعية، والجهادية بوجه خاص؛ وقد سماها بـ" المقاصد الثلاثة؛ وهي : الجهاد في سبيل الله ، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله ، وهي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها "[2]. وإلى جانب ذلك، أوضح القاضي الفاضل للديوان العباسي، باعتباره رئيس ديوان الإنشاء المصري ، صدقيه ولاء صلاح الدين للخلافة العباسية، وخدمته للعباد والبلاد، وأنه مجاهد متنقل بخيمته، متجهّز بسيفه ضد أعداء الدين، ليس كبقية أمراء المسلمين، الذين نعتهم بالتقاعس والاستبداد ، قائلاً عن صلاح الدين : " إذا ولاه أمير المؤمنين ثغراً، لم يبت في وسطه وأصبح في طرفه ... وإذا بات؛ بات السيف له ضجيعاً ... لا كالذين يغبون أبواب الخلافة أغباب الاستبداد ، ولا يؤامرونها في تصرفاتهم مؤامرة الاستعباد ، وكأن الدنيا لهم

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3 ، ص 432 .

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3، ص 117.

إقطاع، لا إيداع ، وكأنّ الإمارة لهم تخليد، لا تقليد ، وكأنّ السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه، وكأنّ مال الخلف عندهم وديعة ... "[1].

كما نقل صورة إلى الخلافة العباسية عن حال المسلمين بالشام، وانقسام هذه البلاد بين الباطنية والفرنجة، وصراعهم الدائر مع الأيوبيين، ومدى حاجة المسلمين إلى الجهاد، " إذ اجتمعت في الشام أيدٍ ثلاث : يداً عادلة، ويداً ملحدة، ويداً كافرة، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الإسلام يد مغيثة "[2]. من جانب آخر يتعين علينا القول؛ أن الإصلاح السياسي والعقائدي الذي انتهجه صلاح الدين، بتوحيد مصر والشام، وإخضاع الموصل والجزيرة ذات النظامين الأتابكيين، كان قد واجه اعتراضات بالغة الأثر من قبل الباطنية؛ خصوصاً في حلب وجبل لبنان[*] ، ومن الزنكيين في الموصل والجزيرة، وتباعاً لذلك فان صلاح الدين كان قد اتهم الباطنية بالتآمر عليه، فهاجمهم وضرب حصونهم، كما اتهم الزنكيين بالخيانة لتضامنهم مع الفرنج ضده، وأوضح للخلافة العباسية بأن النظام الأيوبي يواجه تهديداً ثلاثياً؛ من الصليبيين الكفرة، والحشاشين المارقين عن الدين الصحيح، والزنكيين الخونة[3].

لكن المسألة التي أثارت حفيظة الناصر لدين الله ، هي اشتهار صلاح الدين، كما هو معروف؛ بكُنية الملك الناصر، والناصر هي كنية الخليفة العباسي، أبو العباس أحمد؛ ابن الخليفة المستضيء بأمر الله ،

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3، ص 118.

[2] المصدر نفسه ، ج 3، ص 58.

[*] لمزيد من المعلومات عن الباطنية في الشام وجبل لبنان، يراجع كتاب، الحشاشون، برنارد لويس، تعريب، محمد موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 2006، ص 143.

[3] سيمينوفا، صلاح الدين، ص 101 .

المعروف باسم الناصر لدين الله [1]، والثابت هو أن بعض المشككين العباسيين في نوايا صلاح الدين تجاه المقام العباسي، وهم على الأرجح من حاشية الخليفة، كانوا قد حذّروا من أن صلاح الدين، في اتجاهه إلى شق عصا الطاعة أمام الخليفة، و" قالوا هذا يزعم أنه يقلب الدولة ، ويغلب الصولة ، وأنه ينعت بالملك الناصر نعت الإمام الناصر ، يدل بما له من قوة العساكر "[2].

في بغداد؛ كانت هذه المسألة قد طرحت كمشكلة سياسية ، ومن المؤكد أن النظام الأيوبي لم يتقدم مبدئياً بأي جواب . لذلك حصلت إشكالية طارئة بين الجانبين، خلال سلطنة صلاح الدين، وخلافة الناصر لدين الله، وفي هذا الخصوص يمكن أن نلاحظ أن السلطان الأيوبي، كان سباقاً في أن يدعو نفسه بالناصر، فالخلاف / الإشكال ، ظهر سنة (583هـ /1187م) ، وكنية الأمام الناصر لدين الله ، ترجع إلى عام (575هـ / 1179م) أي عندما تولي أبو العباس أحمد، ابن الخليفة المستضيء بأمر الله، مقاليد الخلافة العباسية ، أما كنية الملك الناصر ، فهي في واقع الأمر ترجع إلى أبعد من ذلك ، وتحديداً عام(564هـ / 1168م) ، وهو العام الذي تم فيه تكليف صلاح الدين، وترقيته، من قبل الخلافة الفاطمية، في القاهرة، من أسفهسلار، إلى وزير ، ولقد ذكر المؤرخ المملوكي، الأتابكي، أنه " في القصر خلع عليه خلعة الوزارة : الجبة والعمامة ، ولقب بالملك الناصر"[3]. وكانت الخلافة العباسية وقتذاك،

---

[1] جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، 2003 ، ص 352.

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 101.

[3] الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 17.

في تقليد الإمام المستضيء بأمر الله، والد أبو العباس أحمد، الخليفة الذي تكنى بالإمام الناصر فيما بعد . صلاح الدين لم يفته التنبه إلى هذه النقاط، كما أعلن عن استمرار توقيره للمقام العباسي ، وحفظه لحقوق ومطالب المسلمين ، قائلاً في رسالة نفذت من دمشق إلى الديوان العباسي: " أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين ، ولم أزل في نصرة المسلمين ... وأما النعت الذي أنُكر عليّ ؛ فهو منذ عهد الإمام المستضيء ، وقد أشتهر في الآفاق ... " [1].

حول منظومة الألقاب، نلاحظ في هذا السياق ، أن الأمراء الأيوبيين، كانوا قد استخدموا أسماءً مركبة، ومرتبطة بالدين ، فالسلطان الأيوبي يوسف بن نجم الدين أيوب، مثلاً، كان إلى جانب لقبه الملك الناصر ، قد تكنى بصلاح الدين، فأشتهر بها أكثر من اسمه . وشقيقه الملك العادل أبي بكر، كنيته سيف الدين ، وأبناء أخوتهما تكنوا بنفس الطريقة، تقي الدين ، أسد الدين ، عز الدين . في الواقع؛ يعد هذا النمط من الألقاب تقليداً أتابكياً تركياً، فالثابت أن الأتابكة الأتراك، في الموصل والشام، والأراتقة التركمان ، في أعالي العراق وجنوب الأناضول؛ هم من استخدموا هذه الأسماء المركبة؛ بسبب الحمية الدينية، وذلك خلال فترات الصدام بالصليبيين؛ القائد الأرتقي، نجم الدين إيلغازي، مثلا؛ كان أحدهم، وهو بطل موقعة سهل الدماء، الشهيرة . وظهير الدين طغتكين، وهو أتابك دمشق، وأحد خصوم المملكة اللاتينية، في القدس . عماد الدين زنكي، القائد الأتابكي الشهير، و فاتح الرها ، سيف الدين غازي، أتابك الموصل، الذي صد الحملة الثانية ، نور الدين محمود، صاحب الدولة النورية،

---

[1] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج21 ، ص 267.

والذي أسقط ما تجاوز عن خمسين معقلا صليبيا [1]. هؤلاء جميعهم استخدموا عبارة (الدين) في أسمائهم . غير أن العباسيين كخلفاء، لم يستخدموا التركيبة الدينية في أسمائهم فحسب؛ بل يلاحظ أنهم، وخصوصاً المتأخرين منهم ، قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير؛ فلقد أضافوا اسم الله على أسمائهم ، كالناصر لدين الله الذي كان معاصراً لصلاح الدين، ووالده المستضيء بأمر الله ، وجده المستنجد بالله، وآباؤهم الأولين : المقتفي بأمر الله، والراشد بأمر الله ، والمسترشد بالله وغيرهم [2]. وهذا النمط من الألقاب، لم يكن اعتباطاً أو من وحي الصدف؛ بل كان في الواقع، نهجاً ممنهجاً ومتعمداً؛ لإضفاء طابع القداسة والتبجيل على شخص الخليفة ... كما أن ثمة إيحاءات به؛ عن أن سلطة الخليفة، لا يمكن أن تنزل عن كونها؛ إلا سلطة روحية سامية، مستمدة من سلطات الله ذاته، وأنه أمير شرعي للمؤمنين، فلا يجب مخالفته بأي حال من الأحوال ، فهو ظل الله على الأرض، وطاعته واجبة؛ وفق النظرية العباسية التي كانت سائدة منذ عصر الرشيد على الأقل .

صلاح الدين كمسلم سني، لم يكن ليخرج عن نطاق هذه المفاهيم، التي سادت ثقافة عصره في ذاك الوقت، وإذا تسنى لنا اعتبار ذالك تحولاً، لم تشهده النظم الإسلامية على نحو مماثل، خلال العهد السلجوقي على أقل تقدير، والذي لا يزال قائماً حتى ذاك الوقت في بلاد فارس والأناضول، فانه في الواقع يعد تحولاً مرتبطاً بتوجهات الدولة النورية المنحلة ، دولة السلطان نور الدين محمود ، وهو ما كان قد أشارت إليه أيضا، إحدى

---

[1] للمزيد من المعلومات عن الشخصيات المذكورة، أسمائهم، تعريفاتهم، وتواريخهم، ينظر كتاب الأسرات الحاكمة، بوزورث، ص ص 167- 174 .

[2] لمعلومات مصدرية عن الخلفاء المذكورين، ينظر، القرماني، أخبار الدول، ج2، ص ص 167 – 184

المختصات، إلى جانب توحيد البلاد الإسلامية، تحت لواء مذهبي واحد ، وهو عمل يرد ضمنياً ضمن مخططات الدولة النورية ، التي نجحت في رفع الخطبة العباسية للأمام العباسي، المستضيء بأمر الله، في عاصمة الفاطميين، القاهرة، عام (567هـ / 1171م) [1].

ويري أحد الباحثين في العلاقات، أن السلطان صلاح الدين ، كان يعمل بشكل جدي على إعادة انبعاث الخلافة الإسلامية الموحدة ، تعبيراً عن سيادة الشريعة . فكان يريد أن يشاهد ارتقاء السلطة الروحية للخليفة العباسي ، بوضع نهاية للتقويض السياسي، الذي طرأ على المؤسسات الإسلامية [2]. وذاك التقويض الذي يعنيه، كان قد طرأ منذ العصر العباسي الثاني، على الأقل. أي منذ بداية فترة اضمحلال شخص الخليفة، وتدخل القادة والعسكر في شؤون الخلافة . وفي وسعنا القول أيضاً ، أن صلاح الدين كان يهدف – كما يؤكد هاملتون – إلى إعادة بناء النظام الإسلامي إلى سابق عهده ، وفق المثل العليا، والأخلاق ، مع الولاء التام للخلافة العباسية [3] . ذلك الولاء الذي دعاه أنه ينصب رايات العباسيين السوداء، كما لاحظنا، على أسوار بيت المقدس، بعد تمام الفتح عام (583هـ/1187م) [4]. وهو الولاء ذاته الذي دعا كبار موظفيه أيضا، إلى إلباس الخطيب الأيوبي محي الدين أبي المعالي القرشي، اللباس العباسي الحالك السواد، خلال أول خطبة إسلامية في القدس، بعد الفتح، حيث قال

---

[1] عليا تبريزي ، المخطط الأعظم لتحرير القدس ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، 2003، ص161.

[2] ماير ، الحروب الصليبية ، ص 186.

[3] هاملتون ، صلاح الدين الأيوبي ، ص 192.

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 232.

العماد الكاتب: " فأعرته من عندي – يقصد الخطيب – أهبة سوداء من تشريف الخلافة؛ حتى تكتمل له شرف الإفاضة "[1] .

وفي سياق متصل؛ كان السلطان الأيوبي صلاح الدين، يدعو إلى تعميم الخطبة العباسية في سائر أرجاء دولته، وفي المناطق المنضوية تحت لوائه، والمفتوحة منها بالذات؛ ففي المناطق الصليبية وحدها، وكما يذكر أبوشامة ؛ حدث أن " خُطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، على ثلاثين منبراً، من بلاد الفرنج "[2]. ولا شك أنه يعد تحولاً جيوسياسياً مهماً، لم تألفه النظم الدولية الإسلامية الأخرى من قبل، والتي دابت على تغييب الخليفة، وتهميش مقامه، وهي أنظمة سياسية إسلامية، سبقت النظام الصلاحي، كالنظام السلجوقي، في إيران والعراق والأناضول، والأرتقي في ما بين النهرين، والنظام الأتابكي الزنكي في الموصل وحلب، والبوري في دمشق، وإن كانت هناك توجهات مماثلة، و سابقة لتوجهات القيادة الأيوبية الصلاحية، فأنها تكاد تقتصر على سياسات الدولة النورية المنحلة، دولة نور الدين محمود زنكي؛ أمام النظام الأيوبي، (الفيدرالي) النصف العائلي في الشام .

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي، ص 78 .

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 211.

المبحث الثاني: أهمية ديوانيّ الإنشاء في مصر والشام من خلال الرسائل الديوانية :-

أولاً : رئيس ديوان الإنشاء بالقاهرة/ القاضي الفاضل ودوره في الدولة والجهاد:

القاضي الفاضل هو؛ عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين أبي الحسن اللخمي ؛ بيساني الأصل ، عسقلاني المولد ، مصري الدار ، أتقن صناعة الإنشاء على يد الموفق بن الخلال ، أحد آخر رؤساء الدواوين الفاطمية [1]، وكان يحظى بمواهب ذاتية في البلاغة والفصاحة، وكان نجيباً منذ صغره ، فترقى في تعليمه وثقافته، حتى تراكمت لديه معرفة، بالتاريخ والتواريخ ، كما كان أيضاً ذا إطلاع واسع بأحوال المشرق والمغرب الإسلاميّين؛ فـ " لا أعلم بالمشرق والمغرب مثله " [2].

تجدر الإشارة إلى أن، عبد الرحيم البيساني ، قبل أن يصبح قاضياً وفاضلاً، تم اختباره على يد قاضي الإسكندرية ، " فوجده على غاية من الفصاحة والبلاغة، وحسن المقاصد، وكان إذا أراد مكاتبة ديوان مصر ، أمره بالكتابة عنه، وكانت كتبه ترد كالدر النظيم "[3]. فتولى ديوان الإنشاء بمصر حيث شهد الخلاف الذي دب بين وزيريّها؛ شاور وضرغام[*]، كما شهد كافة حملات شيروكوه على الديار المصرية ، وعاين مرحلة ترقي صلاح الدين في القاهرة ، وتوليه الوزارة الفاطمية، حيث

---

(1) الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج18، ص 335.

(2) ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج7 ، ص 142.

(3) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج18، ص 337.

(*) الخلافات الوزارية في مصر الفاطمية؛ مردها الأطماع الشخصية في الانفراد بالوزارة، في ظل تدهور سلطات الخليفة الفاطمي، للمزيد من التفاصيل ينظر كتاب، تاريخ الدولة الفاطمية، محمد سرور، الفكر العربي، القاهرة، (د.ت) ، ص 115 .

" كُتب له عهد من إنشاء القاضي الفاضل " [1]. ذلك الإجراء ولّد تقارباً، و صداقةً بين صلاح الدين والقاضي الفاضل، فاستمر الأخير في عمله؛ رئيساً لديوان الإنشاء المصري بالدولة الصلاحية، ونتيجة لكفاءته، صار أحد مشيري السلطان ، ومستشاري الدولة الأيوبية الناشئة [2]. ولا شك أنه قد أفاد الأيوبيين كثيراً، من واسع خبرته في شؤون المُلك، وتدبير الممالك، حيث جمع بين فنيّ الكتابة و السياسة ، وكان ذا أثر في حركة الجهاد الإسلامي، بشهادة من صلاح الدين شخصياً [3]، وفي رأي الباحث يصعب فهم توجهات الدولة الأيوبية؛ بمعزل عن فهم توجيهات وتوجهات القاضي الفاضل ذاته، وقد حدد السلطان الأيوبي أهميته في التخطيط الإداري، والجهادي قائلاً : " أما الفتح فمن جملة بركات همته ، وأثار جذبات عزمته " [4]. أو كما قال العماد الكاتب " افتتح الأقاليم بمفاتيح أقلامه " [5]. وهو من خلال موقعه في الديوان المصري ، يعد أحد المنظرين لمبدأ ضم القوى العربية والإسلامية، لدولة صلاح الدين الأيوبي، حيث دعا إلى ضرورة دخول إمارة حلب الزنكية، وأعمالها تحت لواء صلاح الدين، بهدف التعاضد والتكاثف ضد الفرنجة؛ قائلا: " فانتظم الشمل الذي كان نثيرا، وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا ... " [6]. وذلك بعد أن كتب للحلبيين كتاباً بليغاً، فصيحاً، رائقاً فائقاً كما يقول ابن كثير ؛ مبيناً

---

[1] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج3 ، ص 432.
[2] السبكي ، طبقات الشافعية ، ج7 ، ص 167.
[3] عفاف صبرة ، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، الكتاب الجامعي ، القاهرة ، 1985، ص 89،
[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص227.
[5] الأصفهاني، الفتح القسي، ص 119.
[6] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص105.

لهم دور الأيوبيين ومن يعمل تحت لوائهم؛ في خدمة الدين والدولة، وجاء فيه :

" كان أول أمرنا؛ إنا كنا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين بعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا، فأي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكراً للعدو كُسر، أو مصاف للإسلام معه ضُرب؛ ولم نكن فيه !!؟ فما يجهل أحد صُنعنا . "[1]. إلى جانب ذلك تم تذكّير الزنكيين ومؤيديهم في حلب، بأبرز سياسات الأيوبيين الايجابية في مصر؛ من إزالة المنكر وإحياء السنة، وقمع الفرنج، وهدم البدع وبسط العدل للرعية[2]. وقد كان القاضي الفاضل يدعو من خلال رسائله الديوانية؛ إلى الأخذ بأسباب التوسع السلمي، للدولة الأيوبية، وضم الإمارات والحواضر الآهلة بالسكان، لحمايتها والعناية بها، وتسخير مواردها . فبخصوص ضم دمشق وأعمالها ، وهي التي كانت عاصمةً للدولة النورية المضمحلة، قال : " ملكنا دمشق عنايةً ، لا عنوةً "[3]. كما أعتبر – في كتاب نفذ إلى أحد الولاة الأيوبيين باليمن؛ يدعى حطّان بن منقذ – أن دخول الأمراء الإقطاعيين، والعساكر، وعموم القوى الإسلامية، في الخدمة السلطانية ، نعمة تخولهم المضي قدماً، نحو الجهاد ضد الصليبيين، قائلاً: " كان من شكر هذه النعمة؛ أن نصرف القوة، ونثني العزمة، ونحد الشوكة، ونلبس الشكة للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارعهم، ونخاصمهم إلي الله وننازعهم، ونطهّر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم "[4].

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج 16، 504.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية ، ج16 ، ص505.

[3] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج 8 ، ص 327.

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص119.

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك؛ فإن القاضي الفاضل يعتبر من الأركان الأساسية في الدولة الصلاحية ، فهو المتحدث باسمها ، لا يكاد يقع حدث، إلا ويكون لقلمه مشاركة فيه ، ناهيك و أنه بقلمه؛ تذاع بشائر الفتوح إلى بغداد، وعموم العالم الإسلامي [1]. ومن جهة أخرى، فهو لم يشارك صلاح الدين جميع فتوحاته بسيفه، بقدر ما كان يساهم في صنعها بقلمه، خلال حملات الدعاية والدعوة، والتنظيم السياسي والجهادي والعسكري ، وذلك يرجع في تقديرنا إلى كونه شيخاً مسناً، لا يقوى في واقع الأمر على المقارعة بالسيف ، بالقدر الذي يقوى فيه على المقارعة بالقلم ، كما أن الدولة وأجهزتها كانت بحاجة دائمة إلى تدابيره وتنظيماته ، فلقد وصفه رئيس ديوان الإنشاء الدمشقي، العماد الكاتب ، الذي كان زميله ومعاصره ، بأنه : " يخترع الأفكار" [2]. وقد أشار أبو شامة إلى جهوده الإدارية في تدبير شؤون مصر، من ترتيب النواب والولاة، كتعيين الأمير تقي الدين عمر، نائباً على مصر، خلفاً للملك العادل سيف الدين – الذي انتقل إلى الكرك، حيث تُدار العمليات العسكرية هناك ضد الصليبيين – ونتيجة لإعفاء الملك العادل من الشؤون النيابية في مصر، بناءً على أمر السلطان، وحاجة المؤسسة العسكرية إليه، فان القاضي الفاضل كان قد أشار بأمر تكليف الأمير تقي الدين عمر، نائباً على مصر [3]. فيما أشار ابن كثير، إلى قيامه في مصر بمهام رئيسيه، تمثلت في الإشراف على شؤون البلاد ، وتدبير الأقاليم، والإشراف على متطلبات الحرب [4].

---

[1] أحمد بدوي ، صلاح الدين بين شعراء عصره وكتّابه ، دار القلم ، القاهرة ، 1960، ص 144.

[2] الأصفهاني ، خريدة القصر ، ج4 ، ص 222.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3، 123

[4] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 620.

كما ذكر الأمام أبو شامة بأنه كان " يرتب للسلطان أموره؛ من تجهيز العساكر ، وتعمير الأسطول ، وحمل المال ... والسلطان يكاتبه في مهماته ... " [1]. وإذا ما نظرنا إلى المشاركة الذاتية لهذا الشيخ الجليل، في القتال ؛ سنجد أنها تتمثل في حملة سنة (579هـ/1183م) ، وهي حملة ضمت مجموعة من الأعيان، انطلقت من منطقة الغور بالأردن ، واستهدفت مدينة بيسان[*] الواقعة آنذاك تحت الاحتلال الصليبي ، وهي في الواقع ، مسقط رأس القاضي الفاضل ، فحدثت اشتباكات مع الفرنجة دامت تسعة أيام ، غير أنها لم تسفر عن أية نتائج حاسمة [2]. كما شارك أيضا في حضور حصار حصني صفد وكوكب [*] حيث كان " في هذه المواقف شاهداً ومرتقباً " [3]. وعلى المستوى الخطابي، كانت كتب الديوان الأيوبي التي ينشؤها القاضي الفاضل من ديوان الإنشاء المصري، ذات أثر بالغ على حركة الجهاد الإسلامي وفتوحات صلاح الدين ، فهي كما يقول ابن كثير : "فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتحضيض على الجهاد ، يعجز عن مثلها شجعان " [4]، حيث بادر بعد فتح بيت المقدس والساحل ، إلى تحذير الأمراء الأيوبيين – عبر رسائله

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص101 .

[*] بيسان ، مدينة فلسطينية يعتقد أنها تضم رفات أمين الأمة؛ أبو عبيدة بن الجراح، وزوجته ، للمزيد ينظر ؛ أبو الحسن علي الهروى ، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق ، علي عمر ، الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002، ص 26.

[2] هادية شكيل ، القاضي الفاضل ، الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، 1993، ص 259.

[*] هي قلاع وحصون عسكرية دينية تابعة لمنظمتي الدواية والأسبتارية، للمزيد من المعلومات، يراجع كتاب، مملكة بيت المقدس اللاتينية، يوشع براور، تعريب، عبد الحافظ البنا، مركز عين للدراسات، القاهرة، 2001، ص 305.

[3] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 603.

[4] ابن كثير البداية ، ج 16، ص 621 .

السلطانية – من خروج الحملة الصليبية الثالثة ، ونتيجة لمعلومات مؤكدة، كانت قد وصلت ديوانه عام (584هـ / 1188م) من مستخدمي الإسكندرية من التجار ، و كذالك صاحب القسطنطينية ، وأصحاب الثغور المغربية ، مما دعاه إلى رفع حملة تحذيرية حول هذا الحدث الطارئ، قائلاً عن الفرنجة ، وباقي الأمم الأوربية : " لا يصبرون على ما جرحنا ، وإنهم لعنهم الله؛ أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ..." [1]. ثم يستطرد قائلاً: " وما هم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تغاوت ، وإن لم يُقذفوا من كل جانب ؛ استأسدوا وأستكلبوا ، وكانوا لباطلهم الداحض، أنصر منا لحقنا الناهض " [2]. كما دعا الأمير الأيوبي سيف الإسلام طغتكين[*] في اليمن؛ إلي الأخذ بأسباب الجد والتهيؤ؛ أمام ملوك الحملة الصليبية الثالثة، وهم ريتشارد قلب الأسد، فيليب أغسطس، فريدريك بربروسا [*]، فطلب منه " الهمة الهمة؛ فان البحار لا تُلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار ... " [3]. كما طلب عون بعض الحكام المسلمين ، من أجل صد الحملة الصليبية الثالثة المرتقبة ، فبعث بكتاب فاضلي إلى أمير الموحدين ؛ يعقوب بن عبد المؤمن ، أعتذر خلاله عن غزوه قراقوش، وهو أحد مقدمي فرق المماليك في مصر – كان مقدماً لمماليك الأمير الأيوبي تقي الدين عمر – وقد أعتبر القاضي الفاضل أن بهاء الدين قراقوش، مع جميع معاونيه ، وجنده ، ليسوا سوى مجموعة

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص31 .

[2] المصدر نفسه ، ج4 ، ص32 .

[*] سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شادي، شقيق صلاح الدين وأحد الأمراء الأيوبيين، تولي نيابة اليمن سنة (577هـ) ، للمزيد ينظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2 ، ص 523.

[*] للمزيد من المعلومات عن قادة وملوك الحملة الصليبية الثالثة، ينظر كتاب الصليبيون في الشرق، ميخائيل زابوروف، تعريب، الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986، ص 193 .

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص33 .

متسكعين من شداد الأفاق ، وأن قراقوش شخصياً ، ليس من كبار القادة المحسوبين على الدولة ، وإنهم جميعاً " من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال " [1]. والجدير بالذكر أن أول رسائل القاضي الفاضل في الشأن الخارجي ، والجهادي تحديداً ، كانت عام (566هـ/1170م)، وكانت حول غزوة قام بها صلاح الدين من مصر ، استهدفت أحد المعاقل الصليبية قرب مدينة غزة بفلسطين ، وذلك عندما كان صلاح الدين وزيراً فاطمياً بمصر ، وقائداً عاماً / اسفصهلاراً ، للجيش النوري [2]. ولقد كانت له كلمة مأثورة في فتح طبرية [*] ، المدينة العصية التي عجز فاتح الرها؛ الأتابك زنكي ، عن فتحها قبل نحو خمسين عاما ، القاضي الفاضل شخّص حيثيات الحصار، ومراحل الفتح عام (583هـ / 1187م)، في رسالة من الديوان قائلاً: " نظر إليها مالكها ، وقد جعلنا عاليها سافلها ، وأيقظنا بصياح السيف ، نائمها ، وأنبهنا غافلها " [3]. كما وصف في كتاب فاضلي إلى الديوان العباسي ، حصن بيت الأحزان ، وهو حصن معروف من حصون فرق مؤسسة الداوية الصليبية، كما يذكر الإمام ابن كثير، فأنه كان يضم عدداً من الأمراء، إلى جانب مئات الفرسان ، قتل منهم عشرة أمراء ، وأسر سبعمائة فارس ، خلال اشتباكات وقعت بينهم وبين قوات صلاح الدين، استمرت أربعة عشر يوما [4]. كما شهد القاضي

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص114 .

[2] محمد حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1982، ص 112.

[*] طبرية مدينة فلسطينية جليلة ، مطلة على بحيرة وجبل طبرية، للمزيد ينظر؛ سراج الدين بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة العجائب، تحقيق ، أنور زناتي ، جامعة عين شمس ، (د.م) ، ص 52.

[3] ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج7 ، ص 143.

[4] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 539.

الفاضل، حصار الكرك ، عام(580هـ/1184م) وكتب خمس كتب في وصف الحادثة، وقد أشار إلى خطورة ذاك الحصن الحصين على قوافل الحجاج، والتجار المسلمين، بحكم موقعه على مفترق طرق بين أطراف كل من الشام ومصر والحجاز ، فأعتبره " ذئباً للدهر في ذلك الفج ، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج " [1]، كما علّق على فتح بيت المقدس، خلال كتاب أرسل إلى الديوان العباسي، بالقول : " أسترد المسلمون تراثاً؛ كان عنهم آبقاً " [2] .

الحقيقة إن كتب القاضي الفاضل ورسائله ، كثيرة بحيث يضيق هذا المقام بذكرها ، فمدوناته كانت في الواقع قد تجاوزت المائة ، حيث يخبرنا القاضي البرمكي، ابن خلكان ، والذي كان تلميذاً لقاضي قضاة العسكر بالدولة الأيوبية / القاضي ابن شداد ، والذي بدوره كان رفيقاً للقاضي الفاضل ، فيشير ابن خلكان إلى المدونات الفاضلية قائلاً : " أخبرني أحد الفضلاء الثقات ، المطلعين على حقيقة أمره ، أن مسودات رسائله في المجلدات، والتعليقات في الأوراق ، إذا جُمعت؛ ما تقصر عن مائة مجلد ..." [3] وقد قال عنه زميله في الديوان الأيوبي، العماد الكاتب ، في الخريدة؛ التي حوت الشعراء والأدباء والمثقفين : " هو ضابط المُلك بآرائه ، ورابط السلك بآلائه ، أن شاء ؛ انشأ في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ... أين قس عند فصاحته ؛ وأين قيس في مقام حصافته ، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته " [4].

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص132 .

[2] المصدر نفسه ، ج3 ، ص231 .

[3] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3 ، ص 158.

[4] الأصفهاني ، خريدة القصر ، ج4 ، ص 223.

فيما أشار سبط بن الجوزي ، خلاله ذكره لكتّاب الدولة الصلاحية ، حيث توقف عند القاضي الفاضل مشيراً إلى أهميته من خلال موقعه بالديوان، في صنع قرارات الدولة قائلاً : " كان الفاضل حاكماً على الجميع، وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه، ولا يمضي في الأمور إلا بمضائه " [(1)]. أما أبو شامة فقد قال في إشارةٍ إلى دوره التخطيطي في الفتوحات السياسية والجهادية : " ما أفتتح الأقاليم إلا بأقاليد أرابه ، وآرائه " [(2)]. أما الذهبي ، فقد اعتبر أن المهارات الكتابية واللغوية في الإنشاء، والخطابات الديوانية، قد توقفت عند هذا الشيخ؛ قائلاً : " إليه انتهت براعة الترسّل " [(3)]. بعبارة الذهبي سنتوقف لنغيّر مسار البحث نحو الشخصية الثانية في الديوان الأيوبي / العماد الكاتب .

ثانياً :- رئيس ديوان الإنشاء بدمشق / العماد الكاتب ودوره في الدولة والجهاد:

العماد الكاتب هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج ، يلقب بعماد الدين الكاتب الأصفهاني ، [(4)]. كان شافعي المذهب ، درس بالمدرسة النظامية ببغداد؛ أصول الفقه ، وأتقن الخلاف ، وفنون الأدب ، والشعر والرسائل، ثم تولى النظر في شؤون البصرة ، و واسط بالعراق [(5)]، قدم دمشق في عهد نور الدين محمود ، حاكم الدولة النورية في الشام،

---

(1) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 434.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 279.

(3) الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، 104 .

(4) ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج5 ، ص 147.

(5) المصدر نفسه ، ج5 ، ص 148.

فـولاّه المدرسـة العماديـة التـي أنشـأها باسـمه ، ثـم صـار كاتبـاً بالدولـة الصلاحية، على عهد صلاح الدين [1]. وبذالك يكون العماد الكاتب، كما يذكر المؤرخ الأتابكي ابن الأثير : قد " كتب لنور الدين محمود بن زنكي، ولصلاح الدين يوسف بن أيوب " [2].

وانطلاقا من ذلك، فان الدولة الصلاحية، دولة صلاح الدين، كانت قد حظيت بكاتب دواوين مخضرم؛ كالعماد الكاتب ، والشأن ذاته ينطبق تقريباً على القاضي الفاضل؛ الذي استفاد صلاح الدين من تجربته وخبرته، في كونه رئيساً سابقا للديوان الفاطمي بمصر، وشاهداً على تحولات عديدة في ذلك العصر. العماد الكاتب نفسه ، يتحدث في الخريدة ، عن ضياع مركزه في دمشق ، بعد انحلال الدولة النورية ، أثر وفاة الملك العادل نور الدين محمود ، وعن أن السلطان صلاح الدين، كان قد رفع من منزلته ، وأعـاد لـه قـدره ، فأعـاد توظيفه كمـدرس فـي مـدارس الشـام ، وحكّمـه فـي ديوانه، واعتمد عليه في سلطانه [3].

فـي واقـع الأمـر، كـان رئـيس ديـوان الإنشـاء المصـري ، القاضـي الفاضل؛ هو من كان وراء تولية العماد الكاتب؛ رئاسة ديوان دمشق، بحكم أن كل منهما كان يعرف صناعة الآخر، ومهارة بعضهما الكتابية ، عندما كـان الفاضـل كاتبـاً فـي الدولـة الفاطميـة بالقـاهرة، والعمـاد كاتبـاً فـي الدولـة النوريـة بدمشـق، لـذلك قـال عنـه العمـاد : " أعـرف صناعتـه، ويعـرف

---

[1] ابن كثير ، البداية ، ج16، ص 711.

[2] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10، ص 276.

[3] الأصفهاني ، خريدة القصر ، ج4 ، ص 142.

صناعتي " [1]. وبدوره كان الفاضل كثير الثناء عليه ، كما يخبرنا ابن كثير [2] . حيث أشاد به عند صلاح الدين، ناصحاً إياه أن يوليه شؤون الكتابة بالدولة الصلاحية، التي كانت حتى ذاك الوقت دولةً ناشئة ، وتعمل على استيعاب الكفاءات المنحلة من الدول الأخرى، لذالك فان القاضي الفاضل أشار على صلاح الدين بتوليته قائلاً : " قد عرفت فضل العماد ، وخدمته للدولة النورية ، فأستكتبه " [3]، وباعتبار أن العماد الكاتب ، فارسياً في أصله ، عربياً في ثقافته، فإنه كان ينشيء الرسائل بالعربية والعجمية معاً [4]. وعلى الأرجح أنه كان يجيد فك تراجم اللغات الأخرى؛ كالتركية والكردية أيضاً ، من خلال العلاقات بالقوى الإسلامية في أطراف العراق والجزيرة والأناضول ، هذا ما يفهم من قول القاضي الفاضل للسلطان صلاح الدين: " غداً يأتيك تراجم الأعاجم ، وما يحلها مثل العماد " [5].

وفي هذا الإطار تجدر الإشارة أيضاً، إلى أن العماد الكاتب كان قد قام، وبتوجيه من القاضي الفاضل أيضاً، بتعريب كتاب للفيلسوف، والفقيه المتكلم الشهير، أبو حامد الغزالي، بعنوان (كيمياء السعادة) وقد تم تعريبه في مجلدين [6]، إلى جانب ذلك فإن كتاب العماد الكاتب الشهير، والمتعلق بحروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس ، كان عنوانه قد تم من وضع القاضي الفاضل ذاته ، فلقد ذكر العماد أنه كان ينوي أن يسميه

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين، ج4 ، ص 280.

[2] ابن كثير ، البداية ، ج16، ص 711.

[3] الأتابكي ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 74.

[4] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج5 ، ص 148.

[5] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج18 ، ص 329.

[6] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 48.

(الفتح القدسي) نسبة إلى فتح القدس ، غير أن القاضي الفاضل أشار عليه بأن يسميه بالاسم الذي يعرف به اليوم، قائلا : " وعرضته على القاضي الأجـّـل الفاضـل ... فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاعته "[1] ومن جانب آخر، كان للعماد الكاتب دور هام في التعبئة الأدبية والروحية؛ وبالتالي نضاله بجهاد القلم ضد الفرنجة الصليبيين، كما إن الوعي المستمر بضرورة الحرب الجهادية ضد الفرنجة، كان قد خلق كفاءةً متصاعدة من جانب رؤساء الدواوين في دولة صلاح الدين؛ لذلك فان العماد الكاتب كان لا يتردد في القول:

" دواتي أنفع ، ويراعي أطول ، وسلاح قلمي أحّد وأجّد ، وما اجتمعت هذه العساكر إلا بقلمي "[2]، والجدير بالذكر أنه خلال الحملة الصليبية الثالثة (585-588هـ/1189-1192م) والتي أدت إحدى أبرز وقعاتها، إلى هزيمة الجيش الأيوبي في ملحمة عكا[*] كان العماد الكاتب قد بعث بكتب يستصرخ فيها حكام وأمراء الإمارات بالشرق الإسلامي ، كي يتحركوا لنجدة إخوانهم بالساحل الفلسطيني، بعد الهزيمة التي مُنيت بها قوات صلاح الدين – والتي كانت في الواقع مؤقتة – وقد طالب بردة الفعل ممتعضاً وصائحاً : " أين حميّة المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين !!؟ "[3]. كما أبدى استغرابه من مساندة الإنجليز والألمان،

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 41.

[3] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج21 ، ص 277.

[*] معارك عكا؛ هي احدي أهم معارك الحرب الصليبية الثالثة؛ وأكثرها صداً وتأثيراً، شاركت فيها القوات البرية والبحرية لكلا الجانبين الإسلامي والصليبي، وقد سقط خلالها الآف الشهداء. للمزيد من التفاصيل ينظر؛ محمد بيومي، صلاح الدين قاهر العدوان الصليبي، دار القلم، دمشق، 1998، ص ص 185 – 196 .

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 172.

للفرنجة وصليبي الساحل، مستنكراً في الوقت ذاته؛ تقاعس القوى الإسلامية في التحرك والتعاضد، قائلاً : " ما يقضي عجباً من تظافر المُشرك على شركه ، وتظاهره في اتساع مسلكه ... وقعود المسلمين وتقاعدهم ... فلا مُلبي فيهم لمناد ! " (1).

بالإضافة إلى ذلك؛ قام العماد الكاتب بشرح حال المسلمين المُحاصرين في عكا، وأوضح نوايا الفرنجة التوسعية في الساحل الشامي، وتزايد خطرهم في المنطقة وعلى الأهالي؛ حيث بعث برسائل استغاثة إلى قطب الدين بن نور الدين قرا أرسلان، حاكم آمد وحصن كيفا في جهات ديار بكر، ومظفر الدين كوكبوري صاحب أربل بشمالي العراق، طالبا منهما المسارعة والمساندة فـ" ما بقى للفرنج مع استيلائها على الموضع– يقصد عكا – إلا زائد قوة في المطمع والمطمح " (2) .

وفي سياق غير بعيد، كانت للعماد الكاتب ، من موقعه بديوان الإنشاء في دمشق ، أقوال مأثورة في الجهاد ضد الفرنجة ، فأهمية موقعة حطين (*) (583 هـ / 1187م) كانت في رأيّه؛ نصراً يرقى إلى المستوى التاريخي على صعيد العلاقات بين الشرق والغرب ، : فـ" مذ استولى الفرنج بساحل الشام، ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل" (3)،

---

(1) الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 172.

(2) المصدر نفسه ، ص 273 .

(*) لمزيد من المعلومات عن أهمية وتفاصيل واقعة حطين؛ يراجع كتاب، مملكة بيت المقدس اللاتينية، يوشع براور، تعريب، عبد الحافظ البنا، مركز عين للدراسات، القاهرة، 2001، ص 408 .

(3) العماد محمد بن محمد الأصفهاني، البرق الشامي ، تحقيق ، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق ، 1995، ج13 ، ص 29.

وقد كانت له كلمة مشهورة موزونة حول فتح القدس : " نطق الأذان، وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون ، وغاب القسوس" [1]، إلى جانب ذلك كان للعماد الكاتب دور في تحريض صلاح الدين على توسيع الأقاليم الأيوبية ، بإخضاع مزيد من أجزاء الشرق الإسلامي ، وحثه على جهاد الفرنجة الصليبيين ، والكرج [*] المسيحيين .. ففي أحد أشعاره دعاه قائلاً:

إن بلاد الشرق مظلمة فخذ   خراسان والنهرين والتُرك والفُرسا وبعد
الفرنج الكرج فاقصد بلادهم   بعزمك وأملا من دمائهم الُرسا[2].

لقد كان العماد الكاتب جامعاً لفنون كثيرة في الأدب ، والفقه ، والخلاف ، والتاريخ ، وله النظم البديع والنثر الفائق ، فنال منزلة عالية في دولتي نور الدين، وصلاح الدين من بعده ، مؤلفاته : البرق الشامي ، الفتح القسي؛ وهما حول حروب صلاح الدين ، خريدة القصر؛ في الأدب والشعر، التبصرة في أخبار وزراء الدولة السلجوقية؛ حول تاريخ السلاجقة في الشؤون السلطانية، والوزارية بوجه خاص [3]. وخطفة البارق وعطفة الشارق؛ تعرض خلالهما لأحداث العصر في الأربع سنوات التي سبقت وفاته (593- 597هـ / 1196-1200م) [4]، إلى جانب العتبى والنحلة والخطفة؛ وهي رسائل حول أوضاع الأقاليم الأيوبية بعد وفاة صلاح

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 244.

[*] قبائل ومجتمعات الكرج هم جيل من النصارى، يقيمون في جبال القبق (شمال إيران)، للمزيد ينظر؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج4 ، ص446.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 234.

[3] ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج7 ، ص 152.

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 257.

الدين [1]، سلطان حماة الأيوبي أبو الفدا المؤرخ، كان قد اعتبر العماد الكاتب ، صاحب " تصانيف حسنة "[2]، وأعتبره الذهبي " العلاّمة المنشئ البليغ "[3]. فيما اعتبره النويري صاحب " رسائل مشهورة "[4].

لقد كان العماد الكاتب أحد أبرز موظفي الدولة الصلاحية ، إذ " ترقى إلى أعلى المراتب "[5]. بحكم موقعه كرئيس لديوان الإنشاء بدمشق ، هذا المنصب الرفيع، خوّله – بفضل كفاءته – التأثير على جزء مهم من توجهات الدولة الأيوبية، وفي السياسة الجهادية بوجه خاص، كما تبين لنا واستنتجنا من خلال خطاباته الديوانية . المبحث التالي سيتم تسليط الضوء فيه على الديوانين الآخرين بالدولة؛ وهما ديوانيّ الجيش وبيت مال المسلمين؛ مع التعريف بأبرز ولاة هذه الدواوين، والتطرق إلى المهام والأعمال، وأبرز ملامح السياسة المالية في الدولة .

---

[1] المصدر نفسه ، ج4 ، ص 286.

[2] عماد الدين إسماعيل أبي الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، تحقيق ، محمد عزب ، دار المعارف ، القاهرة، ج1 ، ص 378 .

[3] الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج3 ، ص 120.

[4] النويري ، نهاية الأرب ، ج29، ص 18.

[5] الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، ص 106 .

المبحث الثالث : ديواني الجيش وبيت مال المسلمين :-

أولاً : ديوان الجيش / الناظر قاضي قضاة العسكر الأيوبي

مهامه وأبرز أعماله :

يعتبر ديوان الجيش إلى جانب ديوان الإنشاء؛ من أهم و أكبر دواوين الدولة، متوليه وهو القاضي ناظر الجيش؛ يشرف على شؤون الجند، كما يشرف على التوزيع الإقطاعي بين الأمراء، وقادة الجيش، و سائر الأجناد. شؤونه هي كما يقول القلقشندي " التحدث في الإقطاعات "[1] ، حيث يراقب مردود الإقطاعات الزراعي، والشؤون المتعلقة بخراجها، إلى جانب الإشراف على نشاطات الإقطاع العسكرية[2]. ويقوم بمساعدة ناظر الجيش في ذلك؛ الكاتب، الذي يكتب المناشير الإقطاعية، والمستوفي كموظف مالي مسؤول عن الضرائب، واستخراج المال[3].

وكانت مصر ومن بعدها الشام؛ تمثّل القطر المركزي في الدولة (الفدرالية) الأيوبية المقسمة إلى أقطار وأقاليم؛ يتمتع بعضها بالحكم الذاتي في العملة والإدارة والجيش – وكما يشير هانز ماير أيضاً – فإن القطر الشامي شأنه شأن مصر؛ له ديوانين أساسيّن إلى جانب ديوان الإنشاء؛ هما : ديوان بيت مال المسلمين وديوان الجيش[4]. في مصر كان الأسعد ابن مماتي، صاحب كتاب الدواوين، رئيساً لديوان الجيش المصري، ثم أضيفت له في وقت لاحق رئاسة ديوان بيت المال[5] وقد ذكر العماد

---

[1] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج4 ، ص 190 .

[2] عصام شبارو ، السلاطين في المشرق العربي ، النهضة العربية، (د.م)، 1994، ص 198 .

[3] المقريزي ، الخطط ، ج3 ، ص 99.

[4] ماير ، الحروب الصليبية ، ص 185

[5] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 13 .

الأصفهاني الذي كان رئيساً لديوان الإنشاء بالشام؛ أن الأسعد تلقّ معرفته عن الدواوين، من أبيه، الخطير ابن مماتي، الذي كان رئيساً للديوان الفاطمي، حيث أسلم مع مجموعة من موظفي الديوان الأقباط " في ابتداء المُلك الصلاحي" [1]. وبالنسبة للقطر الثاني من الدولة؛ وهو الشام ، فإن أبو شامة يخبرنا بأن نظارة الجيش وقضاء العسكر، كانتا من مهام قاضي القضاة؛ شمس الدين ابن الفراش، الذي كان متولي هذه الوظيفة حتى وفاته عام(588هـ/ 1192م) ثم تولى مكانه القاضي بهاء الدين ابن شداد [2] صاحب كتاب النوادر السلطانية [*] وذلك بعد اتصاله بخدمة الدولة الأيوبية، كما يشير ابن خلكان، فـ" ولاه قضاء العسكر والحُكم بالقدس الشريف " [3]. والى جانب ما ذُكر آنفا عن الناظر قاضي قضاة الجيش، من مهام ومسؤوليات، فإنه كان مكلفاً أيضاً بإقرار الحقوق بين المواطنين داخل الإمارات، والأوساط الإقطاعية، وتقييم الأوضاع العامة بها، أو كما يقول أبوشامة " الحُكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية " [4]، وذلك إلى جانب القيام بأعمال تتعلق بشؤون السفارات بين الدول والممالك،

---

[1] الأصفهاني ، خريدة العصر، ج 5 ، ص 16 .

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 204.

[*] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسّفية؛ كتاب ألّفه القاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد، الموصلي، الشافعي، (593–632هـ/1145–1239م) وضعه حول سيرة وفتوحات صلاح الدين؛ للمزيد ينظر؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ص 5 – 20 .

[3] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 7 ، 88 .

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 204.

[5] ابن كثير ، البداية ، ج16، ص 648.

[*] ملطية بلد من بلاد الروم، متاخم لثغور شمال الشام؛ أي في جنوب غرب بلاد الأناضول، للمزيد ينظر؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 192

[6] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 56 .

[7] المصدر نفسه ، ص 204.

فشمس الدين ابن الفراش، قاضي قضاة العسكر المذكور آنفاً؛ كان وبصفة شخصية؛ سفيراً لصلاح الدين " في الرسالات إلى ملوك الآفاق "[1] حتى أنه توفي عائداً من سفارة إلى بلاد ملطية [*]. وفي سياق غير بعيد؛ كان خليفة ابن الفراش؛ وهو القاضي ابن شداد، أحد سفراء الموصل، وأبرز وسطاء الصلح بين الفرقاء السياسيين؛ الأيوبيين والزنكيين [2] كما كان مكلفاً أيضاً بحث الجند على الجهاد [3] ؛ ومن المعروف عن ابن شداد أنه كان قد أعدّ – خلال ترأسّه ديوان الجيش وقضاء العسكر – كتاباً يحث خلاله على الجهاد، والذي كان قد شكل بتلك الفترة؛ هاجساً دينياً تصدر كل ما كان يجري من أحداث، حيث بيّن فيه فضائل ومنزلة المجاهدين والشهداء ، مما أعطى قيمةً معنوية وحافزاً روحياً في النضال ضد الفرنجة، وقد كان يتألف من " مقدار ثلاثين كراسة "[4]. إلى جانب استعراض أهم المستجدات على مستوى الجيش، وجبهة الحرب والجهاد [5] .

كما تجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين؛ كان قد عزّز سياسته ونظام حكمه؛ بتيار مدني نصف عسكري، ذو خلفية دينية و(أيديولوجية)، حيث قام بتقريب الفئات النافذة في الدولة؛ كالقُضاة، من أمثال القاضي الفاضل، و ابن شداد، و شمس الدين ابن الفراش، وهم جميعاً من كبار قضاة الشافعية وفقهاء المدارس بالدولة، والذين تولوا رئاسة الدواوين ، و كانوا كما

---

[1] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 7 ، ص 88 .

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 157.

[3] هاملتون ، صلاح الدين الأيوبي ، ص 196 .

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 102.

يعتبرهم هاملتون قادة الرأي العام بها [1] خصوصا وكما يذكر ابن شداد فيما يتعلق بتصدرهم لإجراءات مراسم استقبال الوفود، والأمراء؛ ومن بعدهم الكتّاب [2] .

كانت هذه أهم النقاط المتعلقة بديوان الجيش الأيوبي عهد صلاح الدين، مهامه، أعماله، وأبرز رؤسائه، وأهميته كجزء من بنية وتركيبة الدولة الأيوبية الصلاحية، كما إننا لا نعلم تماماً عما إذا كانت هناك أية معلومات مصدرية إضافية عن ديوان الجيش عهد صلاح الدين، غير أن الثابت هو أن أغلب مصادرنا كانت قد وقعت في أخطاء أزلية بإعطائها الأولوية لتاريخ الرسل والملوك والفاتحين؛ تلك الأولوية كانت قد جرت في ظل تهميش الجوانب المؤسساتية والحياتية والبشرية، مما شكل عائقاً أمام تقدم المعرفة التاريخية في كافة جوانبها/فروعها؛ وهي مشكلة يحس بها كل من يطرق الأبواب المؤسساتية في التاريخ العربي والإسلامي، خلال عصرهما العصر الوسيط [*]

---

[*] للمزيد من التفاصيل حول هذه الظاهرة، ينظر كتاب، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي، محمود أبوصوة، دار اليجا، فاليتا، 1997، ص 59 .

ثانيا : المالية الصلاحية وبيت مال المسلمين/ دراسة في الشؤون المالية الداخلية والخارجية الجهادية :-

كان ديوان بيت مال المسلمين؛ هو الجهاز الإداري الذي يحفظ ميزانية الدولة، ويتولاه الموظف الوكيل ببيت مال المسلمين، وهو المسؤول عن " ما يرد عليه من الأموال، ويخرج من ذلك في وجوه النفقات، والإطلاقات " [1].

وفي دولة صلاح الدين ثمة وكيلين لديوان بيت مال المسلمين ، ورد ذكرهما في المصادر المختصة: الأسعد الوزير بن مماتي؛ الموظف الكاتب المعروف ، كان متولي خزانة بيت مال المسلمين في الدولة المركزية مصر، حيث أضيفت له رئاسة الخزانة بعد توليه نظارة الجيش [2]. وأما في بلاد الشام، القطر الثاني بالدولة، فإن وكالة بيت مال المسلمين كانت من مهام الصفي بن القابض ، والذي عزله صلاح الدين في آخر عهده عن رئاسة الديوان ، رغم بقائه موظفا في الخزانة ، بسبب نشاطات عمرانية اعتبرت تبديرية [3]. "عزل الصفي عن ديوانه بسببها ... " [4]

وفي فترات الحروب والجهاد، كانت الأقاليم الأيوبية من مقاطعات وإمارات تابعة، تمد السلطان الأيوبي بالمال والخراج والضرائب، لم تكن في تقديرنا ثمة إدارة مركزية للشؤون المالية بالدولة؛ تصل إليها جميع العائدات المالية من مختلف الأقطار والأقاليم، بل أنه في واقع الأمر كانت الخزانة

---

[1] قدامة بن زياد بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق، محمد الزبيدي، دار الرشيد، العراق، 1981، ص 36 .

[2] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 13 .

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، 118 .

[4] ابن أبي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، 268 .

العامة ترافق صلاح الدين حيث يذهب في جميع حروبه وأسفاره، هذا ما يفهم من حديث ابن الأثير عن قيام صلاح الدين بعزل تقي الدين عمر؛ عن نيابة مصر، لتثاقله عن رفع خراج البلاد إلى جهة الكرك على الحدود المصرية الشامية، سنة(582 هـ/1186م)، حيث كانت تدشن هناك عمليات حصار جادة، ضد هذا الحصن الصليبي [1] وكما يذكر ابن أيبك الدواداري، فإن لصلاح الدين خزندار مسئوول عن خزينة السلطان، وهو موظف مملوك قائم بين يديه [2] يتحرك بالخزانة حيث يتحرك صلاح الدين؛ وهي سياسة الموارد المالية غير الثابتة كما يسميها سميث، تتحرك حيث يتحرك مؤشر العمليات الحربية الجهادية ضد الفرنجة، أو خلال الصدامات العسكرية بين القوى الإسلامية في الشرق؛ فبعائدات مصر فتحت الشام، وبعائدات الشام تم فتح جهات ما بين النهرين، ومن خلال تمويلات جميع هذه المناطق؛ تم إسقاط مملكة بيت المقدس[3] ففتحت القدس مع غالبية المواقع الصليبية بفلسطين والساحل الشامي، وكلما اتسع نطاق البلدان المفتوحة كلما تزايدت شؤون نفقاتها بصورة مطّردة، غير أنه إجمالاً ينبغي التنويه إلى أن سياسة بيت مال المسلمين عهد صلاح الدين؛ كانت تسير وفق قاعدتين رئيسيتين :

1- إلغاء المكوس والضرائب غير الشرعية

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص 139..

(2) ابن أيبك الدواداري، الدر المطلوب، ج 7، ص 117.

(3) Smith, History Of The Crusades, p,235 .

2- الاكتفاء بالموارد القانونية [*] من الزكاة والخراج و مكوس التجارة [1]

ويمكن إضافة المراعاة الاقتصادية، والإنصاف تجاه الرعية، وتشجيع الاقتصاد الخاص، بتنشيط الحركة التجارية، حيث يمكن أن نلتمس ذلك في كتاب فاضلي حول مكوس حلب، أشير فيه عن الرفق بالرعية، وتنشيط التجارة والاقتصاد برفع المكوس والضرائب " منها ما هو على الأثواب المجلوبة، ومنها ما هو على الدواب المركوبة، و منها ما هو في المعايش المطلوبة " [2] وتظهر السياسة المالية الصلاحية بجلاء عبر منشور الرقة الذي صدر عام (579 هـ/1183 م) والذي جاء فيه :

" أشقي الأمراء من سمن كيسه، وأهزل الخلق وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس؛ وسماه الحق ... ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة، أشرفنا منها على سحت يؤكل، وظلم مما أمر به أن يُقطع ... فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الأمراء من قِبلنا، أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها، ويلقوا الرعايا من بشائر أيام مُلكنا ...وقد أمرنا بأن تسد هذه الأبواب ... ويعفى خبر هذه الضرائب من الدواوين، ويسامح بها جميعها، جميع الأغنياء والمساكين ... " [3]

(*) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، ينظر كتاب، المالية العامة في الإسلام، عوف الكفراوي، الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1997، ص 47 .

(1) مصطفى ، صلاح الدين ، ص 387 .

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين، ج3 ، ص 114.

(3) المصدر نفسه ، ج3 ، ص 115.

من جانب آخر فإن الرحالة البلنسي، ابن جبير – الذي أقام فترة في دولـة صـلاح الـدين – كـان قـد أشـاد بالرخـاء الاقتصـادي علـى مسـتوى المعيشة، والذي كان ينعم به مواطنو الشام بالذات، في العهد الصلاحى ، كما أشار إلى الإجراءات المالية التعسفية السابقة، التي كانت تُمارس من قبـل الفـاطميين حتـى فـي حـق الحجـاج المسـلمين؛ الأندلسـيين والمغاربـة، العابرين من مصر إلى الحجاز، إلى جانب مكوس فاطمية أخرى أعتبرها باطلة، كانت قد أزيلت جميعها في عهد صلاح الدين [1] والذي بادر كما يذكر أبوشامة؛ إلى إلغاء مكوس الحجاج، ومنح أيضاً أعيان مكة المكرمة، غـلالاً ومنحـاً اقتصـادية تحمـل لهـم كـل سـنة [2] كمـا تـم اتخـاذ إجـراءات ملموسة تجاه الرعايا المسلمين المهاجرين من البلدان التي احتلها الصليبيون بالـذات؛ فمنـذ عـام (585هـ/1189م) جـرى العمـل علـى إعـادة تـوطين المهاجرين المسلمين؛ مـع استعادة السكان لأراضيهم وأملاكهم فـي الشـام، طبقا لصكوك الملكية التي بحوزتهم، أو وفقاً لروايات شهود العيان، وذلك نتيجـة لمبـادرة قـام بهـا صـلاح الـدين بـرفض تقسـيم العائـدات الماليـة والاقتصادية في الأجزاء المفتوحة في الشام من بلاد الفرنجة، مما يوجب بالتالي وباعتبار أن الصليبيين كفاراً؛ ضرورة تقسيم بلادهم وممتلكاتهم بين المقاتلين الأيوبيين كغنائم حرب، غير أن صلاح الدين امتنع عن ذلك؛ رغم الإيرادات والفوائد التي كانت ستصل منها إلي بيت مال المسلمين، وذلك وفقاً للسياسة الزنكية القائمة على تخطـئ آراء فقهاء الحنفية؛ الدين يدعون إلـى تقسـيم الـبلاد الفرنجيـة كغنيمـة، وقـد تـم اعتبـار إن الـبلاد كانـت ملكـاً

---

(1) أبو الحسين محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، (د.ت) ، ص 16 .

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 6 .

لمواطنين مسلمين تم تهجيرهم قسراً من ديارهم؛ لذلك وجب إعادتهم، وحق عليهم استرداد أملاكهم؛ باعتبارهم الملاك الشرعيين [*] .

ويبدو أنه من الصعب الاعتقاد بأن السلطان الأيوبي صلاح الدين، لم يكن إدارياً لامعاً في الشؤون المالية، كما يعتقد هانز ماير، وأن المطالبة بإلغاء جميع الضرائب غير الشرعية؛ كان قد أدى إلى جفاء بيت مال المسلمين، وخواء الخزينة التي تقلصت وارداتها المالية [1] ، بتقلص الضرائب الثانوية المساهمة كالمكوس[*] الفاطمية غير الشرعية؛ التي كانت قائمة آنذاك كما ذكر ابن جبير آنفا ، مع ضخ مبالغ متزايدة في الاقتصاد الخاص؛ بتخفيض الضرائب على الثياب والدواب؛ كما ترآى لنا قبل قليل من خلال الكتاب الفاضلي حول مكوس حلب، وبالتالي انتعاش التجارة.

وقد يتضح ذلك أكثر بشهادة من ابن الفارقي، مؤرخ بلاد ديار بكر، والذي كان معاصراً لعهد صلاح الدين ، حيث تحدث خلال زيارته للشام، عن التنشيط التجاري الذي تتعمده الإدارة الأيوبية، فالباعة والمشترون

---

[*] الفوائد المالية الناتجة عن الفتوحات العسكرية، والسياسة الزنكية المُشار إليها كانت مخالفة للفكر الحنفي رغم كون كافة الزنكيين، وعموم الأتراك؛ حنفيين في مذهبهم، لكنها كانت مطابقة لاجتهادات الشافعية والحنابلة والمالكيّن، للمزيد من المعلومات عن سياسات الزنكيين والأيوبيين في هذا الشأن ينظر كتاب، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، حسن حسين، المعرفة الجامعية، السويس، 1999، ص 88 .

[1] ماير ، الحروب الصليبية ، ص 185 .

[*] المكوس هي نوع من الضرائب غير الشرعية، كالعشور التي تؤخذ من التجار، وهي صدقات تؤخذ في غير وجه حق؛ للمزيد من التفاصيل ينظر، كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق، محمد عمارة، الشروق، بيروت، 1989، ص 631.

" يدخلون بأحمالهم إلى بيوتهم، وقماشهم إلى حوانيتهم، لايعارضهم في ذلك معارض" [1]. في الواقع وبحسب رأي الباحث، فان السبب الذي جعل من السياسة المالية للدولة الصلاحية، غير قائمة على المكوس والضرائب الثانوية، التي تؤخذ من المواطنين والتجار، يرجع إلى ارتكاز النظام الأيوبي إلى حد بعيد على نظام الإقطاع العسكري، والمُجبر على تقديم مبالغ مالية، وبشكل دوري إلى خزانة الدولة وبيت مال المسلمين كما يقول ابن مماتي "ضريبة مستمرة وقطيعة مستقرة " [2]. فمظفر الدين بن زين الدين على كوجك ؛ وهو أحد أمراء الوسط الإقطاعي المعروفين في جهات ما بين النهرين، كان وكما يذكر الحموي قد " خدم بخمسين ألف دينار؛ حتى اخذ أربل و بلادها " [3].

أما فيما يتعلق بالنقود، فمن المؤكد أن صلاح الدين كان قد أمر بإلغاء جميع نقود مصر الفاطمية، السوداء، وذلك بعد تعليق دور الضرب كما يتحدث المقريزي؛ حيث شرع في سك العملة " الناصرية وجعلها فضة خالصة، ومن نحاس " [4]، غير أنه علينا الانتباه كما يبدو، إلى ظاهرة تراجع قيمة النقد أو العملة الإسلامية في العهد الصلاحي، جراء التماشي مع سياسات جهادية، خارجية، اضطرارية، فالمقريزي يتحدث في رسائله عن تلك الأزمة الاقتصادية، التي أصابت المؤسسات المالية،

---

[1] أحمد بن يوسف بن الفارقي ، تاريخ آمد وميافارقين ، تحقيق ، سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995، ج ، 11 ، ص 315 .

[2] ابن مماتي ، قوانين الدواوين، ص 367 .

[3] ابن أبي الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ص 272 .

[4] تقي الدين أحمد المقريزي ، النقود الإسلامية ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، 1880 ، ص 15 .

والمصرفية [*] في مصر بالشلل في ظل الإدارة الأيوبية، كما جلبت على الأرجح سخط المواطنين المصريين تجاه النظام الصلاحي، بعد أن " عمت بلوى المصارف بأهل مصر، لان الذهب و الفضة خرجا منها وما رجعا، وعدما " [1]

وفي الواقع كان ديوان بيت مال المسلمين ينشط في خدمة الإنفاقات والنشاطات العسكرية، التي تخص العمليات الجهادية، إلى جانب الإنفاقات على المنشئات الوقفية والأعمال الخيرية، وما يرتبط بها من جرايات وصدقات وغيرها [2]، كالخانقانات التي تأسست كما يدل اسمها، على يد الفقهاء من المهاجرين الإيرانيين، وزوايا المرابطين والصوفية، فخانقاه دار سعيد السعداء بمصر، أوقف لها الديوان الأيوبي كما يقول ابن دقماق؛ مساحات زراعية شاسعة بلغت عائداتها " أحد وعشرون ألف دينار "[3]، كما أن صلاح الدين كان قد شدّد على أهمية الجهاد البحري، فمنح البحارة اقطاعات جزيلة، بعد " تجديد الأسطول وإصلاح مراكبه " [4] حيث تم رصد ميزانية للأسطول " وجعل له ديواناً مخصوصاً "[5] هذا إلى جانب

(*) الصيرفة وخانات الصرف؛ مؤسسات مالية مصرفية ترجع إلي العهدين السلجوقي والفاطمي بالمشرق، وأبرز أسواق الصرف إلى جانب القاهرة؛ كانت أصفهان وبيت المقدس، للمزيد ينظر كتاب، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، على محمود ، عين للدراسات، القاهرة، 1996، ص 113 .

(1) تقي الدين أحمد المقريزي، رسائل ، تحقيق ، رمضان البدري وآخرون ، دار الحديث ، القاهرة ، 1998، ص 170 .

(2) الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ص 341-343 .

(3) إبراهيم بن محمد ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت)، ج5، ص 8 .

(4) ابن كثير ، البداية ، ج16، ص 519 .

(5) سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، المطبعة العمومية، مصر، 1899، ص 131.

الإنفاقات التي كانت تتم على المشاريع العمرانية؛ فالسور الكبير الشهير الذي أحيط بالقاهرة كما يقول اليافعي؛ والذي بلغ طوله (29300) ذراع ، كان قد أستغرق وقتا ومالا من صلاح الدين " فلم يزل العمل فيه إلى أن مات، وأنفق عليه أموالاً لاتحصى "[1] . كذلك الإنفاقات التي تتم أيضا على فئات أهل العلم والشعراء والأدباء والفقهاء والوعاظ وغيرهم، والذين ذكر القاضي الفاضل في أحد كتبه إلى صلاح بدمشق؛ أن رواتب هذه الفئة تتراوح فيما بين، مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف دينار سنويا[2] .

أما فيما يتعلق بالشأن العسكري؛ فإن تمويل المؤسسة العسكرية وقطاعات الجيش، بشكل ضخم ومستمر، إلى جانب مؤسسات أخرى، ولأوقات طويلة؛ كان وكما يشير هانز ماير قد أنهك فعلاً خزانة الدولة[3]، وأضعف بالتالي من قيمة النقد الأيوبي، فلا غرابة أنه لم يُعثر في خزانة صلاح الدين من مجموع دخل الأقاليم الأيوبية، وكما يقول ابن أيوب؛ سوى " سبعة وأربعين درهماً وجرام واحد صوري؛ وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن "[4] إن تزايد عدد الجند من كتائب المشاة وفرق الفرسان وفصائل الإقطاع، الحرس الجاندارية والطواشية، الغلمان ورماة النبال، الحجارين ومستخدمي الكباش والمنجنيقات، الفئات المتطوعة والغزاة ورجال الصوفية والمجاهدين ؛ كل ذلك قد أدى فعلاً؛ إلى إرهاق ميزانية الدولة المركزية بالقطر المصري،

---

(1) عبدالله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1993، ج 3 ، ص 397.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 4 ، ص 37 .

(3) ماير ، الحروب الصليبية ، ص 185 .

(4) ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 291 .

باعتبارها الممول الرئيسي لجبهة الحرب ضد الفرنجة، حتى أن صلاح الدين اضطر في إحدى المرات إلى اقتراض " مائة وخمسين ألف دينار" [1] من خزانة مصر تسديداً لنفقات الجند خلال حرب الحملة الصليبية الثالثة، والتي دامت نحو ثلاث سنوات، إذ أن " كثرة نفقاتهم " [2] كانت سبباً رئيسياً في اضطرار صناع القرار في الجانب الأيوبي إلى وقف العمليات العسكرية ضد الفرنجة ، والقبول بعقد صلح الرملة[*] ذلك الصلح الذي أنهى الحرب الصليبية الثالثة، والذي توفي صلاح الدين بعد أشهر من توقيعه .

كانت تلك أهم الوثائق المصدرية المتعلقة بالشأن المالي في دولة صلاح الدين الأيوبي، مع أبرز المعلومات المصدرية المستقاة من الكتب ذات العلاقة، والتي تشير إلى أنه؛ وإجمالا؛ كانت السياسة المالية بدولة صلاح الدين منفتحة أمام القطاع الخاص / التجاري، مرنة تجاه الضرائب، ومتزنة مع الرعية، وذات رخاء وسخاء ملفتين على مستوى الأفراد؛ خصوصا في القطر الشامي، غير أنها لم تكن رصينة كما رأينا فيما يتعلق بالإنفاق على بعض المؤسسات، خصوصا العسكرية منها، ناهيك عن استهلاك موارد القطر المصري، من عمولات ونقد، الأمر الذي انعكس سلباً على بيت مال المسلمين، فأصيب بالجفاء في آخر عهد السلطان

---

[5] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 125 .

[6] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 286 .

[*] صلح الرملة كان خاتمة لست جولات من المفاوضات المباشرة مع القيادة الانجليزية الفرنسية في فلسطين، والتي أفضت إلى إلقاء السلاح ورحيل الجيوش الأوربية، وقد عقد في(21 شعبان 588هـ/2 سبتمبر 1192م) للمزيد ينظر؛ كتاب معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، يوسف غوانمة، دار الفكر، عمان، 1995، ص 41 .

صلاح الدين، حتى أنه لم يُعثر في خزانته الضخمة بعد وفاته، وبالقياس مع حجم الفتوحات واتساع الأقاليم الأيوبية؛ سوى على بضعة دراهم .

وعلى ضوء ما تقدم؛ فإن الفصل الثالث من هذه الرسالة ، والمعنونة بـ (البنية السياسية والإدارية لدولة صلاح الدين الأيوبي ودورها في حركة الجهاد ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي 569-589هـ/1173-1193م) سيُعالج مؤسسات الدولة وطبيعة نظام الحكم ؛ وسيتم التعرض خلاله إلى طبيعة النظام السياسي الأيوبي عهد صلاح الدين ، كجزء من تركيبة وبنية الدولة، وأبرز المجالس القيادية، التي تصنع من خلالها القرارات؛ كمجلسي الشورى والعدل، وأثرهما – وخصوصا الأول منهما – على (دينامية) وحركة الجهاد ضد الصليبين، إلى جانب محاولة للتعرف على أبرز شخصيات الدولة ، من نواب وأمراء وكبار الموظفين الذين لم يتم التطرق لهم ، مع مبادرة منفردة؛ ستكون لرصد وتتبع الاتجاه العقائدي للنظام الأيوبي، والنمط الأيديولوجي الذي كانت تتألف عليه بنية الدولة الإسلامية، عهد صلاح الدين الأيوبي .

الفصل الثـالـث
النُّخب السياسيـة والإداريـة / مؤسسات الدولـة
وطبيعة نظـام الحُكم

المبحث الأول : مجالس الدولـة وطبيعـة نظـام الحُـكم :

أولاً :- طبيـعة النظـام السياسـي في دولـة صـلاح الدين الأيوبـي
ثانياً :- مجلسيّ الشورى والعـدل ودورهما في بنية الدولة والجهاد

المبحث الثاني : أربـاب الدولـة والنمـط الأيديولوجي في بنيـة النظام الأيـوبي :

أولاً :- أربـاب الدولـة / مستشارالسلطـان، نوابـه، وأمرائـه،/ كبـار الموظفين ، قادة الجيش ومقدمي الممـاليك ودورهم السياسي والإداري والجهادي
ثانياً :- الاتجـاه العقائدي والنمط (الأيـديـولوجـي) في بنيـة النظـام السياسـي الصـلاحي ؛ وأثـره على مسـار الدولـة والجهـاد

المبحث الأول : مجالس الدولة وطبيعة نظام الحُكم:

أولاً : طبيعة النظام السياسي في دولة صلاح الدين الأيوبي :-

بدايةً يمكن اعتبار أن النظام السياسي الذي تألفت عليه دولة صلاح الدين الأيوبي ، كان خليطاً من النظم السلطانية، والنظم الملكية السائدة في الشرق، فكلاهما مستمد من النظم السلجوقية ذات النهج السلطاني ، والنظم الأتابكية ذات النمط الملكي ، ويمكننا التماس ذلك في أكثر من وثيقة؛ أحداها رسالة سلطانية، موثقة بالديوان الأيوبي من جانب ابن مماتي – أحد أبرز موظفي الدولة الصلاحية – والتي جاء فيها: الدولة " الملكية الناصرية السلطانية الصلاحية " [1]. وذلك بدوره يقودنا إلى مفاهيم جديدة، تفيد أن صلاح الدين كان قد اتخذ في الواقع عدداً من الألقاب ، فنلاحظ أنه مع الديوان العباسي يستخدم صفة " الخادم " [2]. إقراراً منه بأنه في خدمة الخلافة العباسية، التي يستمد منها سلطته الروحية ، كما يتضح من الكتب الفاضلة، وذلك إلى جانب كونه كان قد تحصل على لقب الملك الناصر؛ من الخليفة الفاطمي الأخير العاضد [3].

---

(1) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 52.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 117.

(3) النويري ، نهاية الأرب ، ج28 ، ص 238.

وبالنظر في كتاب النوادر السلطانية لقاضي قضاة الجيش الصلاحي ، المؤرخ ابن شداد ، فإنه كما يظهر من عنوانه [1]؛ عبارة السلطان هي صفة الحاكم الأيوبي في ذاك الوقت ، مع ملاحظة أن الكتاب كان قد أُلّف بعد وفاة صلاح الدين بنحو عقدين، فيما نجد عند الرئيس العماد الكاتب، رئيس ديوان الإنشاء بدمشق، ازدواجاً واضحاً في الكنيتين: الملك والسلطان . يمكن ملاحظة ذلك في أحد أشعار العماد ، وهو رثاء حول وفاة صلاح الدين :

بالله أين الناصر الملك الذي   لله خالصة صفت نياته
أين الذي مازال سلطانا لنا   يرجى نداه وتتقى سطواته [2].

من جانب آخر؛ فإن دولة صلاح الدين تمت تم صياغتها كما تقول سيمينوفا ، على هيئة نظام (فيدرالي) يقوم على أسس من الروابط، والتحالفات الاتحادية بين الأقاليم، والقوى الإقطاعية والتكتلات السياسية . الانضمام إلى سلك الدولة الاتحادية الأيوبية الصلاحية، يأخذ الشكل الإجباري عادة ؛ ويشترط صك النقود باسم الملك الناصر ، إمداد الجيش بالقوات العسكرية الكافية حسب الحاجة ، دفع مبلغ محدود إلى خزانة الدولة [3]. مع الاحتفاظ بالحقوق الداخلية والأحكام الذاتية، في صك العملة وتأليف البنية الإدارية وتشكيل الجيش، فيمكن أن نلاحظ أن صلاح الدين لم يتبع سياسة الإقصاء، في التعامل مع نظرائه من الحكام المسلمين، بل أقر الكثير منهم على إماراتهم وأملاكهم وإقطاعياتهم، وكما

---

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 6 .

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 217.

[3] سينمييينوفا ، صلاح الدين والمماليك ، ص 38.

يخبرنا أبو شامة فأنه كان يشترط عليهم فقط " أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار" [1].

بعض الباحثين الغربيين في العلاقات أمثال دافيد نيكول، يؤكد على أن صلاح الدين الذي يعد الأكثر شهرة؛ على طول العلاقات بين الشرق والغرب؛ كان قد انتهج نظام حكم مبني على درجة رفيعة من النموذجية المثالية ، والتواضع الديني ، والسمو الأخلاقي [2]. فيما يشير شاندور إلى أن مصر والشام بالذات ، إلى جانب بقية الأقاليم الأيوبية ، كانتا قد عرفتا على عهد صلاح الدين؛ حُكماً وصفه بالمستنير ، ويضيف بأنه كان نظام حكم متوهج أخلاقياً ودينياً وثقافياً [3]. في تقديرنا كان النظام الأيوبي، قد استنار بفضل النظام التشاوري، الذي انتهجه صلاح الدين مع كبراء أمراء وموظفي دولته ، والذي سُيتاح لنا التعرض لحيثياته ، خلال المحورين التاليين، مما أنهى بالتالي ، ولفترة مؤقتة ، مرحلة مهمة من مراحل الاستبداد السياسي في التاريخ الإسلامي . وعلى الأرجح فإن صلاح الدين كان متأثراً بالنظم السياسية إبان عصري النبوة ، والخلافة الراشدة ؛ يمكن أن نستشف ذلك في كونه قد أقّر المسيحّيين الشرقيين، على دُوّرهم وكنائسهم في بيت المقدس؛ اقتداء بسياسة الخليفة الراشدي، عمر بن الخطاب[4]. حيث نبه صلاح الدين إلى إقتدائه بها قائلاً " نحن متبعون لا مبتدعون" [5]. ومن جانب آخر فإنه لا يمكن فهم طبيعة النظام

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 80.

(4) Nicolle, David, Angns Mcbride, Saladin and the saracens, World Print Ltd, HongKong, R8, 1996,p3.

[3] البير شاندور ، صلاح الدين الأيوبي ، تعريب ، سعيد أبو الحسن ، دار طلاس ، دمشق ، ط2 ، 1993، ص 121.

[4] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 82.

[5] ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج7 ، ص 90.

السياسي الأيوبي، و أحوال الدولة العامة ، بمعزل عن فهم شخصية صلاح الدين ذاته ، فالثابت هو أنه شخصياً كان كثير الاهتمام بشؤون رعايا المسلمين وأحوالهم ، خصوصاً اليتامى والمسنين [1]، كما كان يتفقد مرافق و شؤون دولته بشكل شخصي – كما يشير ابن كثير – دون الاستناد على تقارير الموظفين والمساعدين ، حيث " يمر بالمعاقل والحصون والبلدان ، للنظر في الأحوال والأموال ، وكشف المظالم والمحارم والمآثم "[2].

أما عن علاقته بأرباب دولته على المستوى الشخصي والرسمي ، فكانت تقوم على نوع من التواضع والتسامح ، ولقد ذكر ابن العبري، الذي كان من أهل ذاك العصر ، أن صلاح الدين يعتبر حسن الأخلاق ، متواضع ، وكثير التغافل عن ذنوب/أخطاء أصحابه [3]، ويضيف مؤرخ بني أيوب بأنه كان يتجاوز عن هفوات موظفيه، و هفوات باقي الأمراء والمماليك ، وذكر أن بعض المماليك كانوا يتراشقون ذات مرة بقشر الموز، فوصلت إحداها إلى حضرة صلاح الدين " فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها !! "[4].

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 29.

[2] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 646.

[3] ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص 170.

[4] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 292.

أما العماد الكاتب فيشير إلى تواضعه بين جلسائه من مترسلي وسفراء الدول الأخرى ، بحيث " كان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان ... ما رد سائلاً ولا صد نائلاً، ولا أخجل قائلاً..." [1].

في سياق غير بعيد؛ استوعب النظام السياسي الأيوبي عن قناعة ذاتية، مساحة جيدة من المعارضة السياسية المدنية، فلقد ذكر قاضي قضاة العسكر في دولة صلاح الدين ، أن الأخير كان يتقبل الانتقادات البالغة والاستهجانات الشديدة ، من جانب الرعية ضد سياسات الولاة والنواب ، فكان " يسمع من المستغيثين والمتظلمين ، أغلظ ما يمكن أن يُسمع؛ ويلقى ذلك بالبشر والقبول " [2]. وربما كان أحد المعارضين كان كما يذكر ابن تغرى بردي ؛ الشاعر الكوفي الأصل، الدمشقي المولد والنشأة ، أبو المحاسن بن عنين؛ الذي أنتقد السلطان الأيوبي صلاح الدين، وكاتبه الفارسي العماد الأصفهاني، ومستشاره العربي الوزير القاضي الفاضل ، حيث انتقدهم جميعاً في بيت شعر واحد؛ قائلاً:

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير منحدب! [3].

ورغم إننا نجهل ردة فعل النظام الصلاحي، من هذا الانعطاف السياسي في الشعر، غير أنه ثمة على الأقل فيما يبدو مساحة جيدة من الحرية الشخصية في التعبير، كما تبين لنا من الحالتين السابقتين، كما يمكننا أيضا إدراك أن فلسفة نظام الحكم في دولة صلاح الدين، تكمن في

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 342.

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 24.

[4] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 113.

الالتزام بالدين والسياسة والأخلاق، وهي مثل عليا كان صلاح الدين قُبيل وفاته؛ قد أوصى بها ابنه الملك الظاهر [*] فدعاه إلى الاهتمام بـ" بتقوى الله ... الرعية والنظر في أحوالهم ... حفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ..." [1]، ويعتبر وول ديورانت تلك الوصية نموذجاً لنظام حكم مثالي، و عادل ، في ثقافة العصر الوسيط ، ويرى أنها تعبر عن رُقي خُلقي انبهر له حتى، المؤرخين المسيحيين . ويضيف بأنها وصية سامية ومتكاملة ، لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية [2].

فيما يخص الدين والسياسة والأخلاق في نظام الحكم ، فإننا نتساءل عما إذا كان صلاح الدين؛ قد نقل تلك المفاهيم عن مؤسسات دولة سيده نور الدين محمود، الذي قال عنه ابن الأثير " قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ..." [3]. و من المعروف أن نور الدين محمود، كان حاكماً مُنصفاً مُجداً ومُتديناً، فالمؤرخ البطر يريك السرياني، والدي كان معاصراً لدولة نور الدين محمود، تحدث عن أن الأخير كان قد منع جنده من " أن يشربوا الخمر في معسكره، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره

---

[*] الملك الظاهر غازي ، أكبر أبناء صلاح الدين، تولي إدارة حلب ، ولد في رمضان(568هـ)، وتوفي في جمادي الآخر (613هـ)، ودُفن بقلعة حلب ، ينظر؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج4 ، ص 6.

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 24.

[2] وول ديورانت ، قصة الحضارة ، تعريب محمد بدران وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1965، ص 5319.

[3] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 163.

الطابع الديني"[1]. كما كان معروفاً بين مؤرخي عصره بكونه عادلاً؛ والمؤرخ المسيحي ابن العبري يقول عنه : " لم يكن في سير الملوك أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل "[2].

والواقع أن النظم السياسية التي سبقت النظام الصلاحي، في المشرق ، كانت قد شهدت بعض الفترات من المثالية في الحكم ، فمؤرخ دولة السلاجقة ، الحسيني، يتحدث عن أن سلطنة السلاجقة عهد ما يعرف بالسلاطين العظام؛ أمثال ألب أرسلان وملكشاه وغيرهم ، كانت قائمة على أسس خلقية ، ومثل عليا رفيعة، مما كان سبباً إضافياً في اتساعها، وأن السلطان ملك شاه بالذات ، كان كثير العطايا ، شديد الهيبة ، ويطبق العدل حتى على المقربين من رجاله ومماليكه ، فـ" كف المظالم ، وانتصف للمظلوم ، وكان يقف للمرأة والضعيف ... "[3].

وبالعودة إلى نظامي صلاح الدين ونور الدين ، فإنه هناك من يرى أن صلاح الدين، كان قد ورث مؤسسات دولة نور الدين محمود، وأن ثمة تقارب بين الشخصيتين ، كلاهما أتبع السنة النبوية بشكل صارم ، كلاهما طبق التعاليم الدينية في الجوانب الشخصية والعامة ، كلاهما أحاط نفسه بنخبة من الفقهاء والعلماء ، كلاهما طبق الجهاد العملي ضد الصليبيين،

---

[1] ميخائيل السرياني الكبير ، حولية السرياني، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995 ، ج 5 ، ص 243.

[2] ابن العبري ، مختصر الدول ، ص 375 .

[3] صدر الدين الحسيني ، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تحقيق ، محمد نور الدين ، دار أقرا، بيروت ، 1985، ص 152.

كلاهمـا تبنــي قناعــة اسـتحالة التعايـــش السـلمي مـع الفرنجـة وعمـوم المسيحيين [1].

غيـر أن السـير هـاملتون، وهـو أحـد المستشـرقين المختصـين فـي العلاقات، يرى أنـه ثمـة زوايا؛ لا يمكن من خلالها إجراء مقابلـة بين نـور الـدين وصـلاح الـدين ، مـن أهمهـا الفـروق الأساسـية حـول الانطلاقـات السياسيـة المبكـرة لكـلا الحـاكمين ، حيث يشير إلـى أن نـور الـدين كـان قد انطلق من داخل بنية سياسية مستقرة على النمط الأتابكي، الزنكي ؛ أي أنه فـي الواقـع ورث دولـة أبيـه [2]. فـي حين كـان صـلاح الـدين قد ظهـر من داخـل بنيـة سياسـية متقلبـة، حـوت العديد من أقطـاب المعارضـة؛ كعناصـر الجـيش السـوداني فـي مصـر ، والأتابكـة الـزنكيين، فـي حلـب والموصـل ومابين النهرين ، وأمراء الدولـة النوريـة السابقين ، في دمشق والشام .

وحسـب رأي الباحـث ، فـإن أبـرز مـا نقلـه صـلاح الـدين مـن الـنظم الأتابكية والسلجوقية السالفة، يتمثل في بنيـة الدولـة الإسلامية ذات الطـابع الجهادي ، وإن أضاف القليل عليها ، فإنه يُعتبر قد نجح في الحفاظ على أنماط كثيرة من تلك التقاليد. وجهة نظر تستند على طرح البحاثة رنسيمان؛ حـول أزمـة المسـلمين بالعصـر الوسـيط ، والتـي كانـت تتمثـل فـي غيـاب المؤسسـات المسـتديمة؛ للمضـي قـدماً بأجنـدة النظـام السياسـي فـي الشـأن الخـارجي، خصوصـاً في النضال ضد الفرنجـة [3]. والثابـت هو أن خلفاء صلاح الدين لم يحافظوا على ذلك الموروث السياسي والإداري، من النظم،

---

[1] Varney, Allen, The Crusades Campaign Source Book , p.13 .

[2] هاملتون ، صلاح الدين الأيوبي ، ص 185.

[3] ستيفين رنسيمان ، الحروب الصليبية ، تعريب ، نور الدين خليل ، (د.ت) ، الإسكندرية ، 1998م، ج3، ص 120.

ولم يتبعوا ذاك النمط في العلاقات مع الصليبيين، وأكثر من ذلك ، فإنهم انغمسوا جميعا في نزاعات داخلية أدت إلى تفتت المؤسسات الأيوبية ، التي كانت كما تركها صلاح الدين ؛ ظاهرية التماسك أصلاً، بناءً على ما أثبتته التطورات اللاحقة، حول تطاحن القوى الإسلامية، و بالتالي انحلال الدولة الأيوبية . وعلى هذا الأساس فإن قاسم وآخرون من مختصي العلاقات ، يعتقدون في هذا الخصوص أن النظام السياسي بدولة صلاح الدين؛ لم يكن به نظام توريث، كي يشد من عود الدولة الأيوبية الناشئة، خصوصاً وأنها دولة يمكن اعتبارها (فدرالية) أي مقسمة إلى أقاليم ، سمتها الحقيقية أنها مفككة، ومرتبطة ارتباطاً مؤقتاً ، باستمرارية النظام الحاكم، الذي مثله صلاح الدين، بمهاراته الدبلوماسية والعسكرية والقيادية، على حد سواء [1].

ثانياً :- مجلسيّ الشورى والعدل ودورهما في بنية الدولة والجهاد :

في نظام الحكم الصلاحي ثمة اجتماعات تُعقد بين رأس الدولة، وجهازه السياسي والإداري والعسكري ، المجلس يعرف كما يشير ابن شداد؛ بمجلس الشورى ، هو أشبه بهيئة إدارية استشارية، الأغلبية فيه هي من يصنع القرار، وأغلب الشؤون التي يتم تداولها، تبدو في الغالب جهادية و ذات خصائص عسكرية؛ ذكر قاضي العسكر؛ ابن شداد؛ ما يفيد بأنه خلال اقتراب صليبيّي الحملة الثالثة من حدود القدس ، كان السلطان صلاح الدين قد عقد اجتماعاً طارئاً ، تحدث فيه عن بقائه لحراسة القدس؛

---

[1] قاسم قاسم ، وآخرون ، الأيوبيون والمماليك ، مركز عين للدراسات ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 83 .

في كتيبة من الجند، فيما تنطلق بقية الكتائب لأداء مهام أخرى، فـ" أصر الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه فإنها مخاطرة بالإسلام ... وانفصل مجلس المشورة على ذلك" [1]. النقاشات كانت تدور بعد أن يعرض السلطان الأيوبي وجهة نظره أولاً ، في حضرة أهل الرأي والمشورة ، ثم يطلب آراء الحاضرين من صناع القرار، وكان يدعو إلى أن تكون الآراء صريحة ، مباشرة ، وغير ملتوية ، حيث ينوّه كما يذكر كاتبه العماد ، بذالك قائلا : " ليُشر كل منكم برأيه ، ولا يُقدم على قول ، ورأيه من خلفه ..." [2].

ثمة شواهد عديدة ، وحوادث بالغة الأهمية؛ صُنعت مراحلها داخل أروقة المجلس الشوري، ففتح بيت المقدس ذاته ثم بعد دراسة العرض الصليبي، مقابل رفع الحصار، عن المدينة، و من خلال اجتماع تشاوري ، تمت الموافقة بالإجماع ،على ذاك العرض [*] والذي تمثل في طلب الأمان مقابل إطلاق صراح خمسة آلاف مسلم ، وعدم تخريب المسجد الأقصى، حيث " عقد السلطان محضراً للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم في الأمر وحاورهم في السر والجهر ... وفاوضهم في المصالحة المربحة " [3]. حيث " أستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على إجابتهم إلى الأمان" [4]. فيما سعى خلال حصار الفرنجة لمدينة

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ص 10-11.

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 175.

[*] لمزيد من التفاصيل عن مراحل تسليم القدس، ينظر، تاريخ القدس، عارف العارف ، دار المعارف ، القاهرة، ط2 ، 1994 ، ص 78.

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 71.

[4] ابن العبري ، مختصر الدول ، ص 385.

عكا، إلى إمداد البلاد الساحلية ، بالميرة والمدد ، ولانجاز ذلك " شاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق ، ففعلوا ذلك " [1].

النقاشات والجلسات التشاورية ، لم تكن مقتصرة على الشؤون السياسية والعسكرية/الجهادية فحسب ، إنما كانت تطال كافة مرافق ومؤسسات الدولة ، نجد ذلك خلال تولية الأمير عز الدين جرديك؛ شؤون ولاية القدس ، والذي كان كما يقول المؤرخ المصري ابن الفرات " من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين الشهيد، ثم خدم السلطان صلاح الدين ..." [2]. وفي الواقع كان صلاح الدين يحاول ضمنياً استيعاب ما يمكن استيعابه من طاقات وكفاءات الدولة النورية المنحلة ، لذلك استشار شقيقه العادل، وابنه البكر الظاهر، إلى جانب مجموعة من كبار الفقهاء والقضاة ، حول أمر تكليف الأمير جرديك ، وقد ذكر قاضي قضاة العسكر؛ ابن شداد – والذي كان معنياً بعقد تكليفه والاشتراط عليه بالأمانة، وحسن الموضع – أن المعنى بالأمر كان قد " أشار به أهل الدين والصلاح – أي الفقهاء والقضاة والعلماء – لأنه كان كثير الجد والخدمة، والحفظ لأهل الخير ، فأمرني السلطان أن أوليه ذلك ، يوم الجمعة " [3].

من جهة أخرى كانت توسعات الدولة الأيوبية في جهات الموصل وما بين النهرين ، تتم وفق توجيهات الأمراء الإقطاعيين ، فالثابت هو أن مظفر الدين كوكبوري؛ وهو أحد الأمراء الإقطاعيين الأتراك؛ باربل ،

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 43.

[2] ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج4 ، ص 102.

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 231.

إلى جانب ناصر الدين شيروكوه، وهو من الأمراء الإقطاعيين الأيوبيين؛ على حمص وأعمالها؛ هما من أشار على صلاح الدين الأيوبي؛ بضرورة إخضاع أتابكية الموصل ، بعد ضم نصيبين [*] ، سنة(578هـ / 1182م) [1].

وثمة مواضع عديدة تم خلالها عقد جلسات تشاورية بين السلطان، وأرباب مشورته ، أبرزها كانت خلال حصار الجيش الأيوبي لمدينة صور؛ الواقعة تحت الحكم اللاتيني سنة(583هـ / 1187م) ، حيث وقف الشتاء القاسي حائلاً دون نجاعة عمليات الحصار ، فعُقد اجتماعاً اتفقت خلاله " الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء ويستريح الجند " [2] ، كذلك في شأن مدينة عسقلان الواقعة على التخوم المصرية الفلسطينية؛ والتي كانت هدفاً من أهداف الحملة الصليبية الثالثة ، حيث جمع صلاح الدين " أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها؛ للعجز عن حفظها " [3]، فيما حصل إجماع قبيل موقعة مرج عكا (585هـ / 1189م) على أن يكون موعد خروج الجيش للجهاد ضد الصليبيين؛ يوم جمعة ، وقال العماد الأصفهاني: " اتفقت الآراء ، وأجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة، عند قبول الدعوات المرتفعة ..." [4]. إلى جانب أن

---

[*] نصيبين ، بلد في العراق يبعد عن الموصل أحد وعشرون ميلاً ، للمزيد ينظر كتاب؛ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف محمد الإدريسي، إصدار منظمة اليونسكو ، (د.م) ، 1996 ، ص 21 .

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10، ص 114 .

[2] أبو الدم الحموي، التاريخ المظفري ، ج21، ص 266.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 162.

[4] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 162.

الهدنة الشهيرة [*] ، التي كانت قد أبرمت مع صليبيّي أنطاكية؛ سنة (584هـ / 1188م) ، بعد فتح الساحل، و التي أدت إلى تطبيع العلاقات بشكل مؤقت مع الصليبيين؛ كانت قد تمت بعد إقرار أرباب المشورة ؛ بسخاء العرض الصليبي ، والذي كان يتمثل في إطلاق سراح الأسرى المسلمين، مواطنين مدنيين ورجال عسكريين، إلى جانب التعهد التام بعدم الاعتداء على رعايا المسلمين مدة عشر سنوات [1].

من جانب آخر عرف النظام الصلاحي ، مجلساً للعدل بالدولة ، كان مقره بدمشق ، يأتيه السلطان الأيوبي من وقت إلى آخر ، حسب مقتضيات الظروف ، وفيه يتم النظر في شكاوى الرعية [2]. ويتحدث ابن شداد عن ذلك قائلاً: " وكان يجلس للعدل من كل يوم اثنين وخميس؛ في مجلس عام؛ يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين، حتى يصل إليه كل أحدٍ، من كبير وصغير ..." [3]. ويضيف ابن تغرى بردى؛ بان الناس كانوا " يهرعون إليه من كل صوب، ويفدّون عليه من كل جانب، وهو لا يُخّيب قاصداً " [4].

---

[*] الهدنة التي أبرمها صناع القرار في الجانب الأيوبي مع سفراء بوهيمند الثالث- الحاكم النورماني لأنطاكية- كادت أن تؤدي إلى فتح الإمارة نفسها بعد اجتياح الجيش الأيوبي للحصون الرئيسية التابعة لها في الشمال، غير أن رغبة أقسام كبيرة من الجيش الإسلامي؛ في إنهاء القتال؛ سببت في تخفيض الضغط على مصير الإمارة الصليبية الثانية، للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع؛ ينظر كتاب، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، حسين عطية ، المعرفة الجامعية ، أسكندرية ، 1989، ص 218 .

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10، ص 175 .

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 149.

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 13.

[4] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 15.

أمّا الرحالة ابن جبير – والذي كان قد أقام فترة في مصر والشام، على عهد صلاح الدين – فلقد أطلعنا على أن الأخير كان لا يتدخل في شؤون القضاة بدار العدل ، وأنه كان يحترم قراراتهم وآرائهم ، ويتعهد من جهته؛ بتنفيذها ، وأنه لطالما كان يردد في دار العدل : " للمسلمين قاضٍ يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ... فالحق يُقضى لك أو عليك " [1]. وأكثر من ذلك فان صلاح الدين شخصياً؛ كان خاضعاً للقضاء، فكان العرف والقانون يسري عليه، كما يسري على غيره؛ ويذكر ابن شداد أن أحد تجار الشام، رفع دعوة ضد السلطان صلاح الدين ، وان الأخير مَثُل للقضاء في دار العدل ، بعد أن دخل عليه خصمه؛ حيث قال له من جملة ما قال: " هذا بساط العدل، وقد سمعنا انك لا تحابي " [2]. و تجدر الإشارة أنه بعد دخول الأيوبيين الشام ؛ عام(570هـ / 1174م) ، بادر صلاح الدين إلى إلغاء المكوس، والضرائب ، التي استحدثت بعد وفاة الملك العادل؛ نور الدين محمود ، كما " أقام الحدود ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر " [3]. والواقع أن صلاح الدين كان فعلاً، حريصاً على نشر وتطبيق العدل ، بين أرباب دولته ومواطنيه، وإنهاء حالات الجور والقمع ، السياسيين ؛ و لقد جاء في كتاب الروضتين أنه بعد قيام صلاح الدين بضم مدينة آمد، خلال تواجده في مناطق ما بين النهرين ، حيث كان قد ولى الأمير نور الدين بن قرا أرسلان ، وهو أحد الحكام التركمان بحصن كيفا ، فأجلسه في دار الأمارة حاكماً على المدينة ، وحلّفه " على

---

[1] ابن جبير ، رحلته ، ص 271.

[2] للمزيد من التفاصيل حول هذه الدعوة ؛ التي رفعها أحد التجار ضد صلاح الدين، بخصوص ملكية أحد المماليك؛ يراجع ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص 13.

[3] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 501.

أن يظهر بها العدل ، ويقمع الجور ويكون سامعاً مطيعاً للسلطان " [1]. والأمر كان مماثلاً تقريباً، عندما تم دخول قرية البوازيج [*] ، حيث بادر صلاح الدين إلى إقرار العدالة هناك ، فراسل ولاته و " نوابه ، ورتب فيها لإقامة سنن العدل والإحسان ... " [2].

وبالنسبة للوزير المصري ابن مماتي[*] فإنه تحدث عن أن النظام الصلاحي نشر العدالة، و أنهى الفساد الإداري داخل مؤسسات الدولة، وأن الدولة الصلاحية " أزالت ، المظالم ورفعتها ، وأزاحت المكاره ومنعتها ، وحسمت مواد الفساد، وقطعتها " [3]. ويعرض العماد الكاتب رأيه؛ وهو متولي ديوان الإنشاء في دمشق، عن دولة صلاح الدين قائلاً : " رفعت معالم العدل والعلم، وخضعت دعائم الجهل والظلم " [4]، أما القاضي الفاضل، رئيس ديوان الإنشاء المصري، فقد وجه كلمته إلى أهل مكة المكرمة عن صلاح الدين ذاته؛ حيث قال : " أمن أهل الإسلام بعدله ، من جور الدهر وحيفه " [5]. ومن وجهة نظر غربية لا تختلف تقريباً عما

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 102.

[*] البوازيج ، قرية صغيرة غير مشهورة، تقع قرب مدينة تكريت بالعراق، على نهر الزاب الأسفل في دجلة، وهي من أعمال مدينة الموصل العراقية، ينظر ؛ الحموي ، معجم البلدان، ج1 ، ص 503.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 153 .

[*] الأسعد الوزير بن الخطير بن مماتي؛ يعتبر أحد كبار موظفي دولة صلاح الدين، أسلمت عائلته القبطية أواخر العهد الفاطمي على عهد الوزير شيروكوه بن أيوب في مصر، تولى إدارة ديوان بيت مال المسلمين هناك على عهد صلاح الدين، وألف ابن مماتي كتابه الشهير عن الدواوين في آخر العهد الصلاحي، للمزيد ينظر ؛ كتاب قوانيين الدواوين، ابن مماتي، ص ص 5–44 .

[3] المصدر نفسه ، ص 52.

[4] الأصفهاني، خريدة القصر ، ج 4 ، ص 209 .

[5] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 47.

ذكر آنفا؛ فإن صلاح الدين بصفته حاكماً على الجميع؛ كان وكما يقول رنسيمان؛ يتسم بكونه منصفاً ومتسامحاً [1].

علاوة على ذلك يمكن ملاحظة أن العدالة الأيوبية؛ كانت تطال الجميع تقريباً، بدءاً من سوقية الرعية و وصولاً إلى أكابر أمراء الدولة ، فإن هنالك شواهد تفيد بأن صلاح الدين؛ كان قد طبق العدالة حتى على المقدمين والمقربين من أكابر وأمراء دولته؛ إذ يشير صاحب النوادر السلطانية إلى أن صلاح الدين؛ كان قد أوقف والي نابلس؛ سيف الدين المشطوب، خلال زيارته للمدينة عندما " لقيه خلق عظيم؛ يستغيثون من المشطوب ويتضررون من سوء رعايته لهم ، فأقام بكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت " [2].

كما عزل الأمير أبا الهيجاء السمين – وهو أحد كبار الأمراء الأكراد – عن إمارة البلد عندما " شكا أهل نصيبين ..." [3]. إضافة إلى استدعائه ابن أخيه الأمير تقي الدين عمر؛ إلى مجلس الحكم بدمشق ، بعد أن اشتكى منه أحد المواطنين، فاستدعاه السلطان " إلى مجلس الحكم، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يحابه في الحق " [4]

كما تجدر الإشارة إلى أن مجلس العدل في دمشق؛ كان قد أُسس في عهد الملك الذي تصفه المصادر بالعادل؛ وهو نور الدين محمود ، صاحب الدولة النورية في الشام، المجلس أُسس كمؤسسة قضائية؛ لتطبيق العدالة ضد المتطاولين من الأمراء وقادة الجيش، على الرعية في الشام ،

---

[1] رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ج 3 ، 119 .

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 231.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 82.

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 13.

وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير " كان الملك العادل نور الدين رضي الله عنه ، أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل "[1] ويضيف ابن الجوزي؛ بأن الأمير أسد الدين شيروكوه؛ وهو أحد أبرز قادة الدولة النورية، إلى جانب أعوانه من أمراء الجند، كان أكثر الأمراء تطاولاً على الرعية[2] .

ويرى أحد الباحثين؛ أن محاكم العدل التي أنشأها نور الدين ، كانت قد ساهمت في كبح جماح الطغاة من الأمراء والقادة المتسلطين على الرعية والأجناد[3]. والواقع أن صلاح الدين نقل نظام العدالة القائم في دولته؛ من مؤسسات الدولة الأتابكية ذاتها بعد انحلالها، غير أنه لا ينبغي علينا النظر إلى النظام الأيوبي، الصلاحي، على أنه نظام نزيه وعادل تماماً، وعلى درجة عالية من المثالية؛ فثمة واقعة ذكرها ابن الأثير، تشير و بجلاء إلى أن صلاح الدين بصفته سلطاناً، لم يكن في أول عهده، مهتماً بإقرار العدالة والمساواة بين جميع مواطنيه، ورغم احتواء الواقعة التي سنأتي على ذكرها؛ على جانباً (فلكّلوريا) – أي واقعة روائية وفق الأدبيات الشعبية – إلا أنها تدعو إلى التفكير وبوضوح، في أن صلاح الدين كان قد انتهج نظام العدالة، بعد تأثره شخصياً بسيرة نور الدين محمود، حاكم الدولة الأتابكية النورية في الشام . الحادثة حصلت مع أحد المواطنين الشاميين، كان قد تعرض لاعتداء، من بعض أمراء الجند، حيث تم نهب ماله. السلطان الأيوبي، لم يُعر الأمر اهتماماً في بادئ الأمر؛ فأخذ الرجل

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 168.

[2] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 309.

[3] محمود عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ، المعرفة الجامعية ، السويس ، 2000 ، ص 117.

يستغيث ويبكي عند قبر نور الدين . صلاح الدين بادر متأخراً إلى إيقاف أمرائه، فرد له ماله " وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين ما يبكيك! وقد أنصفناك؟ ، فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته!! "[1] أو في قراءة أخرى وكما ورد لدى سبط بن الجوزي " قال إنما أبكي على ملكٍ انتصفت ببركاته بعد موته! ..." [2]. الملاحظ هنا أن صلاح الدين رد بما يفيد بصحة الطرح المشار إليه سابقاً، حول استمرار (ديناميـة) البنية النورية داخل مؤسسات الدولة الصلاحية نفسها، وأكثر من ذلك، فأن ابن الأثير يستطرد في موضع آخر؛ جانباً من تصريح صلاح الدين في دار العدل؛ عن تأثره بسياسات وتوجهات الدولة النورية المنحلة، بما يدعو إلى اعترافه بنظم/ تعاليم، نور الدين، قائلا : " فقال صلاح الدين : وهذا الحق ، وكل ما يُرى فينا من عدلٍ ؛ فمنه- يقصد نورالدين- تعلمناه "[3].

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 167.

[2] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 322.

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 167.

المبحث الثاني : أرباب الدولة والنمط (الإيديولوجي) في بنية النظام الأيوبي :-

أولاً : أرباب الدولة /مستشار السلطان- نوابه و أمرائه/ كبار الموظفين، قادة الجيش ومقدمي المماليك ودورهم السياسي والإداري والجهادي:

يُعتبر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ أحد المسلمين القلائل؛ الذين بلغوا شهرةً واسعة في الغرب، كما ترى زوي اولدينبورغ [1]. وقد كان يختار أرباب دولته بعناية جلية ، مستنداً على الدعوة إلى الرشاد والسداد ، والنهي عن الفساد، حيث يشير أبو شامة إلي أن " كل مماليكه وخواصه ، بل أمراؤه وأجناده؛ أعف من الزُهاد والعُباد " [2].

1- مستشار السلطان :

يعد القاضي الفاضل؛ عبد الرحيم البيساني ، من أحد كبار أرباب الدولة الصلاحية، والمستشار العربي الأبرز بها، تم إعطاء كنية الفاضل له كما تقول فارني ؛ نتيجة لموهبته ، ودلالةً على التوقير والاحترام [3]، وقد ذكر سبط بن الجوزي أنه كان " حاكماً على الجميع ، وهو المُشار إليه بالسيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولا يمضي في الأمور

---

(1) Oldenbourg, The Crusades, p 376 .

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 222.

(3) Varney, The Crusades Source book , p 20.

إلا بمضائه " [1]. كما كان له دور كبير، في توجيه صلاح الدين نحو توحيد القوى الإسلامية ، ولم شمل العساكر، فلقد دعا إلى ضم القوات الزنكية التابعة لعماد الدين زنكي الحفيد؛ بحلب، قائلاً : " ويكون عساكره إلى عساكرنا مضافةً، ونتمثل قوله سبحانه وتعالي " [2] : " وقَاتلِوُا اْلمُشرِكِين كاَفّةَ كَمَا يُقَتلِوُنكُم كَافَةّ " [3]. كما اعتبر أن ضم مملكة حلب الزنكية إجراء ضرورياً يخدم الجهاد الإسلامي ، ومعللاً ذلك بالقول : " لأن مرادنا من البلاد رجالها، لا أموالها ، وزهرتها، لا شوكتها ، ومناظرتها للعدو ، لا نظرتها، وأن تُعظّم في العدو الكافر؛ نكايتها " [4].

ويشيد ابن كثير بجهود القاضي الفاضل في التخطيط الجهادي، وفتح البلدان مع السلطان صلاح الدين، " هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه " [5]. كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن تقسيمات الدولة الأيوبية؛ وفق أقاليم (فدرالية) نصف مستقلة؛ بين الأمراء المستقلين أساساً، والقادة الأيوبيين، والذي تم العمل به مباشرة بُعيد وفاة صلاح الدين، كان وكما يخبرنا ابن تغرى بردى؛ بتوجيه و" برأي القاضي الفاضل؛ فأعطى مصر ولده العزيز عثمان، والشام لولده الأفضل، وحلب لولده الظاهر، وأعطى أخاه العادل أبا بكر؛ أقطاعات كثيرة بمصر، وجعله أتابك العزيز، وأعطى لابن أخيه تقي الدين؛ حماة والمعرة ومنبج، وأضاف إليه ميافارقين " [6]. وأجمالاً يمكن القول، أن أقرب مستشاري صلاح الدين إليه، كان أعلمهم

---

(1) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 434

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 105.

(1) القرآن الكريم ، سورة التوبة ، آية 36.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ،ج3، ص 105.

(3) ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 699.

(4) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج 6 ، ص 103 .

بالله [1]. وأكثرهم كفاءةً وتنظيراً، وتلك هي بالضبط، كانت أهم الخصائص الشخصية، في القاضي الفاضل .

2- **نواب السلطان :**

كان في دولة صلاح الدين عدد من النواب، على الأقاليم الرئيسية في الدولة؛ أبرز أولئك النواب كان نائب إقليم مصر؛ سيف الدين أبوبكر، شقيق صلاح الدين ، الذي كان كما يشير الدواداري " ينوب عن أخيه السلطان بالديار المصرية؛ إذا غاب السلطان في أسفاره " [2] . ذكر أبو شامة ، أن السلطان كان " يعظم الملك العادل ويعمل برأيه في جميع أموره، ويتيمن بمشورته " [3]، كما أنه كان لا يخالفه في اقتراحاته ، ويذكر أنه متى جمع صلاح الدين أرباب دولته للتشاور، كان يركز على سماع رأي العادل ، وأن كان غير موجود " لا يقطع رأياً في المهمات حتى يكاتبه بجلية الأحوال؛ ثم يسمع رأيه فيها " [4].

يُشار إلى أن النائب غالباً؛ ما يقوم بأداء مهام أساسية في غياب السلطان ، فيذكر المقريزي؛ أن النائب يجلس للأمراء والرعية، ويسمع الشكاوى، ويفصل في الخلافات وغيرها؛ والسلطان لا يقوم بهذه المهام " تعويلاً على قيام النائب بهذا الأمر" [5] ؛ ويضيف القلقشندى بأن النائب رتبته تخوله تحريك حتى الجيش، دون الرجوع إلى أمر السلطان، إلى

---

(1) محمود شلبي ، حياة صلاح الدين ، دار الجيل ، لبنان ، ط3 ، 1989، ص 160.

(6) ابن أيبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ج 7، ص 58.

(1) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 124.

(2) المصدر نفسه، ج3 ، ص 124.

(5) المقريزي، الخطط ، ج3 ، ص 68.

جانب صلاحيات التعيين الوظيفي في أجهزة الدولة ، " وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير " [1] .

وفي واقع الأمر تُعد نيابة السلطان وظيفة مستحدثة في مصر والشام؛ اللتان كان النظام النيابي فيهما وزارياً/ فاطمياً، وأتابكياً/سلجوقياً. فالوظيفة النيابية؛ أُستحدثت من قبل صلاح الدين شخصياً، بسبب كثرة تغيبه عن البلاد، وانشغاله بالحروب والفتوحات ضد الصليبيين ، كما تنوه إحدى الباحثات؛ إلى أن هذه الوظيفة كانت قد استمرت طوال العهدين؛ الأيوبي والمملوكي في مصر والشام [2]. ومن جانب آخر؛ يعتبر سيف الدين العادل ، النائب الأول للسلطان، والحاكم الثاني في الدولة ؛ نجد ذلك في أحد الكتب الفاضلية حول العادل، يظهر فيه الأخير إلى جانب صلاح الدين بمثابة " ملكان همامان " [3] كما إن العادل في الواقع هو من " قام بضبط الأمور وسياسة الجمهور " [4] خلال مرض صلاح الدين الشديد، سنة (581هـ/1185م)، إلى جانب تصديه وترأسّه بكل دبلوماسية ومرونة؛ لإدارة المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد؛ وصليبيّي الحملة الثالثة [5] .

بقي من الأقطار الأخرى التي تقع تحت الحكم الأيوبي المباشر؛ الشام، واليمن التي تدخل في نيابة توران شاه ، أكبر أشقاء صلاح الدين ،

---

[1] القلقشندى ، المصدر السابق ، ج4، ص 17 .

[2] غنيم ، الدولة الأيوبية والصليبيون ، ص 135.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 124.

[4] المصدر نفسه ، ج3 ، ص 155.

[3] O,Neal , The Crusades Almanac , p 199 .

وكان الأخير قد أرسله لضم البلد هناك ، فـ" ملكها ثم أستتاب فيها " [1] ، أما الشام فهي في نيابة عز الدين فرخ شاه ، أحد النواب الشبان، من بني أيوب ، " وكان عاقلاً حازماً ..." [2]

3- الأمـــــراء :

من الأمراء الأكابر في دولة صلاح الدين؛ يظهر الأمير، سيف الدين علي بن أحمد ، الشهير بالمشطوب؛ نتيجة لشطب بسيف في وجهه، أسهم في دخول قوات نور الدين محمود إلى مصر ، " ثم صار من أكابر أمراء صلاح الدين " [3]، وهو من الأمراء الذين يتمركزون مع " غيرهم من الأمراء الأكراد؛ في قلب الحلقة السلطانية " [4] ، التي كانت تضم خواص السلطان وحرسه ومساعديه وكبار قادته . والواقع أن صلاح الدين كان قد استوعب كفاءات الدولة الأتابكية المنحلة في الشام، فإلى جانب الأمير المشطوب، الذي كانت له تجربة في المناصب القيادية بالدولة النورية ، يظهر أيضاً الأمير جرديك النوري ، الذي وصفه الحنبلي بأنه " أحد أكابر أمراء الدولتين النورية والصلاحية؛ حضر جميع الفتوحات " [5]. والي جانب هؤلاء ثمة أفراد من الأمراء الأيوبيين متوسطي الأعمار ، أبرزهم الملك المظفر تقي الدين عمر ، صاحب إمارة

---

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 44 .

[2] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10، ص 104 .

[3] ابن كثير ، البداية ، ج16 ، ص 649.

[4] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 129.

[5] الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج6 ، ص 518.

حماه [1] وكان ابناً لأحد أخوة صلاح الدين ، ويمكن اعتباره نموذجاً للارستقراطية العسكرية، ذات النفوذ المتزايد في الدولة الأيوبية، والمعروف عنه أنه كانت لديه قوات خاصة، وصلت نتيجة نزعاته الاستقلالية، حتى تخوم افريقية؛ خلال غزوات أحد قادته المعروف بقراقوش ، ذكره العماد الكاتب في (الخريدة) ، بأنه أحد أبرز الأمراء/ أركان الدولة الصلاحية [2] .

كذلك الأمير بدر الدين دلدرم الياروقي ، وهو في الواقع زعيم عشائر الياروقية التركمان؛ القاطنين في شمال الشام، وضواحي حلب، وقد انتدبه صلاح الدين، للإشراف على استلام مدينة صور سلماً، والواقعة تحت السلطة اللاتينية آنذاك ، ويعتبر بالنسبة لصلاح الدين " من أكابر عظمائه، وأكارم أمراءه ..." [3]. حسام الدين لؤلؤ الأرمني، أحد أمراء المسلمين بمصر ، كان يشغل وظيفتين : مقدماً على الأسطول المصري ، وحاجباً على الديار المصرية ، دعاه ابن كثير، بالأمير الكبير لؤلؤ " أحد الحجاب بالديار المصرية ، كان من أكابر الأمراء في الدولة الصلاحية " [4].

---

[1] زامباور ، معجم الأنساب ، ص 153 .

[2] الأصفهاني ، خريدة القصر ، ج4 ، ص 162.

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 94.

[4] ابن كثير ، البداية ، ج18 ، ص 696.

4- الحاجب / الأستادار / الجاندار :

الحاجب والحجوبية وظيفة ، صاحبها كما يشير الأديب القلقشندى : " يحجب السلطان عن العامة " [1]؛ صلاح الدين كغيره من سلاطين الشرق الإسلامي، كان له حاجب؛ وحاجبه يعرف بـ" الحاجب خليل الهكاري " [2] والذي أستشهد في مصاف عكا (585 هـ/1189م) عندما اخترق صليبيو الحملة الثالثة، جيش صلاح الدين حتى الحلقة السلطانية؛ التي كانت تضم الخواص والأمراء، وكبار الموظفين والحرس[3]. أما أستاداره؛ فهو صارم الدين قايماز النجمي ، متولي الأستادارية كما يذكر ابن كثير في الدولة الصلاحية " وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد " [4]. كأجراء إداري، خلال انتقال السلطة في البلاد، من النظام الفاطمي، إلى النظام الأيوبي ؛ وقد ذكر أبو شامة، بأنه كان أحد طواشية الدولة؛ أي من أصحاب المراكز المرموقة ، حيث شغل الركن الأيمن للجيش الأيوبي، خلال الحملة الصليبية الثالثة [5] - كما ساهم بشكل أساسي؛ في فتح حصن كوكب، التابع للأسبتارية في جهات طبرية [6].

أما الجاندارية؛ فهم حفظة الأرواح، أو الحرس الخاص ، والأمير جاندار هو من يقوم بمرافقة الدخلاء على السلطان ، وأكثر من ذلك؛ فإن كاتب السر وصاحب البريد؛ لا يدخلان على السلطان دون رفقته ، والأمر

---

[1] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 4 ، ص 19.

[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 187.

[3] المصدر نفسه ، ج10 ، ص 187 .

[4] ابن كثير ، البداية ، ج18 ، ص 696.

[5] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 84 .

[6] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 98 .

ذاته ينطبق تقريباً، على باقي الأمراء، وأرباب الدولة ، [1] . وكان سيف الدين طغرل، هو أمير الجاندراية في دولة صلاح الدين ، الذي أسهم حرسه الخمسمائة؛ في حصار حصن صفد الصليبي، وهو أحد حصون الداوية[*] عام (584 هـ/1188م)[2] ، وقد شاركوا أيضاً في فتح مدينة طبرية سنة (583هـ/1187م) كما يذكر العماد الأصفهاني، حيث وقع العديد من الصليبيين في الأسر، العماد الكاتب الذي كان حاضراً بصفته أحد كبار موظفي الدولة، تحدث عن ذلك قائلا : " وأما من أُسر فلم تكف أطناب الخيّم لقيده وشده، ولقد رأيت في حبل واحد؛ ثلاثين وأربعين؛ يقودهم فارس" [3].

5- قادة الجيش ومقدمي المماليك :

بالنسبة لقادة الجيش ، ومقدمي فرق المماليك الخاصة ، يظهر المقدم صارم الدين قايماز النجمي؛ وهو أحد المقدمين البارزين، والقائد العام لقوات الشام في موقعة حطين الشهيرة؛ عام (583هـ / 1187م)[4].

---

[1] القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج 4 ، ص 20.

[*] للمزيد من المعلومات عن دور الحصون الصليبية في الدفاع عن الوجود الصليبي؛ وحمايته في
المشرق؛ ينظر كتاب، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، نبيلة مقامي، مطبعة جامعة القاهرة،
القاهرة، 1994، ص 40 .

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 3.

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 52

[4] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 392.

وأبـو الهيجـاء السميـن " مقـدم الأكـراد "[1] وأحـد كبـار الأعـوان، الـذين شاركوا في توطيد الحكم الأيوبي، في جهات ما بين النهرين[2] . و أسد الدين شيروكوه الحفيد، قائد قوات حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان، أحد القادة العرب في الدولة، وهو أمير إمارة شيزر بالشام، وعماد الدين الأرتقي، وهو أحد القادة التركمان، حاكم قلعة دارا، في ما بين النهرين[3] وأياز الطويل، ضخم الجثة ، و هو من كبار مقدمي فرق المماليك الأتراك الصلاحية ، يذكر ابن الجوزي أنه كان فارساً عظيماً يقاتل بدبوس حديدي؛ يزن عشرة أرطال ، كان يهشم به خصومه من الفرنج ، استشهد في ملحمة عكا سنة (587هـ-1191م) ، " فحزن السلطان عليه ، ودُفن على تلٍ عال "[4].

من جانب آخر، كان السلطان صلاح الدين قد أقحم أبناءه الشبان في سلك الدولة ، فاعتمد عليهم كمعاونين له من ثقاة أهله ، كالملك الأفضل صاحب دمشق ، والملك الظاهر، والظافر، اللذان توليا حكم حلب وبصرى لاحقاً، كما كان يقحمهم أيضاً في صدارة الكتائب، وقيادة الجيوش على ما يذكر الأصفهاني[5]. ومن القادة المقدمين أيضا؛ سنقر الوشاقي؛ مقدم فرق الأسدية، وهو " من الأسدية الأكابر ومقدمي

---

[1] الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج6 ، 519.
[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 81.
[3] المصدر نفسه ، ج4 ، ص 71.
[1] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 409.
[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 233.
[3] المصدر نفسه ، ص 266.

العساكر " [1]. وعز الدين إبراهيم بن المقدم، مقدم وقائد في فرقة اليزك المكلفة بالاستطلاع [2] .

بالنسبة للمماليك[*] الناصرية أو الصلاحية/ السلطانية ، والتي تُنسب إلى السلطان صلاح الدين ، فإنها وكما يقول القلقشندى، " أعظم الأجناد شأناً ، وأرفعهم قدراً ، وأشدهم إلى السلطان قرباً ، وأوفرهم إقطاعاً " [3] ، فيما جاء في كتاب الروضتين أن المماليك الأسدية، المنتسبة إلى الأمير أسد الدين شيروكوه – كان أحد أبرز القادة العسكريين بالدولة النورية – هي من الفرق البارزة بالدولة الصلاحية ، وأبرز مقدميها المذكورين في مصاف عكا، أمام الحملة الصليبية الثالثة (585هـ / 1189م)؛ سيف الدين يازكوج ، وأرسلان بغا؛ وهما وباقي المماليك الأسدية الأكراد والأتراك؛ ممن يمتلكون الشجاعة و" يُضرب بهم المثل " [4] . ومن المماليك السلطانية؛ علم الدين كرجي، أمير مقدم في المماليك الناصرية [5] ، وأياز المهراني، وجاولي الغيدي ، وهما " من المماليك الخواص الكبار" [6] ، فيما يظهر بالمماليك الأسدية ، سيف الدين سنقر الدوري، أمير مقدم [7] ، وعز الدين جاولي؛ أحد المقدمين

---

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 160.

(*) المماليك، جمع مملوك، وهو أسم مفعول من مُلك، أي المقتنى مُلكاً، والمماليك هم الذين يتخذهم أساتذتهم جنداً ، للمزيد ينظر؛ محمد الجبرتي ، المختار من تاريخ الجبرتي، اختيار، محمد قنديل ، دار الشعب، القاهرة، ط2، 1993، ص 1051.

(3) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج4 ، ص 15.

(4) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 52.

(5) الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 260.

(6) المصدر نفسه ، ص 293.

(7) المصدر نفسه ، ص 260.

القادة الأسديين ، الذين كانت لهم جهود في النضال ضد الفرنجة و" مقامات في الغزاة، حقيقة بالثناء" [1].

وفي الختام يجدر بنا أن نذكر باقتضاب؛ أن المماليك هم نوع من العبيد، تميز بانخراطه في سلك الجندية ، ولا يُعتبر ذاك الجندي حراً؛ دون صك تسريحٍ من قائده . كما أن بعض المماليك يبقون جنوداً، ولا يتقدمون في رتبهم ، والبعض الآخر يترقي داخل السلم الوظيفي بالدولة ، طبقاً لكفاءته الميدانية ، وفروقاته البدنية، أو مؤهلاته الشخصية ، وثمة أمثلة عديدة على مماليك ترقوا ، و أضحوا أمراء، داخل المؤسسات الإقطاعية الشرقية، ذات النهج العسكري؛ السلجوقي والأتابكي ؛ كقسيم الدين آقسنقر؛ أمير حلب ، و قوام الدولة كربوغا؛ حاكم الموصل، وآخرون [2] غير أن السمة الأساسية لأولئك المماليك/الأمراء، هي أنهم يتمتعون، ونتيجة للارستقراطية العسكرية – والتي سنمر عليها خلال الفصل الرابع، والمتاحة في ظل الإقطاع السلجوقي– بنوع من الاستقلالية، والتوريث الأسرى أحياناً، كما حصل مع الأسرة الزنكية في حلب والموصل؛ والتي كانت أساساً قائمة في خدمة الدولة السلجوقية . وهو ما لم يكن مماثلاً داخل مؤسسات الدولة الأيوبية ، في عهد صلاح الدين على الأقل .

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 159

[6] Varney, The Crusades Source book, p 27.

ثانياً : الاتجاه العقائدي والنمط (الأيديولوجي) في بنية النظام السياسي الصلاحي؛ وأثره على مسار الدولة والجهاد :

شهدت بعض أجزاء المشرق الإسلامي، كمصر والشام، وشمال بلاد فارس؛ فترات ساخنة من التنافر، والعداء الطائفيّين، بين الشيعة والسنة والباطنية، أدت كما هو معروف؛ خلال العقود الأولى من عمر الحروب الصليبية؛ إلى التفتت الديني، و انقسام الصف الإسلامي، وتناقص العلم ، وازدياد التطرف، وكما يشير السخاوي؛ حدث : أن " شاع التشيع ، فقل بها الحديث والسنة " [1].

هذه الأمور دعت إلى القناعة بضرورة لملمة الصف الإسلامي عقائدياً ، بالوقوف خلف قائد مقتدر، يتقد حماسة دينية وإرادة سياسية . صلاح الدين كان من هذا النوع ، وكان ينظر في الاتجاه ذاته ، حيث بادر منذ توليه الحكم؛ بالشروع في إصلاحات داخلية ، والقيام بمحاولات للإدماج الديني؛ دشن من خلالها حملات فكرية للقضاء على المبادئ الشيعية في مصر [2]. ويرى كلود كاهن؛ أن تنمية الأطر السياسية والإدارية والدينية للنظام الصلاحي، أمر يتطلب تماسك الجميع، و وقوفهم خلف قيادة مقتدرة ومتحمسة ؛ على المستوى الفكري والعقائدي، بالإضافة إلى قمع الهرطقة الشيعية بوجه خاص [3]. ناهيك وأن السلطان الأيوبي كان وكما يذكر ابن شداد " شافعي المذهب أصولاً وفروعاً " [4]. لذلك

---

[1] شمس الدين محمد السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، الكتاب العربي ، بيروت ، 1979، ص 138.

[2] Tyerman Christopher, The Crusades Avery Short Introduction, Oxford, GB, 2004, p 61.

[3] كاهن ، الحروب الصليبية ، ص 155 .

[4] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 223.

كانت بنية الدولة تؤسس، وفق أيديولوجية شافعية، سنية، إسلامية ، مع تبني مدارس دينية، تكون أكثر استقامة من المدارس الفاطمية والشيعية، علاوة على ذلك؛ فان النمط(الأيديولوجي) للدولة، كان يتم تحديده من داخل الأوساط (الثيوقراطية)/ المتديّنة، و بدعم من الفئات المتصوفة [1] ، فلقد ذكر العماد الكاتب؛ أن تأسيس المعاهد الدينية، ذات الرسائل المذهبية، والفكرية، يتم بعد جلوس السلطان مع " جلسائه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار" [2].

وتجدر الملاحظة إلى أن أول المدارس الأيوبية، ذات الأهداف الفكرية، و(الأيديولوجية)، كانت قد أسست على الأرجح عند قبر الإمام الشافعي، بالقاهرة ، حيث ولي نظارتها، الفقيه الفارسي، نجم الدين الخبوشاني [3]، والقبة ذاتها تعد " من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً " [4] ، وفضلا عن ذلك، أقيمت عشرات المدارس الشافعية، من قرافة الإمام الشافعي في جنوب البلاد، حتى سوق السلاح [5] .

من جهة أخرى؛ لم يتردد الأمراء الأيوبيون في إزالة كثير من مؤسسات النظام الفاطمي، الشيعي، البغيض في نظر الشافعية . وللوصول إلى فهم ملموس في هذا الصدد؛ يذكر المؤرخ الأيوبي شاهنشاه ، أن صلاح الدين كان قد أمر بتحويل دار الشحنة / الشرطة ، في مصر؛ إلى مدرسة للشافعية . كما بادر إلى عزل القضاة الشيعة ، ورتب عوضاً عنهم

---

(1) Smith, History Of The Crusades, p 228.

(2) الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 82.

(3) ابن كثير ، البداية ، ج16، ص 519.

(4) الشريشي ، مقامات الحريري ، ج3 ، ص 417.

(5) محمد أبو حديد ، صلاح الدين الأيوبي وعصره ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1927، ص 112.

قضاة شافعيين [1] ، ومن المفيد في هذا الشأن أن نذكر، أن رئيس ديوان الإنشاء المصري، القاضي الفاضل؛ يعد من أبرز القضاة الشافعيين، صاحب المدرسة الفاضلية، التي كانت كما يقول المقريزي؛ من أعظم مدارس القاهرة وأجّلها ، وقد تولى نظارتها مجموعة من فقهاء الشافعية والمالكية [2] ، ورغم أن القاضي الفاضل كانت له جهود توجيهية وفكرية؛ حثيثة، في تنقية الشعب المصري من شوائب الفكر الشيعي، غير أن الثابت هو أنه كان من الأقطاب المعتدلة من دعاة الفكر، وقد كان له موقفاً واضحاً من المغالاة والتعصب بين المسلمين ، وقد اعتبره من مخلفات الجاهلية التي قضى الإسلام عليها ، فبخصوص ذلك كان يقول : " لم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ، ويشحنها ، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف، فكيف لأهل الوفاق "[3] ، كما كان يدعو أيضاً إلى منع اعتضاد الفقهاء المتعصّبين، بالأمراء والقادة العسكريين من أرباب السيوف [4] وذلك تحسباً لمنع أية تطورات مسلحة ذات خلفية (أيديولوجية) قد تحدث في مصر أو الشام .

في هذا الجو السياسي، و وسط هذا المناخ الفكري؛ أسهم أرباب دولة صلاح الدين؛ في تأسيس المعاهد الدينية والمدارس والمراكز التي تعزز من (أيديولوجية) الدولة ، وتنشر العلم و الأدب ، والفقه والفكر السنيّين، فالأمير حسام الدين محمد بن لاجين – وهو ابن شقيقة صلاح

---

[1] أبن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 249.

[2] المقريزي ، الخطط ، ج3 ، ص 444.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 131.

[4] المصدر نفسه ، ج4 ، ص 131.

الدين ست الشام – كان قد بنى المدرسة الحدادية بظاهر حلب ، كما أنشأ الأمير عز الدين جرديك ، المدرسة الجردكية بالبلاط ، بظاهر حلب أيضاً، وذلك على الأرجح، لمقاومة التيار الباطني، الذي كانت حلب بمساهمة من الشيعة الحلبيين من أهم مراكزه، ولقد ذكر القاضي أبو الشحنة، بأنه كان أحد القضاة الذين تولوا التدريس بالمدرسة الجردكية [1] ، فيما أشرف الأمير عز الدين فرخ شاه؛ أمير بعلبك، وهو ابن أخ صلاح الدين؛ على بناء مدرسة[*] من مدارس العلم في الشام كما يقول الذهبي، وذلك خلال ولايته على بعلبك [2] ، واشترى شقيقه الأمير تقي الدين عمر، منازل العز في القاهرة، وشرع في تحويلها إلى إحدى كبريات المدارس الشافعية في مصر [3] .

من جهة أخرى فأن النظام الصلاحي، كان قد سعى عملياً إلى مقاومة جذور التشيّع في مصر بالذات ، بعد زوال الخلافة الفاطمية ، وتعزيز الفقه والفكر السنيّين في الدولة الأيوبية الناشئة ، فأُسست المدرسة الناصرية نسبة إلى الملك الناصر، وهي كنية صلاح الدين، كما أسست المدرسية القمحية نسبة إلى حقول القمح التي كانت من حولها؛ كمركزين بارزين لنشر الأفكار السنية، وقد كان أثرهما صاعقاً على المبادئ الشيعية في مصر، حيث أسهمت هذه المراكز المدرسية؛ في إزالة كل ما هو عالق

---

[1] أبو الفضل محمد بن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم ، عبد الله الدرويش ، الكتاب العربي ، دمشق ، 1984 ، ص 117.

[*] للمزيد من التفاصيل عن الحراك المدرسي الأيوبي عهد صلاح الدين؛ ينظر كتاب مدارس دمشق في العصر الأيوبي، حسن شمسياني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م.

[2] الذهبي ، دول الإسلام ، ج2 ، ص85 .

[3] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 249.

في أذهان بعض المصريين من أفكار شيعية متطرفة، أو بغيضة بحسب المفهوم السني[1] ومن أكثر الدلائل وضوحاً على ذلك ، هو ما تطلعنا عليه الوقائع التاريخية سنة (584هـ / 1188م) ، عن ظهور دعوة، كانت قد فشلت قبل أن تبدأ؛ قام بها بعض الشيعة في مصر ، عملاً على محاولة إعادة إحياء الخلافة الفاطمية ، سبب فشلها أنها لم تلق تجاوباً من عامة المصريين ، مما يشير بوضوح إلى سطحية المذهب العلوي، على حياة الناس في مصر ، ورغم أن صلاح الدين كان قد فكر في قمع الدعوة عسكرياً، غير أن مستشاره القاضي الفاضل، نهاه عن ذلك، معتبراً أنها لا تستحق، كل هذا العناء [2] .

ولا يُعرف عما إذا كان يلزم وضع أية اعتبارات (أيديولوجية) أخرى حول بنية الدولة، غير أنه يمكن القول، أن النمط (الأيديولوجي) الذي كان يسري في بنية الدولة الأيوبية الصلاحية الناشئة؛ كان يسير وفق تراتبية شافعية الفرع، سنية المذهب، إسلامية الاتجاهات، جهادية التوجهات . دون أن نغض النظر طبعاً، عن تلك الجهود الحثيثة، التي كانت تُبدل هنا وهناك لمحاربة التشيع في أنحاء متفرقة من مصر والشام، ومقاومة الحركات الباطنية في حلب وجبل لبنان ، التي كان يمثلها الحشاشون والإسماعيلية الباطنيون؛ والذين تدعوهم المصادر بـ " الملاحدة " [3] ناهيك وأن العقلية السنية السائدة في ذاك الوقت، كانت تشير ودون تردد؛ إلى أن: " ضرر الباطنية على فرق المسلمين؛ أعظم من ضرر اليهود

---

[1] عدنان الحارث ، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي ، زهراء الشرق ، القاهرة ، 1999 ، ص 115.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 36.

[3] شمس الدين أبو عبدالله الذهبي ، المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق، خضير المنشداوي، الكتاب العربي، بيروت، 1988م ، ص 61 .

والنصارى والمجوس "[1] ، وربما تمت بعض المداراة لأتباع فرعي؛ المالكية والحنفية، في مصر و الشام ، كما يظهر في تأسيس مدرستي؛ القمحية والجردكية، اللتان سبقت الإشارة إليهما، غير أن الوثائق/ الشواهد المصدرية، في هذا الشأن، تعتبر هزيلة ، ولا تسمح لنا بإثبات أي شيء في هذا الخصوص، سّيما وأن السلطان الأيوبي صلاح الدين، كان قد بادر في حلب إلى عزل القضاة الحنفيين هناك؛ وأبرز القضاة المخلوعين عن القضاء؛ كان والد المؤرخ الحلبي، الشهير؛ كأحد مؤرخي حقبة الحروب الصليبية، كمال الدين ابن العديم ، والذي كان قد عُزل عن قضاء البلاد عام (578هـ/1182م)، بسبب أن الرجل كان حنفياُ، والدولة شافعية[2]. كل ذلك كان يجري وسط قناعة ابن شداد شخصياً، بأن صلاح الدين كان وبشكل عام " مقوٍ لمذهب السنة "[3] .

وإن كان الأمر كما يقول قاضي قضاة الجيش الأيوبي ابن شداد؛ فأن أغلب الظن أن ذالك التوجه العام، كان قد خلق نوعاً من التقارب بين العرب، الأتراك، والأيوبيين الأكراد، فأتاح بالتالي؛ فرصاً غير مسبوقة، في الاندماج السياسي والعقائدي، وربما حتى (السيسيولوجي) / الاجتماعي، بين جميع هذه الفئات، وبالتالي وحدة الصف والرأي بخصوص القضية الإسلامية ضد الصليبيين. يمكن أن نستشف ذلك من خلال أحد الأشعار المصرية، التي ذُكرت بعد دخول الأيوبيين إمارة حلب، مقر الزنكيين

---

[1] عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، تحقيق ، محمد الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة (د.ت) ، ص 247.

[4] عطية ، إمارة أنطاكية والمسلمون ، ص 77.

[5] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 34.

الأتراك في الشام، و أحدى أكبر المدن التي تعج بالأعيان العرب ، وقد وردت في كتاب الروضتين، للشاعر المصري ابن سناء المُلك، والتي جاء في أولها :

بدولة التُرك عُزت دولة العرب   وبابن أيوب ذُلت بيعة الصلب[1].

وبخصوص بيعة الصلب/الصليب، التي ذكرت هنا في هذا البيت من الشعر، تجدر الإشارة إلى أن الاتجاه (الأيديولوجي)/العقائدي في بنية الدولة الصلاحية، ومسارات التصحيح والإصلاح (الثيولوجي)/ العلوم ديني؛ الذي أطلقه صلاح الدين، و بمساندة من الأوساط (الثيوقراطية) / الدينية والمتدينة، الممثلة في القضاة، والفقهاء، والمتصوفة، لم تستهدف الجانب الشيعي فحسب، للتعزيز بالتالي من النفوذ السني في المنطقة، بل شمل أيضاً حتى الجانب المسيحي؛ ففي مصر يتحدث أحد شيوخ الأرمن النصارى، والذي كان معاصراً لدولة صلاح الدين، عن أن المسيحيين الأرمن كانت لهم كنيسة في مصر، تدعى ماري يعقوب ، تعرضت للإغلاق، على يد الأيوبيين، وذلك " لما ملك الغز الأكراد، إقليم مصر ، في شهر ربيع الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، جرى للأرمن ما هو مشهور ، وأبعد البطر يريك الأرمني هو ورهبان الأرمن من هذا الدير " [2] .

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3، ص 106.

[2] الشيخ أبي صلح الأرمني ، أخبار من نواحي مصر وإقطاعها ، المطبعة المدرسية ، أكسفورد ، 1893، ص 3 .

من المرجح أن ذلك الإبعاد؛ كان نتيجة طبيعية؛ من نتائج العداء المستحكم؛ أو شكلاً من أشكاله على الأقل[*] ، بين المسيحيين، والمسلمين ، كما إن مؤرخ بني أيوب، كان قد أشار إلى أنه قد تم تحويل كنيسة صند حنة[*] ، في القدس، إلى مدرسة إسلامية ، وذلك بعد فتح بيت المقدس ، حيث كُلف القاضي بهاء الدين ابن شداد؛ بمهام النظر والتدريس بها [1].

في واقع الأمر، يتعين التنويه؛ إلى أن بناء المدارس ذات الرسائل، والأهداف العقائدية، هو تقليد بنيوي إداري سلجوقي ، يرجع إلى عهد الوزير الفارسي نظام المُلك، وزير السلطان السلجوقي ملكشاه (447هـ – 485هـ) [2] فيُشار إلى انه كان أول من ألحق أسماء المدارس باسمه ، حيث أقيمت المدارس النظامية وفقا لأسم نظام الملك ، ولقد ذكر الحسيني وهو أحد مؤرخى دولة السلاجقة؛ بأن نظام المُلك " بنى المدارس النظاميات في سائر البلاد، العراقيين والخراسان " [3] .

(*) مسارات التصحيح والإقصاء التي قام بها صلاح الدين، كانت نتيجة طبيعية من نتاجات المنافسة والخلاف العقلي والروحي، بين الحضارتين المسيحية والإسلامية في العالم، للمزيد من التصورات حول هذا الموضوع؛ ينظر ؛ الإسلام والمسيحية، إليسكي جورافسكي، تعريب، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 29 .

(*) كنيسة القديسة حنة، كنيسة عتيقة ضخمة مُشيدة في القدس، وقد كان يُقام بها سنوياً احتفالات مهيبة خلال العهد الصليبي، يوحنا فورزبورغ ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين/ مخطوطة تيجيرنسي، تعريب، سعيد البشياوي، الشروق، عمان، 1997، ص 81 .

(1) ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 286.

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج5 ، ص 288.

(3) الحسيني ، زبدة التواريخ، ص 142.

والواقع أن الأمراء والحكام اللاحقين؛ تبنوا نفس النمط من التقليد، فالأتابكة أسسوا الأتابكيات كمدارس، طبقاً لأسمائهم، والملك نور الدين أسس الجامع النوري، على أسمه ، حيث " بنى أيضاً المدارس بحلب وحماة ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية " [1] والتصورات التي تتوفر حول هذا الموضوع، تشير إلى أن الأمراء الأيوبيين، كانوا قد انتهجوا النمط ذاته في تأسيس المدارس ذات الأهداف (أيديولوجية) مستوحاة من النماذج السلجوقية والأتابكية بالذات، حيث تأثر صلاح الدين، بنظم/تعاليم، سلفه نور الدين؛ بقدر ما تأثر الأمراء الأيوبيون عموماً، بالتقاليد الأتابكية في الشام؛ فتبنوها، و ورثوها، كنماذج لإدارة وتوجيه الدولة .

يذكر المؤرخ المدرسي، الشامي، المعروف بالنعيمي، أن صلاح الدين، أسس المدرسة الصلاحية على أسمه ، وهي في الأساس من مدارس الدولة النورية، بالقرب من المارستان النوري، حيث كان " بانيها هو نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، ونُسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين، فاتح بيت المقدس" [2]. ويضيف بأن شقيقه؛ العادل سيف الدين ، أسس بدوره المدرسة العادلية الكبرى، على اسمه ، داخل دمشق، شمال الجامع الأموي ، وقد كانت هي الأخرى من المنشآت المبدئية للدولة الأتابكية في الشام [3] .

---

(1) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 170 .

(2) عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق ، إبراهيم شمس الدين ، الكتب العلمية ، بيروت ، 1990 ، ج1 ، ص 137 .

(3) المصدر نفسه ، ج1 ، ص 149.

من جانب آخر ينبغي التنويه؛ إلى أن تأسيس هذه المدارس والمعاهد الدينية، كان يتم بتأثير من المهاجرين الإيرانيين إلى الشام، و الوجهاء الشاميين في مصر، وكان الأيوبيون وعموم الأكراد؛ مثل أغلب المصريين؛ ينتمون إلى المذهب الشافعي، الأمر الذي كان من شأنه أن يسهّل عملية التقارب بين المصريين والأيوبيين، بيد أن الأتراك كانوا ينتمون إلى المذهب الحنفي، لذلك لم تكن مؤسساتهم مؤثرة (أيديولوجياً) في مصر؛ بالقدر الذي كانت عليه في الشام [1] .

من جانب آخر يتفق بعض الباحثين حول أن صلاح الدين ، كان قد حذا حذو سلفه نور الدين؛ أكثر من بنى المدارس في الشام [2] . وهناك من يرى، أن إدخال الأيوبيين لنظام المدارس – الشافعية والمالكية ذات الفكر العقائدي – في مصر، لم يكن ابتكاراً أيوبياً؛ بقدر ما كان محاكاةً للنظام السلجوقي زمن السلاطين العظام، وأنه عن طريق السلاجقة، انتقل الحراك المدرسي (الأيديولوجي) إلى الشام ، لتعزيز المذهب السني هناك، ومقاومة فروع التشييع ، إلى جانب مراحل التخريج والتحصيل العلمي [3] . تجدر الإشارة إلى أن المهندس الأثري الفرنسي؛ جومار، أحد مؤرخي حملة بونابرت على مصر، ذكر أن المنشآت الدينية التي أسست في عهد صلاح الدين بالقاهرة والفسطاط ، بلغت ثلاث وعشرين مدرسة ،

---

[1] كاهن ، الحروب الصليبية ، ص 229 .

[2] وفاء علي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 58.

[3] سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) ، ص 130.

ولـم يفتـه أن يعتبـر ذلـك؛ إتمامـاً واستكمـالاً " للإصـلاح السنـي الـذي بـدأه السلاجقة ، ثم خلفائهم الزنكيين، والنوريين" [1] في المشرق الإسلامي .

[1] آدم فرنسوا جومار ، وصف مصر ، تعريب ، أيمن سيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 ، ص 31.

الفصل الرابـع

الفقهاء والقضـاة والسفراء والشـعراء؛ دورهم في تأليـف بنيـة الدولـة الأيوبيـة وتـعزيـز الجـهاد ضد الصليبيين

المبحث الأول :- فقهـاء وقضـاة الدولـة

المبحث الثاني :- السـفراء

المبحث الثالث :- شـعراء الجـهاد

المبحث الأول: فقهاء وقضاة الدولة :-

كان الفقهاء والقضاة والسفراء والشعراء؛ هم أبرز الفئات المدنية التي مارست التوجيه السياسي، داخل دولة صلاح الدين، وهي فئات شكلت جزءً من تركيبة الدولة الأيوبية، وبنية النظام السياسي بها، وقد قام السلطان الأيوبي صلاح الدين، بدعم وتقريب جماعات القضاة والفقهاء، باعتبارهم من الفئات المضطلعة والمساهمة في تركيبة الدولة، إدارياً وسياسياً، فعلى صعيد الاجتماع السياسي كان صلاح الدين حسب تقديري؛ يجنى عنهم الدعاية، والتنظير / الإرشاد الديني، من خلال الرأي العام . فألسنة الشيوخ كانت في ذاك الوقت، بمثابة أبواق دعاية دينية، وسياسية قوية جداً، وهو ما يراه أيضاً أحد الباحثين[1] .

فالواقع هو أن الفقهاء والقضاة؛ كانوا – إلى جانب دورهم الوظيفي الديني – أداة مهمة ورئيسية؛ في الدعاية والترويج ما يشبه الإعلامي، لصالح (أجندة)/برامج، النظام السياسي، لذلك تم توظيف واستخدام الشيوخ والقضاة والفقهاء والمتصوفة، في الدعوة إلى تبنّى سياسات صلاح الدين، والإشادة به بين الرعية والرأي العام . أبرز حملات التبني والإشادة تلك؛ تمت وكما يشير بروكلمان، خلال فترات التوسع والجهاد، وكذلك خلال حملات القضاء على آخر بقايا وحطام المذهب الشيعي في مصر[2]

وانطلاقاً من ذلك؛ كان صلاح الدين نصيراً وداعماً قوياً، لفئة القضاة والفقهاء؛ بالمال والإحسان، كما يقول ابن شداد؛ قاضي قضاة عسكره في

---

(1) مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد ، ص 392 .

(2) بروكلمان ، الشعوب الإسلامية ، ص 359 .

ذاك الوقت : حيث " كان يُكرم من يزد عليه من المشايخ، وأرباب العلم والفضل، وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيّم، من المشايخ المعروفين؛ حتى يحضرهم وينالهم من إحسانه " [1] .

أبرز تلك الشواهد عن التحفيز المادي من جانب القيادة الأيوبية، تجاه فئة الفقهاء؛ ما قيل عن أن السلطان الأيوبي صلاح الدين، كان قد منح جميع ممتلكات فرسان هيئة الداوية الصليبية، بفلسطين، إلى رصيد الفقيه عيسى الهكاري [*] – الذي سنتعرض له لاحقاً، باعتباره أبرز فقهاء الدولة – وقد منحه أيضا " كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع " [2]

في سياق غير بعيد؛ فإن صلاح الدين كان كثيراً ما يجالس الفئات النافذة، والنُخبّ المثقفة، من أرباب العلم في الدولة، حيث يذكر أبوشامة أنه كان يناقش العلماء والأتقياء، ويستشيرهم في المسائل الشرعية، والجوانب المؤسساتية، كتأسيس وتأميم الأوقاف[*] على المعاهد/المدارس، الدينية الإسلامية، وحتى المسيحية منها في الأراضي المقدسة، بعد فتح بيت المقدس حيث " وقف عليهما وقوفاً؛ وأسدى بذلك على الطائفتين معروفاً " [3] وكان صلاح الدين، وكما يرى أحد الباحثين أيضاً؛ ميالاً

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 26 .

[*] الفقيه المحقق ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، من كبار فقهاء الهكارية الأكراد في الشرق، كان إماماً مقدماً للأمير الأيوبي أسد الدين شيروكوه، ثم ترقى في عهد صلاح الدين، فصار من أكابر أمراء الدولة الصلاحية، توفي بخيمته مجاهداً ضد الفرنج؛ خلال حصار الأيوبيين والقوى الإسلامية لمدينة عكا الصليبية، للمزيد ينظر كتاب طبقات الشافعية، السبكي، ج 7، ص 255 .

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 55 .

[*] الوقف هو ما يقابل مؤسسة ما؛ للأعمال الخيرية، ويشتمل على الأملاك المحبوسة للمساجد وأعمال البر والخير، للمزيد ينظر كتاب تاريخ الجبرتي، الجبرتي، ص 1052 .

[3] أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 258 .

بوجه خاص، إلى الجماعات الصوفية، إذ كان يستمتع بأحاديثهم وأفكارهم، لا بل أن أحد شيوخهم البارزين؛ ويدعى الشيزري؛ كان قد ألّف لصلاح الدين، مجموعة من التطلعات الدينية والسياسية، في الدين والسياسة، وقد دعا كتابه بـ " المنهج المسلوك في سياسة الملوك "[1] وأكثر من ذلك فإن صلاح الدين، كان قد أهتم بإنشاء الخانقاوات، وزوايا الصوفية، لتلك الجماعات المؤمنة بالأفكار السلمية الهادئة، والهائمة في الاستغراق الذاتي، والتأمل الفكري[2] وهم أداة إضافية في الترويج للسياسات التوسعية للنظام الأيوبي، على حساب القوى الإسلامية الأخرى، والتوجهات الجهادية ضد الفرنجة، وهم فئات مستقلة كما يبدو، لذلك سعت القيادة الأيوبية إلى كسبهم واحتوائهم؛ بدلاً من تهميشهم أو إقصائهم، أو الاصطدام بهم، لذلك تم تأسيس مدرسة لكبار فقهائهم كما يذكر الأصفهاني، وتم منحهم نصف أملاك[*] هيئة الإسبتارية الصليبية في فلسطين، وجعل دورهم محجاً لأصحاب العلم والمعرفة " ووقف نصف دار الأسبتار رباطاً؛ للمتصوفة، وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة "[3] .

وفيما يتعلق بالشخصيات البارزة على مستوى فئة الفقهاء، فان الفقيه الشيخ عيسى الهكاري، يعد أكثرهم نفاذاً وقرباً للنظام السياسي، فهو كما

---

[1] عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، الفكر العربي، القاهرة، 1997 ، ص 85 .

[2] سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك ، ص 107 .

[*] لقد تعمد صلاح الدين مصادرة الأملاك الصليبية، كجزء من التوجه الجهادي في مجال المعمار، وذلك بإزالة كل ما له علاقة بالمؤسسات والثقافة الصليبية في القدس، وتغطيتها بطبوغرافيا جديدة؛ ذات طابع إسلامي متزايد، للمزيد من التفاصيل ينظر؛ القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، كارين أرمسترونغ، تعريب، فاطمة نصر، وآخرون، مطبعة سطور، (د.م) 1998، ص 476 .

[3] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 107 .

يقول ابن خلكان : " كبير القدر وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات " [1] وهو من كان وراء تولية صلاح الدين الأيوبي مقاليد الوزارة في مصر، سنة (564هـ / 1168م) بعد إقناع كبار الأمراء المعارضين في الدولة النورية، بكفاءة صلاح الدين[*] السياسية والعسكرية، كما كان له دور في الدعوة إلى إخضاع وضم أتابكية الموصل الزنكية [2] والدعوة إلى إظهار التسامح مع النصارى، المقيمين في بيت المقدس حسب " القطيعة الجزية " [3] كما كان وسيطاً في الخدمة بين القاضي ابن شداد؛ الذي تولى قضاة العسكر وألّف النوادر السلطانية، وبين السلطان صلاح الدين [4] .

كما كان الفقيه الهكاري يجمع في لباسه بين الزي العسكري، من لباس الأجناد، وبين زيّه المدني، المتمثل في عمامة الفقهاء؛ التي كان يضعها على رأسه [5] وقد كان فيما يبدو، قدوة للكثيرين ممن يقفون خلفه؛ فهو " مقدم القلب " [6] بالجيش، كما يقول ابن شداد.

وإضافة إلى ما سبق؛ فإن القيادة الأيوبية كانت تسعى إلى تعبئة الجيش؛ روحياً و(سيكولوجياً)/ نفسياً، في ميادين القتال، بالاعتماد على

---

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3، ص 497 .

(*) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يراجع نهاية الأرب، النويري، ج 28، ص 238 .

(2) المصدر نفسه ، ج28، ص 257 .

(3) أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 259 .

(4) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 70 .

(5) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3، ص 497 .

(6) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 91 .

نُخب محددة من الفقهاء والعلماء لأداء هذه المهمة؛ فكما تذكر إحدى الباحثات أيضاً؛ فإن جماعة من القراء، كانت تمشي بين صفوف الجند؛ يتلون عليهم آيات الجهاد، ويذكّرونهم بمنزلة وأجر الشهداء في الجنة، ويحذّرونهم من مغبة الفرار من الميدان [1] .

ومن الّلافت للانتباه، أن الفقيه عيسى الهكاري، الذي جمع بين الشجاعة والعلم كما يرى ابن الأثير؛ كان قد تعرّض أيضاً للأسر على يد الصليبيين، في نوبة الرملة التي هُزم فيها الجيش الأيوبي، عام (573هـ / 1177م) [2] ويضيف أبو الدم الحموي، بأن القيادة الأيوبية أفتكت أسره، مع شقيقه ظهير الدين، بعد عامين؛ اثر فدية مالية باهظة، بلغت السبعين ألف دينار [3] .

ومن بين الفقهاء المقربين/المقدمين بالدولة كذلك، نجم الدين الخبوشاني[*] العالم الإيراني الزاهد، الذي أدار المدارس الشافعية في مصر، وتولى الوقف بالديار المصرية فـ" حفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيباً له إلى كل ما يستدعيه " [4] وكان له دور بارز في إزالة النظام الفاطمي العلوي بمصر، من خلال فتوى حاسمة؛ أجاز خلالها

---

[1] صبرة ، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، ص 39 .

[2] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص86 .

[3] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج 21 ، ص 253 .

[*] محمد بن الموفق بن سعيد الخبوشاني، أحد الأئمة الفقهاء الصوفيين الزُهاد، من بلدة خبوشان الفارسية، قدم إلى مصر سنة (565هـ/1169م) وأقام على تربة الإمام الشافعي بهدف عمارتها، وجعلها مقراً لأهل الذكر ومحجاً لطلبة العلم، وكان صلاح الدين الأيوبي حسن العقيدة به، السبكي، طبقات الشافعية، ج 7، ص 14 .

[4] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 301 .

قطع الخطبة الفاطمية، بعد أن " بالغ في الفتيا وصرّح في خطبه؛ بتعديد مساويهم، وسلب عنهم الإيمان ... [1] .

وهناك أيضا الإمام الفقيه، قطب الدين النيسابوري[*] المُعد أحد أبرز العلماء الدينيين بالمشرق في عصره، وقد تولى التدريس في كبريات المعاهد والمدارس الدينية؛ في بلاد فارس والعراق، ثم الشام في وقت لاحق، كما كان مقدماً في دولة صلاح الدين، حتى أن الأخير استعان به في تقويم شخصيته، وتوجيه دولته . والجدير بالذكر أنه عاصر الدولتين؛ النورية والصلاحية، وكان من علماء الشافعية البارزين وقد " تفرّد برئاسة المذهب" [2] .

وفي واقع الأمر ينبغي التنويه إلى أن القيادة الأيوبية؛ كانت قد سارت على نفس النمط الذي سارت عليه الدولة النورية، دولة نور الدين محمود زنكي؛ في تقديم النخبة العلمية المثقفة من فقهاء وقضاة ومتصوفة وغيرهم، وتقريبهم من السلم الهرمي للنظام السياسي الأيوبي؛ فالفقيه الإمام المُناظر، المعروف بقطب الدين النيسابوري، المذكور آنفا كشخصية بارزة عاصرت الدولة النورية السابقة، وإماماً مقدماً في العهد الأيوبي، كانت له

---

[1] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 251.

[*] مسعود محمد بن مسعود أبو المعالي النسيابوري، صاحب كتاب الهادي في الفقه، وإمام الخلاف والتفسير والأصول والتنظير، وُلد في نيسابور ببلاد فارس، وتفقه في إقليم مرو، ثم درّس في نظامية نيسابور، ووعظ ببغداد، كما درّس أيضاً في مدارس حلب ودمشق في العهد النوري، ويعتبر أحد أبرز علماء الإسلام في ذاك العصر؛ للمزيد ينظر؛ كتاب طبقات الشافعية، السبكي، ج 7، ص 297 .

[2] أبوبكر بن أحمد بن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، نسخ وتنسيق، مكتبة مشكاة الإسلامية، www.Almeshkat.Net/Books. ص 64 .

أيضاً مصنفات عقائدية، ألفها كما يقول مؤرخ بني أيوب؛ لصلاح الدين شخصياً، ولبعض أبنائه [1] وقد ذكره المؤرخ الأتابكي ابن الأثير، في تاريخه الباهر عن أتابكة الموصل؛ كأحد القيادات الدينية البارزة؛ التي كانت تقف وراء السلطان نور الدين محمود، في حروبه وفتوحاته، داخل بلاد الفرنجة [2] كما أنه خلال وفاة الشيخ كمال الدين الشهرزوري؛ قاضي قضاة الدولة النورية، الشهير، والذي توفي في العهد الأيوبي، عام (572هـ/1176م) حدث أن خرج الأمراء الأيوبيون، وأرباب الدولة في جنازته، كما يذكر سبط بن الجوزي؛ مشياً على الأقدام " وجميع الملوك مشاة " [3].

أما فيما يخّتص بالقُضـــاة، فان القاضي يعد نائباً – كما يقول الجبرتي – عن السلطان في الأحكام الشرعية؛ لأن " وظيفته أن يحكم بين الناس بالوجه الشرعي، وله الختم والعلامة على جميع التمكينات مثل الحجج والتقارير " [4]. كما يتولى تنفيذ الأحكام والقضايا، والفصل في الخصومات بين الناس، وعليه فتُعدّ وظيفة القاضي؛ وظيفة متميزة ومرموقة، ويعتبرها القلقشندي " أرفع الوظائف الدينية، وأعلاها قدراً وأجلها رتبة " [5].

ومن الجدير بالذكر أن منصب القضاء، كان وكما يذكر ابن خلكان؛ خلال العهد السلجوقي والزنكي بالعراق ومابين النهرين والشام – وراثياً في

---

[1] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 266 .

[2] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 169 .

[3] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج 8 ، ص 341 .

[4] الجبرتي ، تاريخه ، ص 1049 .

[5] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج 4 ، ص 35 .

آل الشـهرزوري[1]. وهـو تقليـد إداري سلجـوقي، كـان سـائداً فـي المشـرق؛ وذلـك نتيجـة لكفـاءة هذه الأسرة فـي مسـائل القضـاء والشرع، باعتبارهـا مـن بيـوت العلـم فـي أعـالي العـراق والشـام، ونبوغهـا أيضـاً فـي الفقـه واللغـة والأصول والخلاف وغير ذلك، غير أن صـلاح الدين، كـان قد بـادر خـلال توليـه مقاليـد السلطنة، بإلغـاء هـذا التقليـد، وذلـك مباشـرة بعد وفـاة قاضـي قضـاة الشـام الشـهير؛ كمـال الـدين الشـهرزوري، حيـث بـادر إلـى تعيـين القـاضـي الموصـلي، شـرف الديـن ابـن عصـرون[*] قاضيـا لقضـاة الشـام [2]. ويعـد ابـن عصـرون مـن كبـار علمـاء الشـافعية بالشـام، كـان وكما يشير الحموي " السبب لعمارة المدارس، واشتهار العلم بالشـام " [3]. أمـا فـي مصـر، فقـد كـان قاضـي قضـاة الديـار المصـرية طـوال العهـد الصلاحـي يدعى؛ القاضـي صـدر الدين أبـي القـاسم عبد الملك المـارداني، والـذي تـولى القضـاء عـام (566هـ/1170م) " فأسـتمر إلـى آخـر الأيـام الناصريـة " [4].

وفـي هذا السياق يمكن القول؛ أن صـلاح الدين كـان داعمـاً قويـاً لفئـة القضاة بالدولة، فاستفاد من تقديمهم على السُلّم الوظيفي، واستخدمهم كأداة

---

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج4، ص 68 .

(*) شرف الدين سعد التميمي الموصلي، قاضي قضاة الشام وعالمها ورئيسها، ويعتبر أحد أعيان الأمة الشافعيين، وأعلامها، له العديد من المصنفات وعديد التلاميذ، وقد أسهم في بناء مدرستين للعلم على حسابه في دمشق وحلب، لأجل نشر العلم بين الناس . السبكي، طبقات الشافعية، ج 7، ص 132-137.

(2) صفية سعادة، من تاريخ بغداد الاجتماعي في الفترتين البويهية والسلجوقية ، أمواج للطباعة، بيروت، 1988، ص 155 .

(3) أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج 21 ، ص 270 .

(4) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 242 .

ناجحة للترويج لسياساته الداخلية، وتأييد توجهاته الجهادية، الإقليمية، والتوسعية الخارجية، وذلك بين الرعية وأمام الرأي العام. محي الدين ابن الزكي؛ وهو أحد القضاة المحليين بدمشق، أنشد في هذا الصدد يقول لصلاح الدين، بعد إخضاع أتابكية حلب، وإلغاء النظام الزنكي بها عام (579هـ/1183م) :

وفتحُكُمَ حلباً بالسيفِ في صفرٍ   مُبشرٌ بفتحِ القدسِ في رجبَ [1].

تجدر الإشارة إلى أن بشارة القاضي ابن الزكي، الذي أوعز لصلاح الدين بفتح القدس، كانت قد وقعت فعلاً بعد أربع سنوات، وفي الشهر المذكور تماماً، أي شهر رجب، وقد اعتبر ابن الأثير؛ أن ذلك كان من الاتفاقات العجيبة، بعد أن " وافق فتح القدس في رجب، سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة "[2] وقد كافأه السلطان الأيوبي؛ بتعّيينه إماماً وخطيباً لبيت المقدس، بعد تمام الفتح في المدينة المقدسة [3].

---

(1) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 256 .

(2) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 122 .

(3) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 271 .

المبحث الثاني: السفراء ودورهم (الديبلوماسي) في الدولة:

إلى جانب القضاة، اهتم النظام الأيوبي بالنخبة الموظفة من السفراء، وبرزت كما يبدو، شخصيات مميزة من سفراء الدولة؛ وهم في أغلب الأحوال من ذوي الخلفية القضائية، فالقاضي المؤرّخ الشهير؛ بهاء الدين ابن شداد، كان سفير الدولة إلى الموصل حيث الإمارة الزنكية بالشرق، وقد أدى دور الوسيط تحت إشراف الخلافة العباسية؛ في فض النزاع السياسي بين السلطتين؛ الأيوبية والزنكية [1] كما كان سفيراً إلى بغداد ذاتها، إلى جانب الموصل وسنجار وأربل، وغيرها من مناطق أعالي العراق ومابين النهرين؛ لإبلاغهم عن خبر حملة الجيش الألماني في الأناضول، [2] والتي كانت جزءاً من خطوات الحملة الصليبية الثالثة بالمشرق .

وعودةً إلى الخلافة العباسية؛ فأن السفير الأيوبي إلى بغداد؛ كان القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وهو ابن قاضي قضاة الشام الشهير؛ الشيخ الفقيه العالم؛ كمال الدين الشهرزوري، وقد كان يقوم بإرسال تشكرات القيادة الأيوبية للمقام العباسي[3]، كما كان يُعبّر باستمرار عن ولاء السلطان صلاح الدين، للخليفة العباسي؛ الإمام الناصر لدين الله، صُحبة مجموعة من " الهدايا والتُحف، والطُرف السنايا، وأسارى الفرنج

---

(1) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 56 .

(2) النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 282 .

(3) أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج 21 ، ص 256 .

الفوارس " [1] أما نقل البشائر والفتوحات، فقد كانت من مهام؛ تاج الدين حامد الأصفهاني، شقيق العماد الكاتب، رئيس الديوان الأيوبي الإنشاء بدمشق، والذي كان " مطلعٌ على الأسرار، مُنتظم في سلك الأولياء الأبرار، مُعولٌ عليه الديوان العزيز فالسفارة، ورد معه جواب البشارة " [2] أما صهره الكاتب، جمال الدين إسماعيل بن عبد كويه، نسيب العماد الأصفهاني ونائبه على شؤون الكتابة، فكان اعتماد " السلطان عليه في الترسّل إلى سلاطين العجم، وخواص الأمراء منهم، والخدم " [3] . ومن جانب أخر، كان لبني مُنقذ، وهم أمراء قلعة شيزر في الشام، دور مهم في أداء مهام ووظائف رئيسية، متميزة، بدولة صلاح الدين الأيوبي؛ ويُعد الأمير شمس الدولة أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ؛ من أبرزهم – إلى جانب الأمير الشاعر أسامة بن منقذ – فقد كان سفيراً إلى الصليبيين بأنطاكية، في الوقت الذي كانت تجري فيه مباحثات، بين السلطان صلاح الدين، والأمير النورماني، بوهيمند الثالث، بشأن عقد هدنة يتم خلالها تبادل الأسرى، وقد أدى السفير؛ شمس الدولة؛ دوراً جيداً في التوصل إلى عقد تفاهم بين الطرفين [4] غير أنه فشل في إقناع سلطان الموحدين في المغرب؛ يعقوب بن عبد المؤمن [*] بضرورة التحالف ومد يد العون، من

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 51 .

[2] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 101 .

[3] أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 171 .

[4] المصدر نفسه ، ج4 ، ص 26 .

[*] أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، المُلقب بالمنصور الموحدي، استقامت البلاد في عهده وعظمت الفتوحات، رفع راية الجهاد ونصب الميزان وبسط الأحكام، استرد عدد من المدن الأندلسية المحتلة، وبث الرعب في قلوب الأسبان، ويعتبر أحد أشهر القادة المغاربة في السياسة والجهاد. امتدت دولته من أطراف برقة شرقاً حتى تخوم الأندلس غرباً . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص ص 3 – 15 .

أجـل صـد الحملــة الصـليبية الثالثــة، [1] وذلــك فــي تقديرنــا راجــع إلــى الحساسيات الناجمة عن غزوة القائد المملوكي؛ قراقـوش التقوي – تلك الغـزوة التـي كنـا قد عرّجنـا عليهـا فيمـا سـبق – لإقـليميّ برقــة وطـرابلس، وشرق أفريقيـة .

المبحث الثالث : شعراء الجهاد ودورهم في تأجيـج الـروح الحماسيـة:-

لـم يكـن السـلطان صـلاح الـدين – وهـو رأس الهـرم فـي نظـام الحكـم الأيـوبي – ينتمـي لأي شـريحة مـن الفئـات المدنيـة، أو العلميـة أو الدينيـة، بالدولة الأيوبية؛ بل كان قائد عسكري، برتبة أسفهسلار، والتـي تقابل اليوم، (جنـرال) أو قائد عـام، غيـر أنـه ورغـم مرجعيتـه الكرديـة، العسكرية، كـان؛ وكما يؤكد سميث؛ مهتماً بالشؤون المدنية، وميـالاً إلـى الأدب العربـي بوجـه خـاص، وبالتقاليـد والقيم العربيـة الشـهيرة، خصوصـا فيمـا يتعلـق بالشجـاعة والكـرم[2] كمـا يتحـدث الأصـفهاني عـن درايتـه ومعرفتـه بالسـير والعـبر، والقصـائد والشوارد، رغم أنـه " لا يقـول الشعـر " [3] ومن هنـا جـاء اهتمـام النظام الأيوبي بالشعراء، والمُدوّنين/الكُتّاب، الذين كان لهم دور في رفع، و

---

[1] أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 111 .

[2] Smith, History Of The Crusades, p, 232 .

[3] الأصفهاني ، خريدة القصر، ج4 ، ص 161 .

تأجيج الروح الحماسية لدى الجند وقادة الجيش، وسائر أمراء وأرباب الدولة .

كان من أبرز الشعراء الفرسان، الذين قام صلاح الدين باستقطابهم إلى دولته؛ الشاعر أسامة بن منقذ [*] الذي استقبله صلاح الدين بنفسه في العاصمة الثانية دمشق – بعد أن كان مقيماً بإمارة حصن كيفا، في ضيافة نور الدين بن قره أرسلان التركماني – وأصطحبه " إلى بابه العالي " [1] وأسامة بن منقذ؛ هو من أمراء إمارة شيزر بالشام، ويُعتبر أحد أهم أدباء الحروب الصليبية، وهو أحد أبرز الشعراء الفرسان العرب، الذين تربطهم علاقات مع عددٍ من أرباب القوى الإسلامية، وإن كانت تربطه علاقات تطبيع وصداقة؛ مع قسم آخر من أمراء وفرسان الفرنجة، [2] كما انه يعد صاحب تصانيف حسنة وعديدة في الأدب، وكما يشير ابن تغرى بردي، فإن صلاح الدين كان ميالاً إلى الشعر الفروسي، لذلك استقدم أسامة بن منقذ؛ الذي أعتبره فارساً، شاعراً، مدبراً، كما كان ضالعاً في الأدب والكتابة، ويحفظ عشرين ألف بيت من الشعر، فكان " صلاح الدين مغرى بشعره " [3] .

---

[*] أسامة أبو المظفر بن مرشد بن منقذ الكناني، من أكابر بني منقذ؛ أصحاب قلعة شيزر، ومن علماءها وشجعانها، كانت تربطه علاقات ببعض الأقطاب الإسلامية في المشرق، وببعض أمراء وفرسان الفرنجة، زار دمشق مراراً في عهودها المختلفة، وزار مصر في أخر العهد الفاطمي، وأقام فترة في إمارة حصن كيفا التركمانية، بديار بكر، حتى استدعاه صلاح الدين إلى القطر الشامي، قُبيل وفاة الأخير بدولته في دمشق، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 1، ص ص195–199 .

[1] ابن منقذ ، كتاب الاعتبار، ص 165 .

[2] عادل زيتون، المجتمع الصليبي في مذكرات أمير عربي، مجلة العربي، الكويت،ع 555، 2005، ص 114.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6 ، ص 107 .

وهكذا كان الشعراء والأدباء، يدعمون الأهداف السياسية والتوجهات الجهادية؛ لدولة صلاح الدين؛ فبعد انتصار الجيش الأيوبي وفتح المسلمين لمدينة بيت المقدس، دخل مجموعة منهم على ما يذكر العماد الكاتب؛ يتلون الإرشادات ويُنشِدون الأشعار، وقد كان " القراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون " [1] كما كتب العماد الكاتب ذاته؛ والذي كان رئيساً لديوان الإنشاء في دمشق؛ شعراً لصلاح الدين بخصوص واقعة الفتح؛ جاء فيه :

نزعت لباس الكُفر عن قدسِ أرضِها   وألبستها الدّين الذي كشف اللّبسا
وعادت ببيتِ اللهِ أحكامُ دينه   فلا بطركا أبقيتَ فيها ولا قسّا [2]

وفيما يخص الحملة الصليبية الثالثة، والتي جاءت كنتيجة متوقعة لسقوط المملكة اللاتينية بالقدس، أنشد الشاعر الدمشقي المولد، المصري النشأة والدار، أبو الحسن بن الساعاتي، بضعة أبيات، أشار فيها إلى تخوف وتردد جنود الإنجليز – أو الإنكتار كما كان يسميهم – من كتائب الجيش الإسلامي؛ ومدح فيها صلاح الدين قائلاً :

فعلت بنا وهي الصديق لحاظُها   كظُبي صلاح الدين في أعدائهِ
سل عنه قلب الإنكتار فإنّ في   خفقانهِ ما شئتَ من أنبائهِ [3]

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 73 .
[2] أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 233 .
[3] أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 192 .

تجدر الإشارة إلى أن حرب الحملة الصليبية الثالثة، كانت قد بلغت من الحدة ما أثارت به حمية الجميع على ما يبدو؛ من نُخبّ عسكرية وسياسية ومدنية، فالرشيد ابن النابلسي، وهو فلسطيني من سكان نابلس كما يدل أسمه، كان قد وضع قصيدة ساخنة خلال حصار الصليبيين لعكا – وهي الفترة التي قام فيها الأيوبيون بتحصين القدس – هاجم فيها الفرنجة، وشتم مهدداً ومتعجباً ، ثم سخر قائلاً :

ويح الفرنجةَ! بل ويل أمّهِم!! أو ما فيهم لبيبٌ على العِلات يعتبر
فكم نثرتهمُ ضرباً إذا انتظموا وكم نظَمتهُمُ طعناً إذا أنتثروا
كم قد سقيتهُم ذُلاً فلا عجبٌ إن عربدُوا سفهاً فالقومُ قد سكِرِوُا
إن يمّموك فلا بِدع لجهلهمُ تسعى إلى الأسدِ في غاباتها الحُمرُ ![1]

أما الشاعر المصري الدار؛ نجم الدين يوسف بن المجاور، فلقد وضع قصيدة خلال المفاوضات التي أجراها الإنجليز مع الملك العادل سيف الدين أبي بكر، شقيق صلاح الدين، وما ترتب عنها من هدنة عُقدت خلال صلح الرملة الشهير، وقد شتم خلالها الإنجليز؛ ونبّه قائلاً :

يا صاحِ قُل للإنكلتير الكلب دع عنك الجنون وخُذ مقالة منصفٍ
القدسُ ما فيه لسرجك مطمعٌ كلا ولا نورُ الإله بمُنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقصّ من وقع الدّبابيسِ الأليمةِ تعرفِ
واستفتِ نفسك فهي أخبثُ ناصحٍ واترك متابعةَ اللّجاج المتلفِ [2]

---

(1) المصدر نفسه ، ج4 ، ص 169 .

(2) أبوشامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 192 .

كان صلاح الدين الأيوبي مُلهم الشعراء في جهاده، مواجهاته، فتوحاته، وقد أدت وفاته المبكرة عام (589هـ / 1193م) بُعيد انسحاب الحملة الصليبية الثالثة، إلى نشاط الرثاء في الأدب، بانعطافه عن الشعر الجهادي/الحماسي، وقد عمل الشعراء مراثي طويلة في شخصه؛ من بينها " مائتان واثنان وثلاثون بيتاً " [1] للعماد الأصفهاني، تحكي سلطانه، وسطوته، وتدينه، وحماسته، وأبرز أعماله الجهادية والعسكرية في الشام والساحل الفلسطيني .

وعلى ضوء ما تقدم، فإن الفصل الخامس من هذه الرسالة؛ سيدرس بشكل خاص الإقطاع الأيوبي؛ خلفياته، أسسه، ثوابته، مزاياه، وعيوبه ومشاكله، والعلاقة بينه وبين الدولة، مع مبادرة أخرى تهدف إلى رصد دور العساكر والنظم الإقطاعية في المشرق، ودورها في تثبيت الدولة وتأليف بنيتها السياسية والإدارية، وأثرها بالتالي في تعبئة الدولة بالجهاد ضد الفرنجة .

---

[1] ابن كثير ، البداية والنهاية، ج16 ، ص 653 .

الفصل الخامس
أسس وخصائص النظام الإقطاعي الأيوبي الشرقي

المبحث الأول :- طبيعة وخصائص الإقطاع الأيوبي وأبرز الأمراء والإمارات الإقطاعية في الشرق

المبحث الثاني :- الإقطاع العائلي الأيوبي ونظام التوريث / ملامحه، مزاياه، عيوبه ومشاكله

المبحث الثالث :- دور وجهود القوى الإقطاعية في تثبيت وتعبئة الدولة الأيوبية بالجهاد ضد الفرنجة

المبحث الأول:- طبيعة وخصائص الإقطاع الأيوبي وأبرز الأمراء والإمارات الإقطاعية في الشرق :

يُعد الإقطاع أحد أهم النظم التي شكلت هوية وبُنية الدولة الأيوبية؛ في عهد صلاح الدين، تختلف ملامحه باختلاف ظروفه، فقد يكون كما يخبرنا صاحب قوانين الدواوين؛ قطعة أرض، مجموعة مزارع، أقطاعات حصون وقلاع، وأعمال وغيرها، وأحياناً حتى أحدى الحواضر والأقاليم الرئيسية في البلاد؛ كل ذلك يتم وفق مواثيق؛ تُعقد بين متسلم الإقطاع، وبين الدولة التي تخوله ذلك، مُدته تتفاوت من إقطاع إلى آخر؛ أحياناً يكون إقطاعاً سنوياً غير مستمر، وأحيانا يكون قابلاً للتمديد، وأحياناً يكون حتى وراثياً، غير أن ابن مماتي لم يفته أن يُشر أيضاً؛ إلى أن صاحب الإقطاع في دولة صلاح الدين، صفته في الغالب هي" جندي مُقطع " [1]، وهي ليست مجرد صفة عابرة، بل في الواقع؛ هي وصف صريح لطبيعة الإقطاع الأيوبي في عهد صلاح الدين، حيث كان إقطاعاً عسكرياً صرفاً، موزعاً بين الأمراء والأجناد، وهو نظام تحركه خلفية إدارية سلجوقية، فالثابت هو أن السلاجقة عهد ما يُعرف بالسلاطين العظام، وهي فترة أشرنا إليها سابقاً، هم أول من مارس الإقطاع العسكري في المشرق الإسلامي، حيث يتحدث المؤرخ الفارسي لسلطنة السلاجقة؛ صدر الدين الحسيني، أن الوزير الفارسي السلجوقي الشهير، نظام المُلك، هو " أول من أقطع الأتراك " [2] . فصار الإقطاع وقتذاك ذا طابع عسكري، يمنح كبديل عن العطاءات النقدية، وكبديل أيضاً عن التزام الدولة بتحديث

---

[1] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 366.

[2] الحسيني ، تاريخ الملوك السلجوقية ، ص 142.

المؤسسة العسكرية، حيث صار هذا الشأن موكلاً على عاتق الأمراء الفرسان والقادة الإقطاعيين، وحدهم دون غيرهم .

في الحقبة الزنكية تم انتهاج نفس النمط من النُظم الإقطاعية، وأكثر من ذلك فإن الأتابك عماد الدين زنكي، منع أمراءه وجنده، حتى من صفة التمليك المدني، دعوة منه إلى الحفاظ على نقاء الإقطاع العسكري؛ من أي تدخلات ذات طابع مدني، حيث كان يُشير لجنده وأمـــراءه الفرسان قائلاً : " البلاد لنا ! فأي حاجة بكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تُغني عنها، فإن خرجت البلاد عن أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها! " [1] . استنادا على ما سبق يمكن القول أن النظام الإقطاعي العسكري، كان قد قام في الدولة السلجوقية ببلاد فارس والعراق، ثم انتقل إلى مؤسسات الدولة الأتابكية بالشام، وعن طريق الأتابكة الزنكيين والنورين، انتقل الإقطاع العسكري؛ من وإلى بنية الدولة الأيوبية الناشئة عهد صلاح الدين [2] .

لكن الملاحظ أن الإقطاع؛ كعطاء بديل نقدي؛ كان يُمارس وفق تراتبية وظيفية بين كبار الأمراء، والقادة العسكريين بالدولة، إذا إنه " في الغالب تقطع للأمراء على قدر درجاتهم " [3] ، وقد يشترك أميرين في إقطاع واحد، وأحياناً يأخذ الإقطاع شكل مكافأة مؤقتة، قابلة للتغير/ الاستبدال، أي غير مستمرة، وغير مرتبطة بأشخاص محددين، نجد ذلك في كتاب سلطاني مُثبّت في ديوان الأعشى، وموّجه إلى أحد الأمراء

---

[1] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 77.

[2] فؤاد خليل ، الإقطاع الشرقي ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، 1996م ، ص 174.

[3] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج3 ، ص 457.

الفرسان بالمشرق، لم يتم ذكر اسمه، وهو من صياغة صلاح الدين شخصياً؛ جاء فيه :

" وقد عجلنا لك من الإقطاع ما لا نرضى أن تكون عليه شاكراً، وجعلناه لك أولا، وإن كان لغيرك آخراً، وهو مُثبّت في هذا التوقيع بقلم الديوان، الذي أقيم لفرض الجند كتاباً، ولمعرفة أرزاقهم حساباً؛ وهو كذا وكذا . " [1] .

من جانب آخر فإن أغلب الأفراد الذين مُنِحوا أقطاعات في دولة صلاح الدين، كانوا كما يؤكد سميث؛ ضباطاً أتراك، أو جنود محترفين من المشاة الأكراد، تم تخصيص عقارات لهم في أجزاء واسعة من الشام والجزيرة الفراتية ومصر، بمثابة دخل مالي [2] لقاء ثوابت سياسية محددة؛ تتمثل في الولاء السياسي للسلطة الأيوبية، وعائدات اقتصادية / ضرائب، وواجبات عسكرية؛ تتمثل في أداء الخدمة العسكرية الإجبارية، أوقات الحرب والجهاد .

الضباط الأتراك الذين أشار إليهم الدكتور سميث، آنفاً؛ هم في الغالب من مقدمي فرق المماليك؛ كمجاهد الدين أياز، والذي منحه صلاح الدين إقطاع " ولاية شهرزور وأعمالها " في أعالي الفرات[3] . كما بادر أيضاً إلى منح أقطاعات أخرى في الشرق، حيث " أقطع البوازيج لبعض خواصه المماليك " وهي بلدة في أطراف العراق [4] ، كما منح أفراد

---

[1] المصدر نفسه ، ج13 ، ص 149.

[1] Riley , Smith, The History of Crusades, p 229.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 65 .

[4] المصدر نفسه ، ج3 ، ص 153.

عائلته أقطاعات مهمة في الشام ومصر، كبعلبك [*]، التي مُنحت للأمير الأيوبي توران شاه بن أيوب، شقيق صلاح الدين، بعد أن تم استلامها من شمس الدين بن المُقدم، أحد الأمراء الأتابكة بالدولة النورية في دمشق، فتسلمها صلاح الدين سنة (574هـ / 1178م) " وأقطعها أخاه توران شاه " [1].

في الواقع لم يتجاهل صلاح الدين النظم الإقطاعية العسكرية السائدة آنذاك في المشرق، خصوصاً وأنه ابن ارستقراطية عسكرية كردية، تنقلت بين مؤسسات الدولتين الزنكية والنورية [2] . غير أنه كان صارماً في ما يتعلق بشروط الانخراط في سلك الخدمة الإقطاعية، ذات الخصائص العسكرية، والتي وضع على رأسها مشروعه الجهادي ضد الصليبيين، كما كان حازماً أيضاً تجاه أصحاب الحصون والقلاع والعساكر، ممن تتوفر فيهم مقومات الانفصال، أو الانفراد بالسلطة؛ خصوصاً في جهات مقاطعات وأعمال أربل والموصل وحصن كيفا وغيرها، بشمالي العراق وجنوبيّ الأناضول . يمكن أن نلتمس ذلك في أحد الخطابات السلطانية؛ وهو خطاب سلطاني موجّه إلى القوى الإسلامية، والإقطاعية في الشرق الإسلامي؛ يشدّد على الولاء، ويدعو إلى الجهاد؛ وقد جاء في جملته :

---

[*] بعلبك مدينة شامية ساحلية عتيقة، يُرجح أن تكون فينيقية البناء، ناهيك وأن اسمها مركب من لفظين: بعل وهو إله فينيقي شهير؛ عبدهُ حتى القرطاجيون في افريقية، واستخدموا أسماء مركبة منه كحن بعل/هانيبال، وصدربعل، وبعل أمون وغيره، أما لفظ بك؛ فتعني العُنق؛ أي عنق الإله، وهي تبعد عن دمشق مسيرة ثلاثة أيام، يُنظر الحموي ، معجم البلدان ، ج1 ، ص 453.

[1] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 260.

[1] Nicoll, David, The Crusades, p 36 .

" إن الله لما مكن لنا في الأرض، و وفّقنا في إعزاز الحق، وإظهاره لأداء الفرض، رأينا أن نُقدّم فرض الجهاد في سبيل الله، فنُوضِح سبيله، ونُقبل على إعلاء الدين ونُنصر قبيله، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه، ونجمع كلمتهم ... فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة؛ يحظى من عوارفنا الجزيلة بحُسن الصنيعة، ونُجح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض، واتّبع هواه وأعرض ... أزلنا يده وعزلناه . "(1).

هكذا يظهر الجهاد ضد الفرنجة؛ من أولويات السياسة الخارجية للدولة الصلاحية، وفضلاً عن ذلك ثمة شروط أخرى لا تقل أهمية أيضاً؛ وتتمثل في رفع الخطبة باسم السلطان الأيوبي، مع ضرب الدرهم والدينار، إلى جانب تطبيق المساواة، ورفع المظالم عن الرعية، والنهي عن ارتكاب المآتم والمحظورات (2) . مع انتهاج وتطبيق نظام حكم عادل، بالإضافة إلى الأخذ في الاعتبار بضرورة الالتزام بتأليف الفترق العسكرية وتمويلها (3) . وهناك أيضا مطالب أخرى تتمثل في قمع الجور، والالتزام بالولاء السياسي، معاداة أعداء السلطان، ومصافاة خلانه، وهي شروط شرطها صلاح الدين على نور الدين بن قره أرسلان؛ أحد الحكام التركمان بحصن كيفا (*)، بعد منحه ولاية آمد ، فضلاً عن الالتزام بإمداد الجيش

---

(1) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 143.

(2) المصدر نفسه ، ج3 ، ص 152.

(3) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص 185.

(*) حصن كيفا بلد من بلدان الجزيرة الفراتية بجنوب شرق الأناضول، يبعد عن بلدة سروج ست فراسخ، للمزيد ينظر؛ الحميري ، الروض المعطار ، ص 316.

بالعساكر وقت الجهاد ضد الفرنجة، فـ " متى أستمده من آمد لقتال الفرنجة ، وجده لذلك يقظان " [1] .

إلى جانب ذلك؛ فإن الأمراء الإقطاعيين ملزمون أيضاً بتوفير المال وتقديمه إلى الدولة، وفق مبالغ محددة . مظفر الدين بن زين الدين كوجك[*] وهو من السادة الإقطاعيين المعروفين في جهات ما بين النهرين وأعالي العراق، وسليل عائلة إقطاعية نصف مستقلة، وذات نفوذ متزايد، كان وكما يذكر أبي الدم الحموي قد " خدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ أربل وبلادها " [2] .

من جانب آخر فأن عمارة الإقطاع والعناية به؛ تعد من بين أهم النقاط التي يتعاقد عليها الحاكم المُقطع والسيد الإقطاعي، وأن كانت تبدو على ما يظهر ثانوية بعض الشيء، إلا أنه يمكن ملاحظتها، فبدر الدين بن دلدرم الياروقي، صاحب تل باشر في نواحي حلب، كان قد أدار إقطاع تل خالد، وهو من أعمال حلب، كما يذكر ابن الأثير، كما إن قلعة أعزاز، وهي قلعة من قلاع إمارة حلب أيضاً؛ " أقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر؛ فعمّرها " [3] .

---

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 102.

[*] مظفر الدين أبو سعيد بكتكين كوجك؛ أحد الأمراء التركمان من حكام أربل بأعالي العراق، كان أميراً أقطاعياً على حران من قبل الزنكيين، صاهر صلاح الدين وصار أقطاعياً على بلدتي الرها وسمسياط، للمزيد من التفاصيل ينظر؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص 113 .

[2] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ص 272.

[3] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 123.

في مصر؛ انتشر نظام توزيع الأراضي بمثابة أقطاعات للقائمين فقط بوظائف عسكرية، وهو إجراء لم تكن المؤسسات المصرية قد عرفته خلال العهد الفاطمي، الذي سبق عهد صلاح الدين [1]. وكما يشير المقريزي، فإن الديار المصرية منذ عهد دولة صلاح الدين، " صارت تُقطع للسلطان وأمراءه وأجناده " [2] وذلك تم على أنقاض النظام الفاطمي، الذي تم إلغاء إقطاعاته، وقد كان " نقض إقطاع المصريين " [3]. بحسب ما يُطلعنا النويري؛ أحد الأسباب الكافية في تدبير محاولة انقلاب عسكرية، فاشلة، قام بها الأمير المصري مؤتمن الخلافة، مقدم العسكر السوداني في أسوان، مما يعطينا تفسيراً بأن الإقطاع المصري؛ كان بدوره في العهد الفاطمي ذا صبغة عسكرية صرفة .

في الشام وخلال المحاولات الأولى لتثبيت الحكم الأيوبي هناك . كان فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وهو أحد الأمراء الإقطاعيين شبه المستقلين في حماه وبعرين [*] قد رضخ للسلطة الأيوبية على البلاد، حيث دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي، بعد دخول الأيوبيين دمشق؛ عاصمة الدولة النورية في الشام [4] وذلك سنة (570هـ/1174م) ، أما في السنة التالية (571هـ/1175م)، فحدث عندما كان الأيوبيون لا يزالوا

---

[1] سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك ، ص 46.

[2] المقزيري ، الخطط ، ج1 ، ص 289.

[3] النويري ، نهاية الأرب ، ج28، ص 239.

[*] بعرين ، بلدة حسنة بين حلب وحماه في الشام، وهي من المواقع التي احتلها الصليبيون سريعاً خلال حملتهم الأولى، وينوّه ياقوت الحموي بأن الناس في عصره يدعونها ببعرين؛ وأن الأصح هو : بارين، بكسر الراء وسكون النون، للمزيد ينظر؛ الحموي ، معجم البلدان ، ج1 ، ص 320.

[4] الفارقي ، تاريخ آمد وميافارقين ، ج11 ، ص 308.

يحاولون السيطرة على حلب، وإخضاع الباطنية في تلك النواحي، أن بادر صلاح الدين إلى توزيع الإقطاعات على أمراء الجيش والجند، فـ " سار إلى حلب، فنزل عليها ... وأقطع عسكره ضياعها ، وأمر بجباية أموالها ... " [1].

أما في أعالي العراق ومناطق الجزيرة الفراتية وديار بكر، فإن القوى الإقطاعية في تلك الجهات؛ قد بادر أمراؤها إلى الشروع في الانخراط في الخدمة السلطانية، بالدولة الأيوبية ذات النهج (الفيدرالي)/الاتحادي، الذي يضم عديد الأقطاب الإسلامية والقوى الإقطاعية، مقابل الاحتفاظ بحقوقهم الداخلية وأحكامهم الذاتية، بمقاطعاتهم وعساكرهم، إلى جانب دوام عقاراتهم ورئاستهم على رعاياهم، فمنذ عام (578هـ / 1182م) وكما يذكر المؤرخ المقدسي أبو شامة، كانت كُتب الأمراء الفرسان، والسادة الإقطاعيين بالمشرق؛ أصحاب حرّان، والبيرة، وسروج وغيرها؛ تتوافد على بلاط صلاح الدين ؛ حيث " توالت كُتب أمرائهم الذين يأخذون إقطاعاتهم؛ خدماً ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم؛ جنايات ومقاطعات، ومكوساً وعشوراً واحتكارات؛ يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ ... " [2].

ومن الّلافت للانتباه؛ أن العلاقة بين الدولة والإقطاع، كانت مبنية أيضاً على أسس متبادلة من روابط الولاء، بين ولاء الفارس، وكرم السيد الإقطاعي، فأسد الدين شيروكوه، الحفيد، وهو إلى جانب كونه أميراً أيوبياً؛ يعتبر صاحب إقطاع حمص، كانت علاقته بجنده تقوم على هذا النوع من

---

[1] تقي الدين أحمد المقزيري ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عطا ، المكتبة العلمية ، بيروت، 1997م، ج1 ، ص 172.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 79.

الأسس والروابط . وكان قد شن ذات مرة، هجمات بعسكره على ضواحي كونتية طرابلس اللاتينية، أفضت إلى عودته مظفراً، ومحملاً بقطيع ضخم من الغنم والدواب، فبادر إلى تكريم المقدمين من فرسانه وجنده، بأن " اقتطع لخاصته منه؛ أربعمائة رأس " [1] .

---

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 316.

المبحث الثاني : الإقطاع الأيوبي العائلي ونظام التوريث / ملامحه، مزاياه ، عيوبه ومشاكله.

معظم أجزاء (الشرق الأدنى) وبعض نواحي (الشرق الأقصى) ببلاد فارس وكرمان والأناضول وأطراف العراق ووسط وأعالي الشام؛ كانت بها قوى محلية ذات حكم (أوليغاركي) أي أشبه بحُكم دويلات المدينة؛ كما هو حاصل مع القوى الأرتقية والزعامات التركمانية؛ في أمد وحصن كيفا وسنجار بديار بكر، وفيما بين النهرين، وقوى الدانشمند، والحكم العشائري في وسط الأناضول، أو الحُكم الأسري ، كما كان حاصل مع الزنكيين والبوريين في الموصل وحلب ودمشق، عهد الأسر الأتابكية وغيرها [1]؛ غير أن الدولة الأيوبية التي حكمها صلاح الدين، كانت دولة اتحادية أو (فيدرالية) نصف إقطاعية، تضم عديد القوى الإسلامية والتكتلات الإقطاعية في الشرق، وبكيان عائلي مؤلف من أمراء أيوبيون يتسلمون الإقطاعات الكبيرة، ويديرون أقاليمهم باستقلالية شبه تامة [2] فتقي الدين عمر؛ الأمير الأيوبي الذي تولى نيابة مصر، خلفاً لعمه الملك العادل سنة (579هـ/1183م) كان صاحب إقطاعات متعددة في الديار المصرية، وكان أيضاً صاحب قوات خاصة في الدولة، فبخصوص إقطاعاته قال أبو شامة " أقطع السلطان؛ تقي الدين؛ الإسكندرية ودمياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبوش " [3]. وعلى ذكر القوات الخاصة، فإنه وكما أشرنا سابقاً؛ فأن قوات الأمير تقي الدين عمر، كانت قد وصلت تخوم إفريقية خلال

---

(1) Marshall Hodgson, The Venture Of Islam, Chicago, USA, 1992 ,p 262 .

(2) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص 185.

(3) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 126.

أحدى غزوات قراقوش – أحد مقدمي الجيش من المماليك – وكل ذلك دون موافقة صلاح الدين الرسمية [1] مما يشير أو يوحي بمدى الاستقلالية المشار إليها أعلاه، بين الأمراء الأيوبيين، في اتخاذ حتى أحلك القرارات الخارجية للدولة .

ومن الأمراء الأيوبيون كذلك؛ والذين صاروا إقطاعيين في دولة إقطاعية نصف عائلية، شمس الدولة توران شاه، شقيق صلاح الدين، وصاحب إقطاعات متعددة بالديار المصرية، ذكر المؤرخ المصري ابن الفرات؛ أن الأخير " زاده على إقطاعه؛ بوس ودهشور وملة وطوة وسوس والمنوفية " [2]. وهي فيما يبدو مزارع على ضفاف النيل، أما شقيقه الآخر الملك العادل، فهو متولي إقطاع حلب في شمال الشام [3] ، فيما كانت كل من حمص وتدمر وسلمية والرحبة في وسط الشام، إقطاعاً أسدياً للفرع الثاني من العائلة الأيوبية، فرع بني شيروكوه [4] دون أن نغض النظر طبعاً على الفروع الكردية الأخرى، كالهكارية والحميدية؛ التي تسلم أفرادها من الجنود والأمراء؛ إقطاعات ضخمة شماليّ العراق، وبتوجيه من صلاح الدين شخصياً؛ حيث شرع " في إقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد " [5].

---

[1] المصدر نفسه ، ج3 ، ص 166.

[2] ابن الفرات ، تاريخه ، ج4 ، ص 130.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 125.

[4] سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج8 ، ص 386.

[5] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج3 ، ص 148.

من جانب آخر أتسم النظام الإقطاعي الأيوبي، إلى جانب كونه نصف عائلي، بأنه قابل للتمديد في أسرة واحدة، مما يضفي عليه صفة التوريث، وذلك ما كان يعنيه الماوردي؛ عن أن الإقطاع ضربان : " إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال " [1]. وأن كان التمليك هو التوريث، فإنه يتعين علينا القول أن التوريث في نظام الإقطاع الحربي، لم يكن ابتكاراً أيوبياً، بل كان قانوناً أتابكياً، مستمداً من نظم المؤسسة الأتابكية بالشام، عهد نور الدين محمود زنكي، صاحب الدولة النورية المنحلة في حلب ودمشق، ولقد ذكر ابن الأثير في كتابه (الباهر) : أن نور الدين كان " من أحسن الآراء، ما كان يفعله مع أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلّف ولداً؛ أقرّ الإقطاع عليه " [2].

ثمة حالات و شواهد مصدرية، تفيد بـ(دينامية) واستمرارية التوريث الإقطاعي، داخل أقاليم الدولة الأيوبية، فالأمير سيف الدين المشطوب، وهو أحد الأمراء الأكراد من الفرع الهكاري، كان قد تم توريث إقطاعه سنة (588هـ/1192م) بعد وفاته، إلى ابنه واثنين من مساعديه، حيث " وقف السلطان بعده ثلث نابلس وأعمالها، على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه، الثلثين، محافظة على حقه " [3]. وتفيد بعض المصادر، أنه بعد وفاة الأمير نور الدين محمد بن قره أرسلان، أحد الأمراء الحكام بديار بكر، كان صلاح الدين قد أقر ولاية المعنى بحصن كيفا، وإقطاعه بآمد على ابنه المدعو سقمان وأخوته " وشرط عليهم أن يراجعوه فيما

---

[1] أبي الحسن علي بن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق، أحمد البغدادي، مكتبة ابن قتيبة، الكويت، 1989م، ص 248.

[2] ابن الأثير، التاريخ الباهر ، ص 169.

[3] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج4 ، ص 204.

يفعلونه، ويصدرون عن أمره ونهيه، ورتب معهم أميراً "[1]. كما تم أيضاً انتقال أقطاعات الأمير الإقطاعي في جهات ما بين النهرين؛ زين الدين بن زين الدين علي كوجك، صاحب أربل، حيث تم توريث إقطاعاته إلى شقيقه مظفر الدين كوكبوري، الأمير الإقطاعي بحران والرها، والذي كان قد دخل مبكراً في خدمة السلطنة الأيوبية، ويؤكّد ابن شداد بأنه قد تم إضافة بلاد شهرزور[*] إلى ملكيته[2].

في سياق غير بعيد ، يمكن اعتبار أن الإقطاع العسكري الأيوبي كان يتكوّن من صنفين أساسيّين؛ الأمراء الإقطاعيين الكبار في جانب، وهم في الغالب أمراء أيوبيون في الدولة، وبعض السادة الإقطاعيين في جهات الموصل، وأعالي العراق، وديار بكر وأطراف الأناضول، الذين تتوفر فيهم صفات النبوغ والنباهة، والحمية الدينية والقيادة العسكرية . والأمراء الإقطاعيين الصغار على بعض حصون وقلاع الشام، كقلاع أعزاز وتل خالد وغيرها، وهم في جانب آخر، ورغم أن الجميع كانوا غير مُحصنين من القضاء، حيث كان القانون والشرع الإسلامي يسري عليهم، كما كان يسري على غيرهم، وهو أمر كنا قد أكّدنا عليه خلال المبحث الذي تعلق بالعدالة الصلاحية، غير أن ثمة فوارق واضحة في صلاحيات الأمير/السيد الإقطاعي ذي الرتبة الأعلى، وهو عادة من العائلة الأيوبية، أو ذو خلفية عسكرية أرستقراطية، وكما تشدد كذلك الأستاذة سيمينوفا؛ فإن أقطاعاتهم كانت مدى الحياة، وكانت ذات صبغة وراثية، وفي مطلق

---

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 133.

[*] شهرزور بلاد جبلية كردية، تقع بين أربل وهمذان، أكرادها جفاة عصاة، وشداد آفاق، تمكن مظفر الدين كوكيوري من إخضاعهم في عهد صلاح الدين، الحموي، معجم البلدان ، ج3 ، ص 375.

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 126.

الأحوال كان في وسعهم استبدال أقطاعاتهم بطلب بسيط مُقدم إلى رأس الدولة [1] فالأمير الأيوبي شمس الدولة توران شاه، شقيق صلاح الدين، كان قد تقدم سنة (575هـ/1179م)، بطلب استبدال إقطاعه في بعلبك بالشام، إلى الإسكندرية في مصر، حيث ذكر مؤرخ بني أيوب " عُزل توران شاه أخو السلطان؛ عن بعلبك، فطلب عوضها بالإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخ شاه بن شاهشناه بن أيوب ..." [2].

وبالإضافة إلى ذلك، كان في وسعهم أيضاً توسيع إقطاعاتهم، وهو إجراء لم يكن من صلاحيات صغار السادة الإقطاعيين، وقد ذكر ابن شداد أن الأمير أسد الدين شيروكوه، الحفيد، قد بادر إلى توسيع إقطاعاته في الشام حيث " سار يطلب جهة دمشق ..." [3] وذلك مباشرة بعد تسلّمه إقطاع حمص، وهو إقطاع وافر، كان قد خلفًه له والده، ناصر الدين شيروكوه، بتلك النواحي، وذلك بدوره يقودنا إلى مشاكل التوريث، ومساوئ الإقطاع العائلي . فالتركة الضخمة التي خلّفها ناصر الدين شيروكوه ورائه في مقاطعة حمص، كانت قد أثارت اهتمام القيادة الأيوبية، وبالتالي مراجعة الحسابات فيما يتعلق بنظام التوريث، وكما يذكر النويري، فأن الرجل كان قد " خلّف من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثير..." [4]. مما دعا صلاح الدين إلي الحضور بنفسه إلى حمص، واستعراض/ تفقد،

---

[1] سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك ، ص 60.

[2] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 261.

[3] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 57 .

[4] النويري ، نهاية الأرب ، ج28 ، ص 259.

تركة الإقطاع الأسدي هناك، حيث تقرر أخذ أكثرها، بتحويلها إلى الجيش الذي كان في حالة صدام بالإمارات الزنكية في الموصل والجزيرة الفراتية سنة (581هـ/ 1185م) إلى جانب المواجهات التي كانت تجري في ذاك الوقت؛ مع صليبي المملكة اللاتينية في جهات فلسطين، لذلك تم أخذ أكثر موارد الإقطاع الأسدي بحمص والرحبة " واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا ما لا خير فيه " [1] .

لكن نظام التوريث كان في الواقع؛ قد سبب مشاكل لم يكن صلاح الدين يتوقع حصولها في أواخر عهده، وهي مشاكل رغم طابعها المدني / الإداري، إلا أنها ما لبثت أن أخذت في وقت لاحق؛ الشكل السياسي العسكري، فمنذ عام (588هـ/1192م) كانت إقطاعات الأمير تقي الدين عمر، كما يشير ابن أيوب؛ في سمسياط بجنوبيّ الأناضول، والموزر وميافارقين بديار بكر شرق الأناضول، وحماة والمعرة وسلمية ومنبج، وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطس وبكراس في الشام [2] وهي إقطاعيات ضخمة ومتنوعة، شملت عدداً من القلاع والحصون والقرى والضياع والمدن والأعمال، وُتعد أكبر الإقطاعات الأيوبية على مستوى جميع الأمراء داخل الدولة، غير أن وفاة هذا الأمير مبكراً، وفي السنة المذكورة، أدت إلى انتقال كل ذلك الإرث الإقطاعي؛ نظرياً، إلى ابنه الذي كان صبياً، ويدعى ناصر الدين محمد، وكانت البلاد في حالة مواجهة مع صليبيّ الحملة الثالثة، وقد سارع ذاك الصبي إلى المطالبة بإقرار سيادته على كافة أرجاء تلك البلاد، غير أن صلاح الدين امتنع؛ ولم ير أنه من

---

[1] المصدر نفسه ، ص 259.

[2] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 281.

الصائب " أن مثل تلك البلاد تُسلم إلى صبيّ، فما أجابه إلى ذلك "[1] . وفي الواقع فإن القيادة الأيوبية، لم تكن تتوقع سلبيات نظام التوريث الإقطاعي، ولم تكن تستوعب أيضاً ذاك الفارق الهائل في صلاحيات التوسيع والزيادة بين الأمراء الإقطاعيين، على اختلاف درجاتهم/مستوياتهم، فهؤلاء الأمراء والسادة الإقطاعيون، الحكام النواب، والقادة العسكريون، الذين تتراكم حولهم جميع الألقاب، والرتب والصفات ، كانوا قد صعّدوا بشكل مُلّفت من النمو المطرد لمخطط الإقطاعيات المستقلة، ونصف المستقلة كما يشير أيضا أحد الباحثين، مع تقسيم البلاد على المحاربين، وفق صلاحيات التوسعة والزيادة، كلما زادت مساحة الدولة نفسها [2] مما أدى بالتالي ببعضهم- وكما يتحدث ساندرس - إلى التفكير في ممارسة نوع من الحكم الذاتي، الأسري ، داخل حدود أقاليمهم الإقطاعية [3]. فناصر الدين محمد، الذي ورث أملاك ومقاطعات أبيه في بعض أنحاء الأناضول والجزيرة الفراتية وديار بكر والشام، كما ورث سلطة أبيه في قيادة القوات الأيوبية التابعة له في شرق البلاد، لم يلبث أن طالب رسمياً بتصديق السلطة الأيوبية على سلطته الناشئة، و وفق التقاليد الإقطاعية التي اتبعها صلاح الدين نفسه، وكما يقول رئيس ديوان الإنشاء الأيوبي بالشام؛ فإنه " طلب من السلطان الميثاق له، بأغلظ الإيمان " [4].

ونتيجة لعدم استجابة صلاح الدين، فإن المعنى كان قد أعلن " العصيان، وكاد أمره يضّمحل..." [5] وكان الأمر في تطور مستمر،

---

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10 ، ص 216.

[2] سوريال ، الحروب الصليبية ، ص 41 .

(3) **Saunders , J.J, A History Of Medieval Islam, Routledge, London- New York. 2002 . p. 152.**

[4] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 298.

[5] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 283.

وفي طريقه إلى صدام عسكري، وقد تدخّل الملك العادل سيف الدين أبي بكر، شقيق السلطان، وهو نائب مصر؛ فتم الاتفاق على بقاء مقاطعات الشام بحماة وسلمية ومنبج والمعرة وغيرها؛ في سلطة ابن تقي الدين عمر، وانتقال أقطاعات البلاد الشرقية في الجزيرة الفراتية وشرق الأناضول وديار بكر، إلى سلطة الملك العادل، مقابل تنازله عن إقطاعه في الشام " ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة؛ ستة آلاف غرارة، تحمل من الصلت والبقاء إلى القدس "[1] إلى جانب احتفاظه أيضاً بإقطاعه في الكرك والشوبك، جنوب الشام .

وعلى أية حال، فإنه إجمالاً؛ يمكننا القول أن التقاليد الإقطاعية التي جرت في دولة صلاح الدين، ورغم شكلها كقوام أساسي في بُنية وتركيبة الدولة الأيوبية، إلا أن الإقطاع العائلي والتوريث الأسري وصلاحيات التوسيع والاستبدال، مع عدم وجود عاصمة دائمة، يُتّفق على مرجعيتها بشكل رسمي، بعد وفاة صلاح الدين، هي أمور أدت بشكل تراكمي إلى تزايد سلطات السادة الأمراء الإقطاعيين، وأتساع حجم إقطاعياتهم؛ حتى أن بعضها صار يعادل ثلث حجم الدولة تقريباً، كما لاحظنا عبر الإقطاعيات التي كان يديرها الأمير تقي الدين عمر؛ في الشام والجزيرة الفراتية وديار بكر بشرق الأناضول، وهو أحد السادة الأمراء الأيوبيين من القادة العسكريين النواب، كما أن الأبناء، ونتيجة لنظام التوريث، صاروا يطالبون بجميع ما كان يمتلكه الآباء بإقطاعياتهم داخل الدولة، دون الالتفات إلى شروط وروابط تلك العلاقة، كما كانوا مستعدين بدورهم لممارسة أي نوع من أنواع التمرد العسكري؛ وهي ظروف أدت إلى

---

[1] ابن أيوب ، كتاب التاريخ ، ص 283.

تشتت الدولة، وتفكك الأقاليم الأيوبية كما لاحظ أيضاً أحد الباحثين [1]. وإضعاف الأسس والروابط الاتحادية بها، والتي تحفظ لها وحدتها، وقوتها، مع تقتت الأيديولوجية الدينية في الجهاد، منذ السنوات الأولى لوفاة صلاح الدين على الأقل .

[1] ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص 216.

المبحث الثالث : دور وجهود القوى الإقطاعية في تعبئة الدولة الأيوبية بالجهاد ضد الفرنجة :-

لم يكن جيش صلاح الدين في مصر والشام، جيشاً أيوبياً خالصاً، بل كانت عساكر الإمارات الإسلامية من إمارة الموصل الزنكية، وحلب، والقوى الأرتقية بالجزيرة الفراتية وديار بكر، وسلاجقة الروم بالأناضول؛ تعمل تحت لوائه، وذلك إلى جانب القوات المصرية، وتكتلات القوى الإقطاعية؛ بأربل وحرّان وسمسياط وحصن كيفا؛ فيما بين النهرين وأعالي العراق وغيرها، تعمل أيضا تحت لواء الدولة الأيوبية الصلاحية، ذات النهج (الفيدرالي) الاتحادي، بين القوى والأقاليم الشرقية، وذلك بموجب قانون التحالف، والخدمة السلطانية، الذي أقره صلاح الدين؛ والذي ينص على إمداد الجيش الأيوبي بالعساكر، أوقات الحرب والجهاد، إلى جانب دلالات الطاعة والخضوع والولاء؛ كتعميم الخُطبة، وصك العملة، وغيرها، مقابل اعتراف السلطة الأيوبية بالنظم السياسية، والإقطاعية السائدة خارج القطرين الرئيسيّين؛ مصر والشام، وأيضاً حق الاحتفاظ بالحقوق الداخلية والأحكام الذاتية في الأقاليم .

وجميع هذه القوى السياسية والإقطاعية بالمشرق، كانت تتألف من عناصر إسلامية مختلفة، كما كانت المؤهلات العسكرية، الفروسية، والنباهة والنبوغ العسكري والكفاءة الميدانية، وغيرها؛ التي يمتلكها الأتراك في تلك الحقبة؛ ثم الأكراد والتركمان، كما يشير إلى ذلك ابن مماتي؛ قد جعلت منهم ضباطاً وجنوداً إقطاعيين محترفين، من الطراز الأول.

وانطلاقاً من ذلك، فإن التركيبة الإقطاعية داخل الدولة الأيوبية؛ كانت تتألف بشكل هرمي من " الأجناد من الأتراك، والأكراد، والتركمان؛ دينارهم الإقطاعي دينار واحد، كامل جندياً ... الأجناد المصريين دينارهم نصف دينار، الغزاة والقواد ومن هو في معناهم؛ دينارهم ربع دينار، العربان إلا من شد منهم، دينارهم ثمن دينار " [1].

استناداً إلى ما سبق، يجدر القول أن الجيش الذي فتح به صلاح الدين مملكة بيت المقدس، وفتح به أجزاء واسعة من الساحل الشامي؛ كان خليطاً من قوات إسلامية، متشكلة أساساً من الأجناد والعساكر والأمراء الإقطاعيين [2]. وقد ذكر ابن الأثير أنه خلال تهيؤ قوات صلاح الدين بمصر، إلى غزو القلعة الصليبية الضخمة، الشهيرة، والمعروفة بالكرك، في إطراف الشام " كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد الشرق، والى مصر وسائر بلاد الشام؛ يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه، ويأمرهم بالتجهز له غاية الإمكان " [3].

وإجمالاً؛ كانت قوات صلاح الدين العسكرية، تبلغ حوالي ثلاثين ألف مقاتل، منها كتائب اثني عشر ألف، من الوحدات النظامية، والبقية كانوا موزعين فيما بين غُزاة ومجاهديـــن، ومتطوعين بلديين، وغيرهم من المدنيين [4]. وجميع تلك الفئات كانت مُلزمة بإتباع أوامر صلاح الدين شخصياً، خصوصاً وأنه كان القائد الميداني، الذي يضع الترتيبات العامة،

---

[1] ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص 369 .

[2] David Nicolle, The Third Crusades, osprey Publishing; USA, 2006 ,p 31.

[3] ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 143 .

[4] Jonathan Smith , History Of The Crusades, p,234.

والخطط النظرية للجيش، كما يخبرنا عن ذلك ابن شداد؛ حيث كان " يخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاب؛ ويأمرهم بالتقدم والوقوف، في مواضع يراها " [1].

في الواقع لدينا انطباع بأن صلاح الدين كان نموذجاً مثالياً، للقيادة والفروسية الفذة بين أقرانه وأتباعه من الأمراء، والفرسان والقادة العسكريين، فجهازه كفارس كان يتكون أساساً - كما يذكر أبو شامة – من : درع، دبوس حديدي، سيف، خوذة صفراء مُذهبة، فرس، وأربع زرديات . وهذه الألبسة والأدوات نُقلت جميعها بُعيد وفاة صلاح الدين؛ إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد، مركز السلطة الروحية في النظام الأيوبي [2].

بالإضافة إلى ذلك يرى دافيد نيكول، أن صلاح الدين لم يكن نموذجاً للفروسية المثالية فحسب، في الشأن الإقطاعي الإسلامي؛ بل كان كذلك، حتى على المستوى اللاتيني، خصوصاً من قبل الأمراء الفرسان، الفرنك/ الفرنجة، التابعين للهيئات الصليبية في الشام [3]. بينما يرى آخرون؛ أن صلاح الدين كان جنرالاً استثنائياً؛ وربما أفضل قائد عام، شهده عصره على الإطلاق [4].

من جانب آخر تتجلّى عيّنة من النماذج الإقطاعية في الشرق، أمراء وفرسان من أصحاب العساكر، كما ورد ذكرهم في المصادر؛ حيث يشير ابن الفرات إلى الأمير ناصر الدين شيروكوه، كأحد الأمراء الإقطاعيين في

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 17.

[2] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 4 ، ص 238.

[3] Nicolle, David, The Crusades , p 36.

[4] Kelly Devries, Medieval Weapons , Acid free paper, USA, 2007, p 103.

الدولة وهو صاحب إقطاع حمص، عماد الدين محمود بن بهــرام الأرتقي، والعساكر التابعة له، وهو أحد الأمراء الإقطاعيين على دارا (*) بجنوب الأناضول، وهناك معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي، أحد الأمراء الزنكيين، وأحد حكام الجزيرة الفراتية، والقوى العسكرية الإقطاعية التابعة لها في أعالي العــراق، ويضيف ابن الفــرات؛ على أنه " كانت هذه العساكر تأتي إلى خدمة السلطان وقت الربيــع، للغزو والجهاد " (1). وذلك في الإشارة إلى الدور الجهادي الذي كانت تقوم به هذه العساكر، وقياساً بالدور السياسي، فان للأمراء الإقطاعيين دور كبير في تثبيت أركان الدولة الصلاحية الناشئة، فشمس الدين بن المقدم، وهو أحد أكابر الأمراء الأتابكة، السابقين في الدولة النورية بالشام، وصاحب إقطاعات " بعرين وأفامية وكفرطاب " (2). كان له دور رئيسي في تثبيت النظام الأيوبي بالشام، وتسهيل مهمة دخول صلاح الدين للعاصمة النورية دمشق، مما دعا صلاح الدين أن يكافئه؛ بأن منحه إقطاع بعلبك، سنة (574هـ/1178م) " جزاءً له " (3).

إذنً لقد كان للأمراء الفرسان الإقطاعيين في الشرق، إلى جانب باقي القوى الإقطاعية؛ دور بارز في تثبيت دعائم الحكم الأيوبي عهد صلاح الدين، فالي جانب ما ذُكر آنفاً؛ كان مظفر الدين كوكبوري، وهو أحد

(*) دارا مدينة رومية بديار ربيعة، في أرض الجزيرة الفراتية، أي بأعالي الفرات وجنوب الأناضول، بينها وبين نصيبين في شمال العراق؛ خمسة فراسخ، وهي على سفح جبل وقلعتها تُعد حصينة . الحميري ، الروض المعطار ، ص 230.

(1) ابن الفرات ، تاريخه ، ج 4 ، ص ص 209 – 210 .

(2) ابن الفرات ، تاريخه ، ج 4 ، ص 209 .

(3) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، 91 .

السادة الإقطاعيين الأتراك، بأعالي العراق، وهو " مُقطع حرّان " [1]. كان قد بعث بكتاب إلى صلاح الدين، يحثه فيه على امتلاك " البلاد – يقصد شمالي العراق وجنوبيّ الأناضول – ويعدهُ المساعدة " [2]. وقد ساهم مظفر الدين كوكبوري إلى جانب (لوردات) أمراء، وحكام الجزيرة الفراتية الآخرين؛ في تعزيز وجود القوات الأيوبية في مناطق ما بين النهرين؛ رغم معارضة القوى الزنكية عام (581هـ/1185م) [3]. فتم إخضاع الرها والخابور ونصيبين التي حوصرت طويلاً؛ حتى سقطت قلعتها، فدخل صلاح الدين البلد " وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين" [4]. وهو أحد أمراء الدولة .

وقد كان انضمام مظفر الدين كوكبوري؛ الذي سبق وأن أشرنا إليه قد تم بعد خروج/انشقاق، الأخير عن السلطة الزنكية القائمة في الموصل والجزيرة الفراتية، ودخوله بالتالي في طاعة وتحالف النظام الأيوبي، حيث تم " بوساطة هذا الاتفاق؛ مُلك صلاح الدين على منطقة ما بين النهرين " [5].

وكان من فوائد الإقطاع العسكري؛ الذي أنتهجه صلاح الدين، في الجزيرة الفراتية، وبلاد ما بين النهرين؛ هو نظام التجنيد المُسّخر في التعبئة ضد القوى والكيانات الصليبية في المشرق، فتقي الدين عمر شاهنشاه بن

---

[1] النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 254 .

[2] المصدر نفسه ، ص 254 .

[3] S, Runciman ,A History Of The Crusades, Cambredge,1954 p,74.

[4] النويري ، نهاية الأرب ، ج 28 ، ص 254 .

[5] السرياني، حولية السرياني ، ج5 ، ص 28 .

أيوب، الأمير الإقطاعي الأيوبي، الذي تحدثنا عن إقطاعياته الضخمة سابقاً؛ كان قد تلقّى أمراً من القيادة الأيوبية عام (587هـ/1191م) يدعوه إلى تجنيد المزيد من العساكر الإقطاعية في أعالي الفرات، وجنوب الأناضول، للمساهمة في صد الحملة الصليبية الثالثة، إذ أن تقي الدين تسلم إقطاعات البلاد الجزرية فيما بين النهرين؛ إلى جانب مقاطعات "حران والرها، كان قد أقطعه إياها عمه صلاح الدين ... وقرر معه أن يُقطع البلاد للجند؛ ويعود وهم معه، ليتقوى بهم على الفرنج "[1].

في الواقع؛ كان الإقطاع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً، وأساسياً بالجهاد، من بين الشواهد على ذلك، إضافةً إلى ما سبق ذكره؛ ما أشار إليه ابن شداد، عن أن صلاح الدين كان قد " تقدم إلى مظفر الدين – مظفر الدين كوكبوري، صاحب مقاطعة أربل وأعمالها – حتى يحضره معه إلى الشام؛ فيُقطعهُ، ويكون ملازماً للجهاد "[2]. وقد كان لهذا الأمير الإقطاعي، دوراً بارزاً في صنع فتوحات صلاح الدين؛ حيث فُتحت مدينة الناصرة بقيادته في الأراضي المقدسة عام (583هـ/1187م) وذلك مباشرة عقب نصر حطين[3]. وقد ذكر ابن خلكان بأن مظفر الدين كوكبوري، شهد مواقف عديدة في حروب صلاح الدين " وأبان فيها عن نجدة وقوة نفسٍ، وعزيمة، وتثبت في مواقع لم يثبت فيها غيره "[4].

---

[1] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، 203 .

[2] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 186 .

[3] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج 21 ، ص 263 .

[4] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 4 ، 115 .

كما توجد إشارات عن أمراء إقطاعيين آخرين، أسهموا بشكل أساسي في تعبئة الدولة بالجهاد، وشاركوا في صنع فتوحات صلاح الدين، وأبرز هؤلاء الأمراء؛ كان بدر الدين بن دلدرم الياروقي، وهو أحد زعماء الترك، الذي يأتمر بأمره " خلق كثير من التركمان " [1]. وقد كان صاحب إقطاع تل خالد بأعالي الشام، فأسهم في فتح حصن هونين الصليبي عام (583هـ/1187م) [2]. كما شارك أيضا في فتح مدينة " قيسارية " [3]. كجزء من فتوحات صلاح الدين بالساحل الشامي .

في حين، كان عز الدين فرخشاه، وهو من الأمراء الأيوبيين الشبان؛ قد كان له دورٌ في تفعيل النضال ضد الفرنجة، بمجرد توليه شؤون الإقطاع في الشام، كما يذكر ابن الأثير بما يفيد أن عز الدين فرخشاه، كان من الأمراء الإقطاعيين الذين تولوا إدارة عمليات عسكرية خاصة، حول الثغور الصليبية سنة (575هـ/1179م) مباشرةً، بعيد توليه " إقطاع بعلبك " [4].

بيّد أن الملكية الإقطاعية كانت مستمرّة باستمرار الخدمة العسكرية، وأن الصفة/السمة الإقطاعية، تُسحب من الأمراء والقادة العسكريين الإقطاعيين تلقائياً؛ بمجرد ثبوت تقاعسهم، أو تثاقلهم عن أداء مهامهم،

---

[1] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص 198 .

[2] جمال الدين أبو عبدالله بن واصل الحموي، التاريخ الصالحي، تحقيق، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995، ج21، ص 523 .

[3] أبو الدم الحموي ، التاريخ المظفري ، ج 21 ، ص 264 .

[4] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 99 .

بالإضافة إلى حالات الهروب التي قد تحدث هنا أو هناك؛ من المعسكرات الأيوبية بمصر والشام، أو الانقطاع عن الخدمة السلطانية . وفي هذا الصدد، يشير العماد الأصفهاني؛ إلى أن صلاح الدين كان قد عزل بعض القادة الأمراء عن إقطاعاتهم، وزج بهم في السجن؛ بسبب تقاعسهم في أداء مهامهم التي كانوا قد كُلّفوا بها، في الدفاع عن المدينة الساحلية عكا [*] والتي كانت من أهداف الحملة الصليبية الثالثة، عام (587هـ/1191م) وقد ذكر منهم (عز الدين أرسل) وهو من الأمراء الموصوفين، وحسام الدين تمرتاش، وسنقر الوشاقي، من فرق المماليك الأسدية، وعبد القاهر الحلبي " نقيب الجاندارية الناصرية – أي الحرس الناصري – ومُقدمها " [1]. ويضيف العماد الأصفهاني أيضاً؛ بان هؤلاء كانوا من الأمراء الذين أنعمت عليهم القيادة الأيوبية بالإقطاع السخي، وكان " كل منهم محظوظ بالإقطاع الوافر، فقطع السلطان إقطاعاتهم، وأقطعها " [2]. وذلك بسبب فشلهم في الحفاظ على مدينة عكا، وتأمين أهلها أمام الحملة الصليبية الثالثة، والتي كانت اختباراً جيداً على كفاءة ونجاعة التنظيمات الإقطاعية والعسكرية الأيوبية، وللنتيجة نفسها؛ كان للقوى الإقطاعية والأمراء الإقطاعيين المشار إليهم؛ دورا بارزاً في جميع الأحوال، وإسهامات واضحة وفعالة، في الجهاد ضد الفرنجة، ضمن كتائب صلاح الدين، إلى جانب قيادة العمليات العسكرية الشاقة حول عكا وبيت المقدس، وباقي التخوم

---

[*] عكا مدينة شامية ساحلية، تبعد عن صور مسيرة يوم، بها أكبر ميناء على طول الساحل، يصل إليه أكبر عدد من السفن الأوربية خلال الحقبة الصليبية، للمزيد ينظر كتاب، وصف الأرض المقدسة، لودولف فون دي سوخم، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1999، ج 37، ص 303 .

[1] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 266 .

[2] المصدر نفسه ، ص 266 .

الفرنجية، وما نجم عنها بالتالي من فتوحات بالغة الأثر، وعالية القدر والأهمية؛ جعلت من الساحل الشامي كما يقول توماس مادين؛ بأن بات عملياً؛ باستثناء مدينة صور[*] تحت سلطة صلاح الدين [1].

---

[*] صور مدينة مستديرة عظيمة الأسوار، على شاطئ البحر، وتقع في القسم الشمالي من الأراضي الفلسطينية المقدسة، للمزيد ينظر؛ كتاب الأرض المقدسة، الراهب بورتشارد ، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1999، ج 39، ص 150 .

[1] Madden, Crusades The Illustrated History, p,74.

الخاتمـة

ختامـاً؛ يمكـن أن نتحـدث عـن أهـم النقـاط والنتائـج، التـي تمكّنـا مـن الوصول إليها خلال الرسالة؛ وعبر هذه الدراسة، وهي كالتالي :

صـلاح الـدين الأيـوبي، يوسـف بـن نجـم الـدين أيـوب؛ مؤسـس دولـة سلاطين بني أيوب، السلطان/الملك الناصر/الإسفهصلار، والقائد العسكري العـام، الـذي وحّـد الجبهـة الإسـلامية، وفـتح بيـت المقـدس وحـرر السـاحل الشـامي، كـان قد انطلـق فـي بداياتـه؛ من خلفيات سياسية، ذات وحـدة أو ربـاط زنكـي سـلجوقي، يـؤمن بضـرورة لملمـة الصـف الإسـلامي، وتوحيـده عقائدياً وفـق النـهج السـني، ومحاربـة التشيع فـي مصـر، مـع توحيـد القـوى الإسلامية والتكتلات الإقطاعية؛ سياسياً وعسكرياً . بالإضافة إلى أن نشأة صلاح الدين، وسط بيئة جهادية، معادية للوجود الفرنجي في الشام، خلال العهد الأتـابكي؛ كانـت قد ألزمتـه إتقان جميـع فنون القتـال، وكافـة مهـارات الفروسيـة، والمنـاورة كمـا هـو معـروف عليـه بـالجيـاد، إلـى جانـب التشـبع بأفكـار راسخة عـن حتميـة الجهـاد الإسـلامي، الـذي كـان ضـرورياً وأساسياً ومقدسـاً؛ ضـد الصـليبيين فـي ذاك الوقـت، مـع التـأثر بأخلاقيـات الحـرب والسياسة، وتقاليد الوحدة والجهاد النوري، إلى جانب التأثر ببعض التقاليد التركيـة السـلجوقية الأخرى؛ فـي الإدارة والتنظيم، والتعبئـة والقيـادة، وتـأليف الجيوش وغيرها .

أيديولوجيـاً وروحيـاً؛ نلاحـظ أن صـلاح الـدين كـان يعتبـر نفسـه حـامي حمـى البيـت العباسـي، وكجـزء مـن تركيبـة وبنيـة الدولـة سياسياً، فإنـه كـان يعتبر نظام حكمه، سلطة شرعية لا غُبار عليها، تستمد شرعيتها الروحية، وسـلطتها الزمنيـة، مـن الخليفـة العباسـي شخصـياً، وكـان صـلاح الـدين لا يتـوان عـن إعـلان تـوقيره، و ولائـه المسـتمر للمقـام العباسـي؛ بإرسـال

الهدايا والبشائر والوفود؛ منذ نجاحه في قطع الخطبة العلوية بمصر، على الأقل، وما نجم عنها بالتالي من عودة البلاد إلى السلك العباسي، وتوحيد/ربط، مصر بالشام، كخطوة لاحقة، وإجراء سياسي متمم للوحدة العقائدية بين البلدين .

إدارياً؛ كان صلاح الدين يعتمد في إدارة شؤون دولته على بعض كبراء الشخصيات في الدولة، كالملك العادل سيف الدين، الفقيه المحقق عيسى الهكاري، الأمير المقدم سيف الدين المشطوب، وغيرهم من أرباب الدولة، غير أن أبرزهم كان القاضي الفاضل، الذي كان مستشاره ورئيس ديوانه في مصر، فالدواوين وهي أرفع الأجهزة الإدارية كما يقول القلقشندي؛ كانت ذات ثقل سياسي واضح في بنية وتوجهات الدولة، رؤسائها كانوا مجموعة من (التكنوقراط)/ أي الموظفين المختصين، في ديوان الإنشاء، وديوان الجيش، القضاء، والمالية وغيرها. رؤساء ديوان الإنشاء – كالقاضي الفاضل، والعماد الكاتب الأصفهاني – كان لهم دور أكثر من غيرهم، في التأثير على مسارات الدولة؛ من خلال خطاباتهم السياسية، ومساهماتهم في التنظير السياسي والجهادي، ورسائلهم الديوانية التي كانت مبعثاً للفصاحة والبلاغة، وذات أثر في التعبئة والتحريض على الجهاد .

من جانب آخر كان النظام السياسي الأيوبي، عهد صلاح الدين؛ خليطاً من نظم سلطانية سلجوقية، وأخرى ملكية على النمط الأتابكي، وكما تبين لنا في أكثر من مناسبة، فإنه يمكن أن نلاحظ ذلك في صفات صلاح الدين الرسمية، والتي تتأرّجح بين كونه الملك الناصر، وسلطان المسلمين . وفي إدارة النظام السياسي؛ انتهجت القيادة الأيوبية أساليب اتحادية بين القوى الإسلامية المستقلة، ونصف المستقلة؛ الزنكية منها والأرتقية وغيرها؛ فاتسمت الدولة بالطابع (الفيدرالي) الذي وحّد الأقاليم الإسلامية بالمشرق،

مع الاحتفاظ بالحقوق الداخلية، والأحكام الذاتية . في سياق آخر؛ لم يكن النظام الأيوبي ذا نهج شمولي، أو سلطوي، بل كانت هناك اتجاهات صادقة نحو تطبيق اللامركزية في الحكم، والفصل في السلطات، فكما اتضح لنا خلال المبحث المتعلق بمؤسسات الدولة والشورى والعدالة؛ كان الجميع تقريباً؛ من رؤساء وقادة وأمراء وجند ورعية، خاضعون للقانون القضائي الشرعي، وممتثلون له، ويمكننا القول أنه قد تم تطبيق عدالة مطلقة في دولة صلاح الدين، من خلال مثول بعض أرباب الدولة، وأمراء البيت الأيوبي، أمام القضاء في مجالس العدل، كما انتهج صلاح الدين أيضاً، جوانب نافعة من سياسة الشورى في دولته؛ خصوصاً خلال أوقات الحرب والجهاد، وان كانت شورى غير مطلقة، باعتبارها مقتصرة فقط على فئة معينة من أمراء وكبراء الدولة دون غيرهم، إلى جانب نُخبة محددة من قادة ومقدمي الجيش، وبعض المستشارين من رؤساء الدواوين، فإنها كانت ذات نتائج جيدة على الصعيد السياسي، والعقائدي، والجهادي بوجه خاص؛ والمتمثل في النضال ضد الفرنجة .

النمط الأيديولوجي في بنية الدولة، كان يسير وفق تراتبية هرمية تصاعدية، وهي في تقديرنا كالتالي : شافعية الفرع داخل الوسط السني، سنية المذهب أمام باقي الطوائف الإسلامية، اتحادية التوجهات السلمية والعسكرية بين القوى الإسلامية، جهادية الاتجاهات ضد الفرنجة والقوى الصليبية في الشرق .

من جانب آخر كان القضاة والفقهاء والشعراء والسفراء؛ باعتبارهم أحد مكونات الدولة، ومن فئات المجتمع الأيوبي، قد شكلوا جزءً من بُنية النظام في عهد صلاح الدين، وكان الأخير يعمد إلى تقريبهم ودعمهم بشكل مستمر . الشعراء ساهموا كما لاحظنا في التعبئة الروحية، وبث

الروح القتالية في صفوف الجند، وتأجيج الرأي العام بكافة أطيافه؛ من خلال أشعارهم الحماسية . السفراء كانوا أداة صلة (ديبلوماسية) ووصلة سياسية مهمة بين النظام الصلاحي الأيوبي، وبين باقي الدول والإمارات والممالك الإسلامية، وغير الإسلامية في الشرق . في حين كان القضاة والفقهاء أدواتً ناجحةً، وفعالة، لنشر الفكر السنيّ الشافعيّ بالدرجة الأولى، باعتباره المذهب الرسمي للأيوبيين وعموم الأكراد، ثم الحنفي والمالكي؛ في الأقاليم الأيوبية والأجزاء الخاضعة للسلطة الصلاحية، و محاربة التشيّع في مصر، إلى جانب تحفيز الجند، ورفع الهمم بين المقاتلين؛ خصوصاً في ميادين القتال، كما كانوا في الوقت ذاته، أبواق دعاية وترويج ناجحيّن، لصالح النظام، ولصالح العائلة الأيوبية الحاكمة، خصوصاً في مصر والشام .

بُنية الجيش تم تأليفها على النمطين الزنكي والسلجوقي، حيث جرى الاعتماد على العناصر التركية في تأليف فرق المماليك والخيالة وكتائب الفرسان، إلى جانب بعض القوى التركمانية المتمثلة في بعض تكتلات القوى الإقطاعية المتناثرة هنا وهناك، أو فيما بين النهرين وأعالي العراق، وشرق الأناضول، وبعض نواحي مصر والشام، كما جرى الاعتماد أيضاً على العناصر الكردية؛ والتي تم استخدامها تباعاً للتقليد الزنكي؛ كمشاة من ذوي مؤهلات خاصة، وقد جرى في وقت لاحق الانفتاح على عناصر محلية أخرى، عربية وفارسية، وأخرى متطوعة .

الإقطاع هو أحد النظم الأساسية التي شكلت بنية وهوية الدولة، وقد مثّل جزءً من مكونات البنية السياسية والإدارية لدولة صلاح الدين . صلاح الدين يوسف بن أيوب، وباعتباره ابن ارستقراطية عسكرية أيوبية، تنقلت بين مؤسسات الدولتين الزنكية والنورية، كان يدرك جيداً ما يعنيه ويمثله

الإقطاع العسكري للدولة، لذلك سعى جدياً إلى تطبيق النظم الإقطاعية ذات الخلفية السلجوقية، والتي كانت سائدة في الشرق، وقد بادر إلى فرض شروط صارمة – خصوصا فيما يتعلق بالشأن الجهادي – على الأمراء الإقطاعيين، وذلك خلال الانخراط في شروط الخدمة السلطانية، حيث فرض على القوى الإقطاعية ضرورة تأليف وتمويل الفرق العسكرية، والالتزام بانتهاج نظام حكم عادل، وإعلان التبعية والولاء السياسي للقيادة الأيوبية، ورفع الخطبة والسكة باسم السلطان الأيوبي، بعد اسم الخليفة العباسي، إلى جانب تقديم مبالغ مالية محددة إلى خزانة الدولة، وإمداد الجيش الأيوبي بالعساكر، وكافة فصائل فرق الفرسان الإقطاعية . كل ذلك يأتي مقابل الاعتراف الرسمي من جانب القيادة الأيوبية، بسلطات الأمير الإقطاعي داخل حدود إقطاعياته، والسماح له – وفي ظل النظام الصلاحي الاتحادي – بممارسة نوع من الحكم الذاتي الداخلي، في صك العملة وبنية الإدارة وتأليف الجيش . ويتعين علينا أيضاً التنبيه إلى أن النظام الإقطاعي، قد ساهم بشكل مُلفت في تعزيز الجهاد ضد الإمارات الفرنجية والقوى الصليبية في الشام ، وذلك نتيجة للإضافة التي قدمتها القوى الإقطاعية، إلى جانب باقي القوات والوحدات الأيوبية، غير أن اتساع نطاق الإقطاع، واصطباغه بالصبغة العائلية كما شاهدنا بالفصل الأخير؛ عبر إقطاعيات الأمير الأيوبي؛ الملك المظفر تقي الدين عمر، وممتلكاته الإقطاعية في حماة وسلمية ومنبج وسمسياط وغيرها، خصوصاً وأن الإقطاع الأيوبي النصف عائلي، كان في الواقع قد خلق نوعاً من الحساسيات السياسية، والشروخ الإدارية، داخل مؤسسات الدولة الأيوبية، خاصةً فيما يتعلق بشؤون الوراثة والتمديد، وإن ظهر ذلك مؤخراً، على أواخر عهد صلاح الدين .

(مجموعة الملاحق والوثائق)

عينة لبعض أهم الرسائل والوثائق، والخطابات الديوانية بالدولة الأيوبية الصلاحية :

ملحق أوّل / رسالة سلطانية مقدمة من صلاح الدين الأيوبي؛ من بلدة البيرة بأعالي منطقة مابين النهرين، شمال غربي العراق؛ خلال حملة توحيد القوى الإسلامية، موجهة إلى الديوان العباسي في دار السلام، يعتبر فيها نفسه خادماً للمقام الشريف ببغداد:-

" خدمُ الخادِم متوالية إلى الأبواب الشريفة – خلّد الله سلطانها – شارحاً لأحواله، ومعتداً بها من صالح أعماله، ومتوقعاً من الأجوبة عنها ما يهيئ له من أمره رشدا، ويُفرق الأعداء إذ كادوا عليه لبدا، فإن الآراء الشريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات وتتضمنها الإجابات والابتداءات، لأفصحت عنها مولاة الخادم التي استفتت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها، وردّت الأسماء الشريفة إلى أوطانها؛ من المنابر بعد طول غربتها، (يقصد عودة الخطبة العباسية في الأراضي التي دخلها، أو أخضعها الأيوبيون، كمصر والجزيرة والنوبة وبرقة وبعض نواحي وأطراف الشام) فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهاجر ما هاجر إليه، ونية المرء ثوبُه، فلا يلبس إلا ما خلعته النية عليه .

وكتاب الخادم (يتحدث عن نفسه، وعن موقعه الحالي وقتذاك في بلدة البيرة بأعالي الفرات) الآن من البيرة؛ بعدما قطع الفرات، وكان من لا تُقرب عليه العزائم ما هو بعيد، ولا يُلقي السمع

وهو شهيد، يظن أن ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده، وأنه ينسى عزيمة رأيه إذا ذكر طول مدته وهول مدّه، وكيفما كان هذا المحرج المخرج، فقد أحسنت إلى الخادم إساءته إليه، وقربه من محل دار السلام بل الإسلام ... وتُنوّر دار الإسلام من منزلته فأذناه النظر العالي، وأسفلته آماله حوز الفوز بما قرّبه نجيّا من قُربها، والآمال أمالي، والله تعالى يُشرف أرضاً هو واطئها، ويرعى سروجاً هو كاليها، ويُسعد به أمة هو بارُّها، طاعةً لمن هو بارئها ". (1)

الملحق الثاني/ كتاب فاضلي كُتب بقلم القاضي الفاضل؛ إلى الديوان العباسي ببغداد، بعد ضم إمارة حلب؛ مع بلدة حارم، التابعة لعماد الدين زنكي الحفيد، في الشام؛ ويوضّح فيه ولاء الدولة الأيوبية للمقام العباسي، وبعض سياسات صلاح الدين إزاء الدين والرعية الإسلامية، وبخصوص الوحدة والجهاد :-

" أدام الله أيام الديوان العزيز، ولا زالت منازل مملكته، مملكته منازل التقديس والتطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه، موجباً للتقديم والتقدير، والأمة مجموعة الشمل بإمامته؛ جمع السلامة لا جمع التكسير.

(1) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 77 .

الخادم (يقصد صلاح الدين) ينهى أن الذي يفتتحه من البلاد، ويتسلمه؛ إما بسكون التغمد أو بحركة ما في الأغماد، إنما يعده طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار (يقصد أن الفتوحات الداخلية؛ هي طريق الأيوبيين إلى فتح الإمارات الصليبية في الشام) ... وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، لا غير، وثغور المسلمين لها الرعايا، ولا ضير، ولا يختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها؛ (دعوة إلى التعاضد بين القوى الإسلامية، والتحاشد ضد الفرنجة، ونبذ التباغض والتحاسد) لا متحاسدة بعتوّها، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة؛ لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في الحرب إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة، فعوّض عماد الدين (هو زنكي الثاني، صاحب إمارة حلب) من بلاد الجزيرة؛ سنجار وخابورها، ونصيبين والرقة وسروج، على أن المظالم تموت؛ فلا يُنشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها، فلا يُطوى منشورها (يقصد نشر العدالة بين العباد، وإرسال العساكر للجهاد، وهي شروط إجبارية في الخدمة السلطانية الصلاحية) ...

وهذه المقاصد الثلاثة (أهداف ومساعي الدولة الأيوبية، في سياساتها الداخلية، وفتوحاتها الخارجية) : الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله؛ هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدنيا إذا مُنحها، والله العالم انه لا يقاتل لعيش ألين من

عيش، ولا لغضب يملا العنان من نزق وطيش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم إنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النية، التي هي خير ما يُسطر في الصحيفة ويُرقم . " (*)

الملحق الثالث/ كتاب فاضلي حول حيثيات ضم إمارة حلب الزنكية، والتي ضُمت للأيوبيين سلماً كما هو معروف، وعن قناعة، وبتدبير وتخطيط من القاضي الفاضل شخصياً، مع ذكره للأسباب و الشروط التي قبل بها عماد الدين زنكي الحفيد، من مساندة ومصابرة في أوقات الغزو والجهاد ضد الصليبيين، وغير ذلك؛ مقابل الاحتفاظ بمدن وقلاع، ونواحي أخرى في الشرق :-

" فتحنا مدينة حلب بسلم؛ ما كُشفت لحُرمتها قناعاً، وتسلمنا قلعتها، التي ضمِنتُ (يقصد الضمانات التي أخذها من الزنكيين بنفسه؛ خلال تفاوضه معهم؛ وإقناعهم بالوحدة والتضامن خلف قيادة صلاح الدين؛ وتوحيد الصف الإسلامي أمام الفرنجة) أن نتسلم بعدها بمشيئة الله؛ قلاعاً، وعُوّض صاحبها (يقصد عماد الدين زنكي الثاني) من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة والجهاد بالعدة الموفورة، فهي بيدنا

(*) تعمدنا الانتقائية وعدم الدخول في تفاصيل مملة للخطابات، والرسائل الديوانية، بالدولة الصلاحية، بسبب طول حبلها وعمق موردها، ناهيك وأن كتاب الروضتين لوحده؛ حوى على أكثر من (206) وثائق محفوظة، وهي كثيرة وطويلة بحيث يضيق المقام لاتساعها، لذلك تعمدنا فقط أخذ عينة من بعضها؛ وذلك حسب أهميتها ومكانتها وأثرها؛ للمزيد من التفاصيل عن الكتاب الفاضلي الموجه إلى بغداد بعد ضم حلب؛ ينظر؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 117 .

بالحقيقة، (أسباب ضم إمارة حلب الزنكية؛ إلى دولة صلاح الدين في الشام) لان مرادنا من البلاد رجالها، لا أموالها، وشوكتها، لا زهرتها، ومناظرتها للعدو، لا نضرتها، وان تُعظم في العدو الكافر نكايتها، لا أن تغدق بالولي المسلم ولايتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة " [1] .

الملحق الرابع/ مرسوم إقطاعي بخط صلاح الدين لأحد السادة الإقطاعيين بالمشرق، لم يتم فيه ذكر اسمه، وهو من الأمراء المستقلين، ممن دخلوا في الخدمة السلطانية وانخرطوا في سلك الدولة الأيوبية :-

" وهذه نسخة توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب، كُتب بها لأميرٍ قدِم على الدولة؛ (الدولة الصلاحية الأيوبية) فاستخدمته؛ وهي :

أما بعد فإن لكل وسيلة جزاءً على نسبة مكانها، وهي تتفاوت في أوقات وجوبها ومثاقيل ميزانها، ومن أوجبها حقاً وسيلة الهجرة، التي طوى لها الأمل من شقته ما طوى، وبعث بها على صدق النية؛ ولكل أمرىٍء ما نوى، وكذلك فعلت أيها الأمير فلان، وفقك الله ... وتبوأت كنف الدولة التي هي أم الدول، إذ صرت إلى القرية التي هي أم القرى، ونحن قد أدنيناك منا إدناء الخليط والشعير، ورفعناك إلى محل الاختصاص الذي هو المحل

[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 3 ، ص 105 .

الأثير، وأخينا بينك وبين عطايانا؛ كما وُخى بين الصحابة النبوية يوم الغدير ...

وقد عجلنا لك من الإقطاع ما لا نرضى أن تكون عليه شاكراً، وجعلناه لك أولا، وإن كان لغيرك آخرا، وهو مثبت في هذا التوقيع بقلم الديوان، الذي أقيم لفرض الجند كتاباً، ولمعرفة أرزاقهم حساباً؛ وهو كذا وكذا . " [1]

الملحق الخامس/ رسالة استغاثة بالقوى الإسلامية، وطلب السند والمدد؛ بعد انطلاق الحملة الصليبية الثالثة؛ صوب الساحل الشامي؛ الرسالة من إنشاء العماد الكاتب، وموجهة إلى الأمير قطب الدين بن نورالدين قره أرسلان؛ صاحب حصن كيفا وقلعة آمد، وبلاد ديار بكر بجنوب الأناضول، وهو من حفدة الأمير سقمان بن ارتق؛ حاكم مابين النهرين، وأحد قادة المقاومة الإسلامية المبكرة؛ ضد الحملة الصليبية الأولى، وجاء في أولها :-

" قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة (خبر تحاشد كبار ملوك أوربا، لإرسال الحملة الصليبية الثالثة) من مدد ملوكه، وكثر على نهار الإسلام بأظلام ليل الكفر وحلوكه، فالإسلام ينشد ظهيره، ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره نوره، (يقصد طلب العون العسكري، من نور الدين أرسلان) وهذه عكاء (يقصد مدينة عكا

[1] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 13 ، ص 148 .

الساحلية، وقد سقطت وقتذاك في يد الحملة الصليبية الثالثة، بعد دفاع مستميت من جانب الأيوبيين) التي كنا عنها ندافع، وعن ثغرها نمانع، ونُجري دماء الواردين في البحر؛ لقصدها في بحرها، ونرد للرد عنها، مكايد العُداة في نحرها؛ قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام، واحتاج من أبى إسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام، وكانت مودودة فعادت موؤودة، وصارت مغصوبة ... وحاشى أن يكون المجلس (يقصد مجلس نور الدين أرسلان في حصن كيفا) بالغيبة عنها راضياً، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضياً، وما بقى للفرنج مع استيلاءها على الموضع (يقصد موقع عكا الاستراتيجي) إلا زائد قوة في المطمح والمطمع، وقد عزمنا على المصاف (يقصد مواجهة ومجابهة الحملة الصليبية الثالثة) وصد صدمة الكفر بالكافي الكاف، والله كافل دينه بالنصر، والمردى بمكره أهل المكر ... فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر، وليل الهدى قد قرب أن يُسفر . " (1)

الملحق السادس/ رسالة استنجاد من الدولة الصلاحية الأيوبية؛ وطلب الدعم من الدولة الموحدية المغربية؛ ضد الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة، بخط القاضي الفاضل سنة (586هـ/1190م) وموجهة إلى الأمير يعقوب بن عبد المؤمن، أمير الموحدين في المغرب، جاء في أولها :-

(1) الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 273 .

بسم الله الرحمن الرحيم، الأمير الأجلّ، الاسفسهسلار (مقدم العسكر)، الأصيل، العالم، المحترم، شمس الدين، عُدة الإسلام، جمال الأنام، تاج الدولة، أمين الملة، صفوة الملوك والسلاطين، شرف الأمراء، مقدم الخواص، أدام الله توفيقه، ويسّر طريقه، وأنجح مقصده، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده .

تسخير الله سبحانه، وتتوجه كيفما يسر إلى الجهة الإسلامية المغربية، حرس الله جانبها، ونصر كتائبها ومراكبها ...

والمقصود أن تقُص القصص عليك من أول وصولنا إلى مصر، وما أزلنا من البدع بها (يقصد إلغاء النظام الفاطمي، وإزالة مذاهبه وتياراته في مصر)... ووضعنا من المظالم عنها (يقصد رفع المكوس الباطلة والضرائب الباهظة عن الرعية)، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها (يقصد إقامة الخطب باسم الخليفة العباسي، وعودة السنة والجماعة في مصر)، وغزواتنا التي تواصلت الى بلاد الكفر من مصر (يقصد بلاد الفرنجة) فكانت مقدمة لملك الشام الإسلامي، باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة لملك الشام الفرنجي، بانقياد المسلمين لنا، و إصفاق (اصطفاف) الملوك المجاورين على طاعتنا .

ونُفصل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة؛ التي جسنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه؛ من أسباب دمارهم (يقصد تدمير الأيوبيين مع من والاهم من المسلمين؛ للقوى الصليبية مجتمعة عند حطين)، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى (يقصد

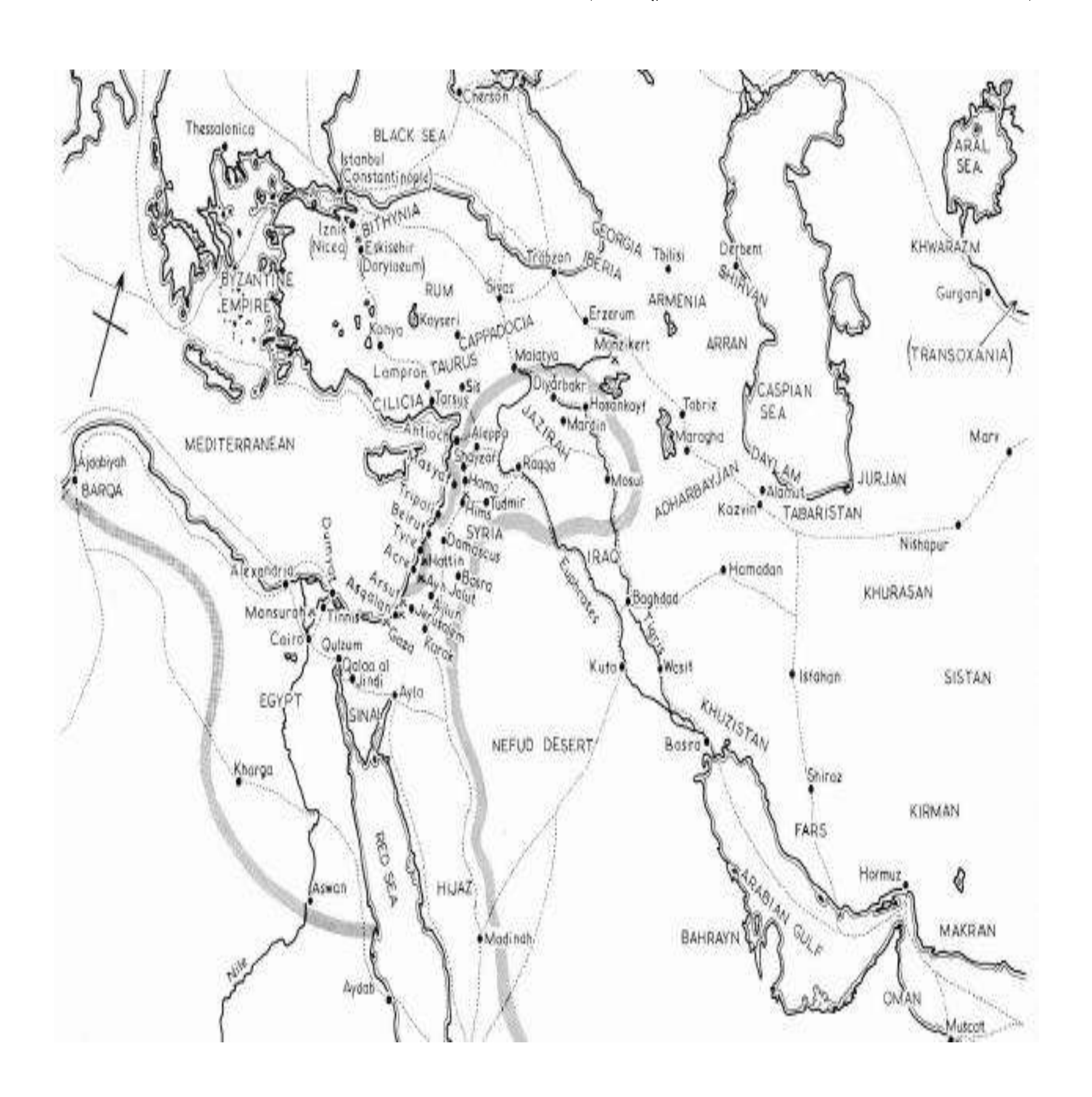
نصر حطين) وفتح بيت المقدس ... إلى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد ... واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب (يقصد فرنجة أوربا مع مسانديهم من الإنجليز والألمان)، وخروج نجداتهم (انطلاق الحملة الصليبية الثالثة، المعدة أعتى الحملات الصليبية إلى جانب النظامية الأولى، وأكثرها قوة وجاهزيةً)، وكثرتها وقوّتها، ومنعتها، وغناها وثروتها ... وأن ثغرنا حصره العدو، وحصرنا نحن العدو، فما تمكن من قتال الثغر، ولا تمكن من قتالنا، وخندق على نفسه عدة خنادق، فما تمكنا من قتاله، وقدّم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرتين إلى عسكرنا؛ فكسر العدو الكثير أقله، فإنه اغتنم أوقاتاً لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ... وأن أمر العدو مع ذلك قد تطاول (الحرب استمرت سجال)، وخطبه قد تمادى ونجدته تتواصل؛ ومنها ملك الألمان (يقصد حملة الإمبراطور فريدريك برباروسا، الذي سعى سلاجقة الروم إلى صده مراراً؛ في غربيّ الأناضول، حتى غرق مع أغلب جيشه في نهر السالف بأرمينية) في جموع جماهيرها مجمهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة، وأن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ...

وتذكّر أن الله قصم طاغية الألمان، وأخذه أخذةً فرعونية؛ بالإغراق في نهر الدنيا، الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة ... وإن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولاً قوياً، مستعداً؛ يقطع بحره ويمنع ملكه (إشارة إلى أسطول الدولة الموحدية، في المتوسط، والقاضي الفاضل يشير إلى

الحاجة إلى تسخير مراكبه؛ لقطع الإمدادات الأوربية، عن جيوش الحملة الصليبية الثالثة، بالساحل الفلسطيني) لأخذنا العدو بالجوع والحصر، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي مُيسرةً، والعدة منها مُتوفرةً، والرجال في اللقاء فارهة، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار؛ وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار ... وما رأينا أهلاً لخاطبنا ولا كفؤاً لإنجادنا، ولا محقوقاً بدعوتنا، ولا ملبياً بنصرتنا إلا ذلك الجناب، فلم ندعه إلا لواجب عليه ... تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها، ويستطير في الشرق سناها ... فلم يبق إلا الاستخارة والتسمية، ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الأشتية، والله سبحانه يوفق الأمير، ويُسهل سبيله، ويُهدي دليله، ويكلؤه بعينه، ويمده بعونه ... ويُيسر له أمره، أن شاء الله تعالى، وكُتب في ثامن وعشرين شعبان، سنة ست وثمانين وخمسمائة . [1]

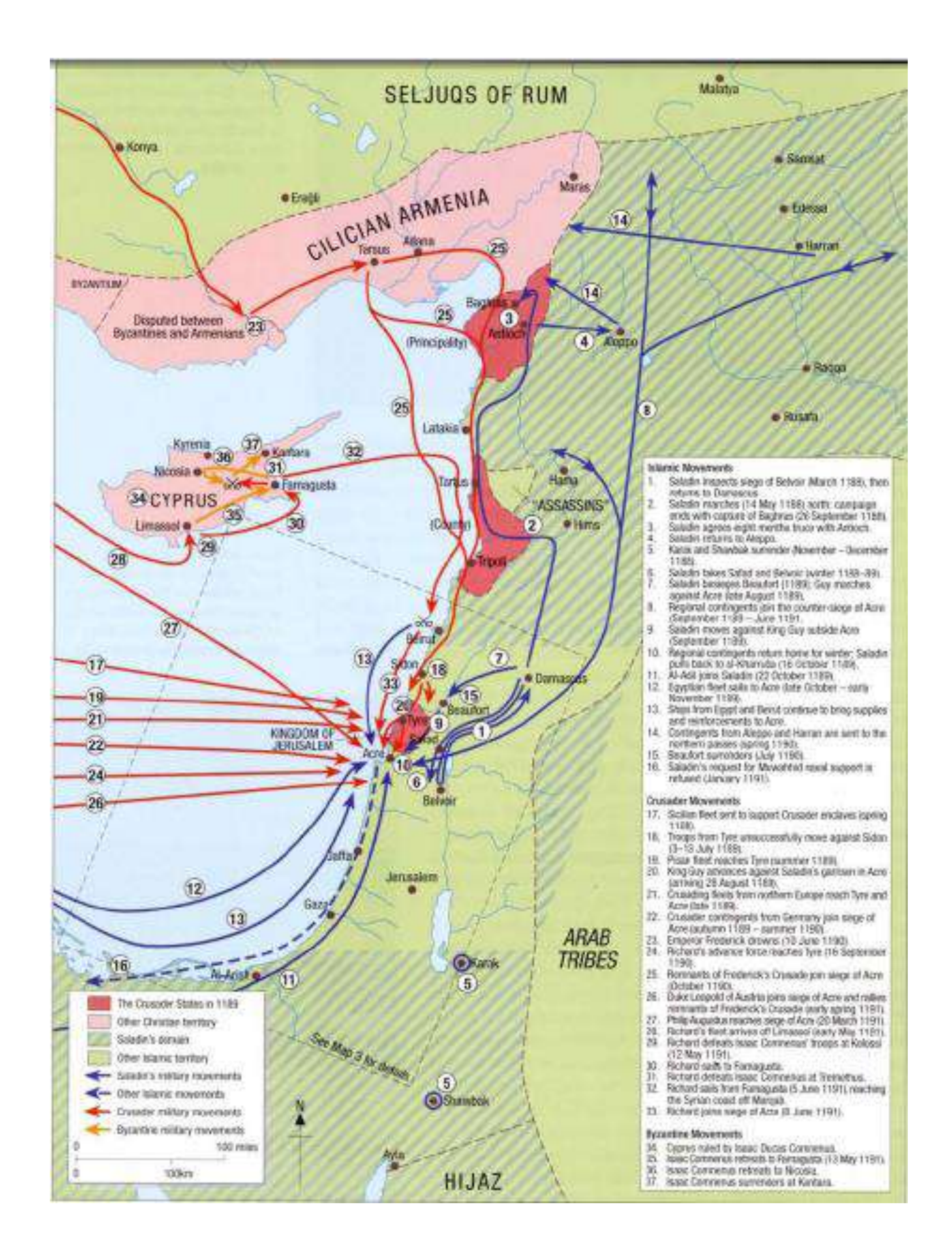
[1] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج 4 ، ص 112 .

(الخرائط والصور والشواهد التاريخية)

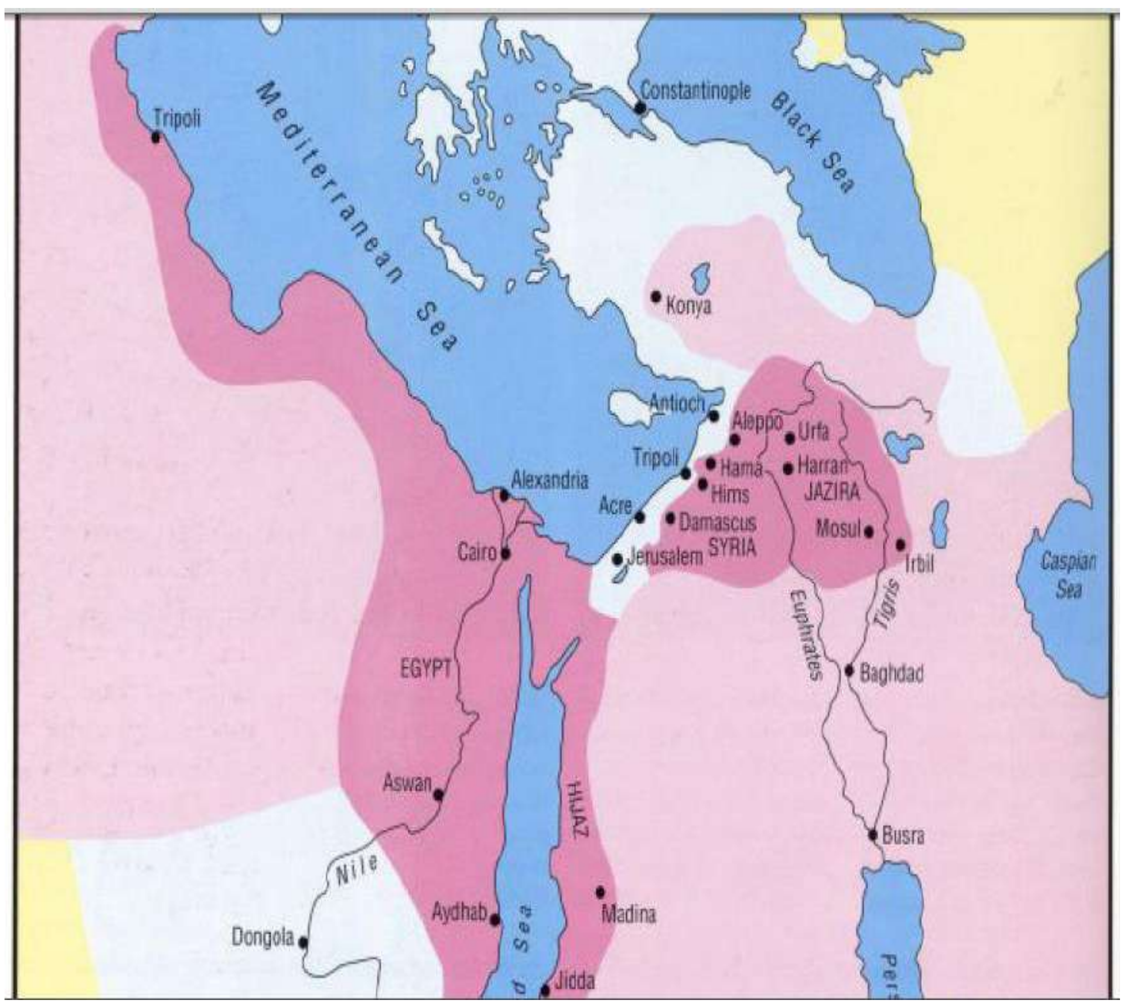


الدولة الصلاحية الأيوبية ، الحدود السياسية للدولة حتى عام (587هـ/1193 م) . تجدر الإشارة إلى أن الحدود الإدارية/الأقاليم؛ رغم كونها لا تبدو واضحة تماماً؛ إلا أنه يمكن تقسيمها إلى الآتي : إقليم الموصل وأعمالها شرقاً، إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد مابين النهرين شمالاً، بلاد الشام ثم الديار المصرية، وإقليم برقة غرباً، نزولا إلى أسوان ومروراً بلاد النوبة، ثم أرض الحجاز والديار المقدسة، ثم بلاد اليمن جنوباً

Nicolle , Saladin And The Saracens , p 4 .

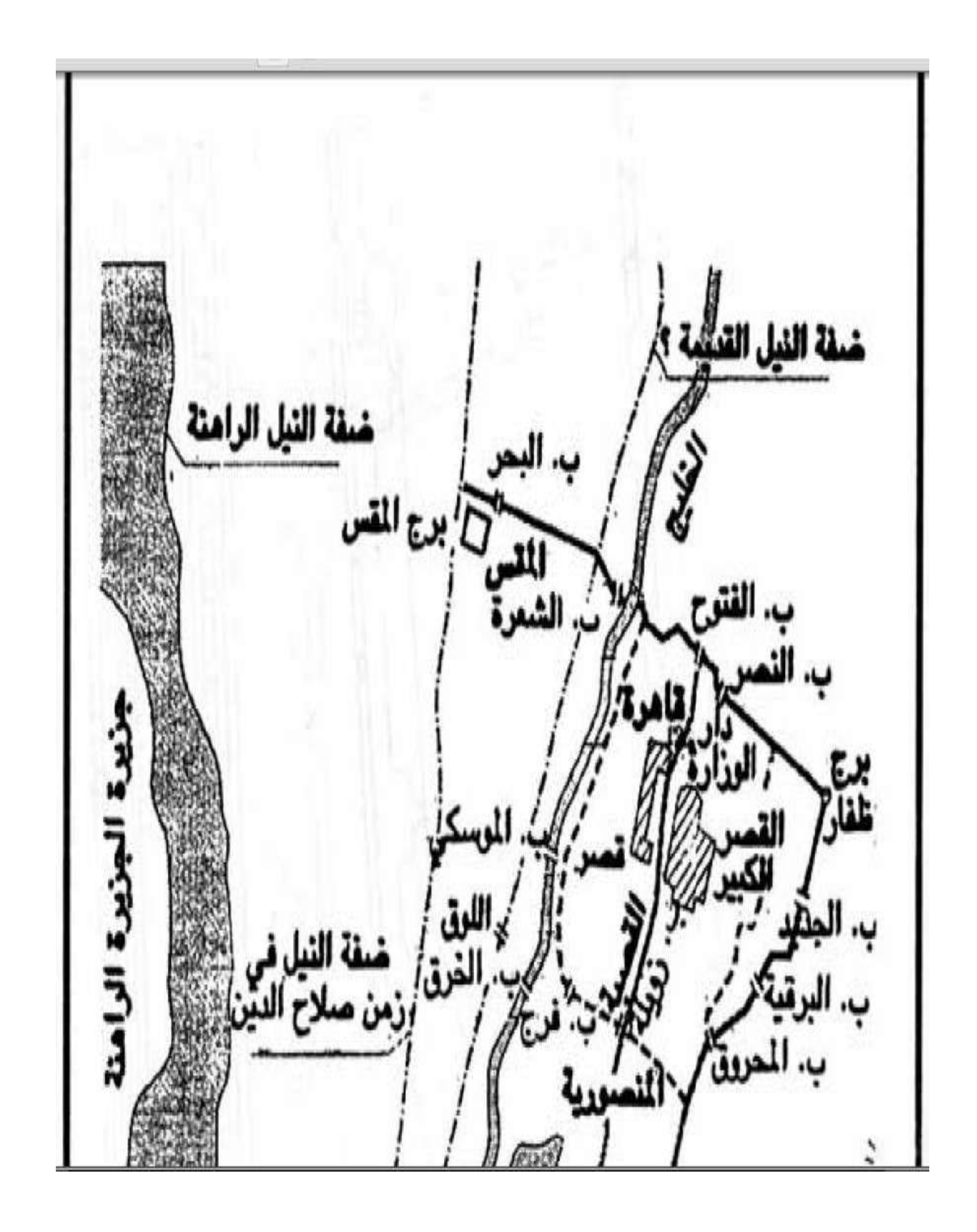


أحداث وخطوات الحملة الصليبية الثالثة، في شرق المتوسط والساحل الشامي، وبعض أجزاء المشرق الاسلامي، والتي تمكنت دولة صلاح الدين من صدها . كما يُلاحظ؛ فإن كثرة الأسهم والإشارات، كاتجاهات من منطلقات الفعل، وعن وردود الفعل، هو مؤشر واضح عن مدى ضخامة وفداحة تلك الحملة، وبالتالي تشعبها وتعقدها، ومن تم ردود الفعل الايوبية الاسلامية عليها Nicolle , The Third, Crusades , p 41.

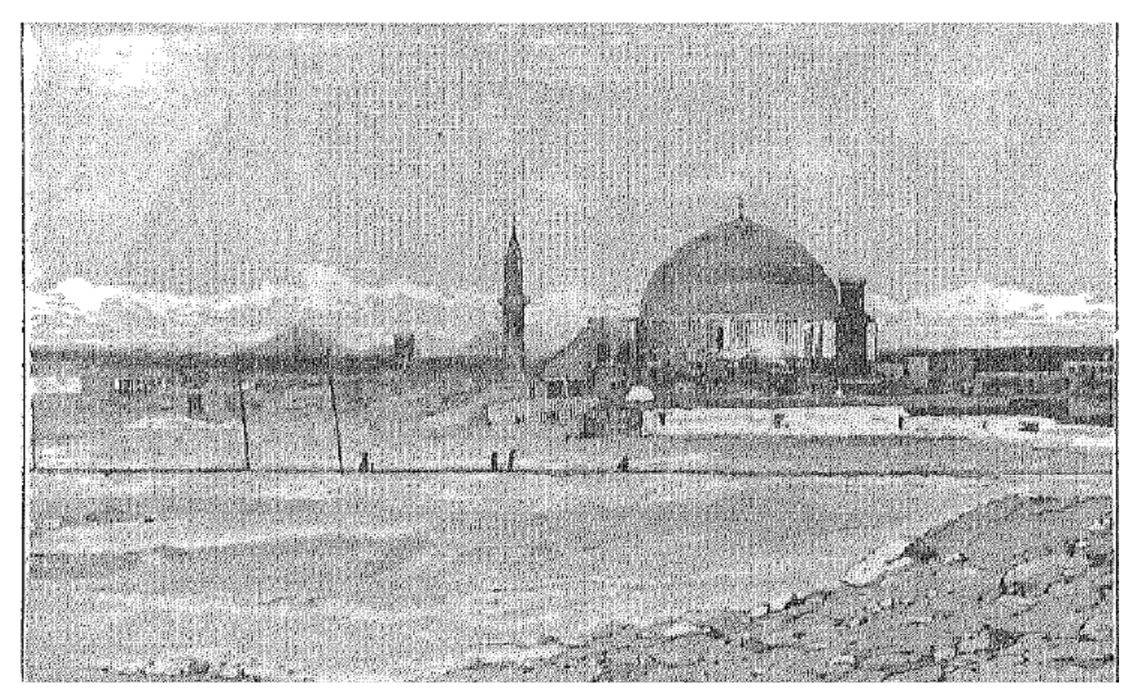


دولة صلاح الدين الأيوبي، والبلدان المجاورة لها، كما هو ظاهر على الخارطة: الدولة الصلاحية في مصر والشام والأقاليم التابعة لها فيما بين النهرين، وأعالي العراق، وبرقة، مع ملاحظة أن اقليم طرابلس وشرق أفريقية، لم يدخلا رسمياً كما يظهر على الخارطة في سلطة صلاح الدين، وإنما كان خضوعاً مؤقتاً، سعت دولة الموحّدين المغاربة إلى إلغائه، بعد أن طرأ خلال غزوة القائد المملوكي، قراقورش، لأفريقية . وهناك أيضاً بلاد النوبة وأطراف الحجاز، التابعتين للسلطة الايوبية، كما تظهر كذلك المناطق الإسلامية والمسيحية وحتى الوثنية المجاورة ، فإلي الشرق هناك الخلافة العباسية في العراق، وسلطنة سلاجقة بلاد فارس في ايران، وسلاجقة الروم في قونية بالاناضول شمالاً، وإلى الشمال أكثر، ثمة أصقاع وثنية نائية ومعزولة بعض الشئ عن مسرح الاحداث، بينما تقع في غرب دولة سلاجقة الروم؛ ممالك الأرمن المسيحيين في قيليقليا بغرب الاناضول، قرب الحدود البيزنطية. إلى الجنوب تقع الإمارات الصليبية في أنطاكية، طرابلس، الى جانب مدينة عكا، ومملكة بيت المقدس، وهي مراكز رئيسية متاخمة باستمرار لحدود الدولة الصلاحية الايوبية في الشام، وكانت الاجواء المتاخمة هذه من بين عديد الأسباب التي عززت من فاعلية و(دينامية) حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين .

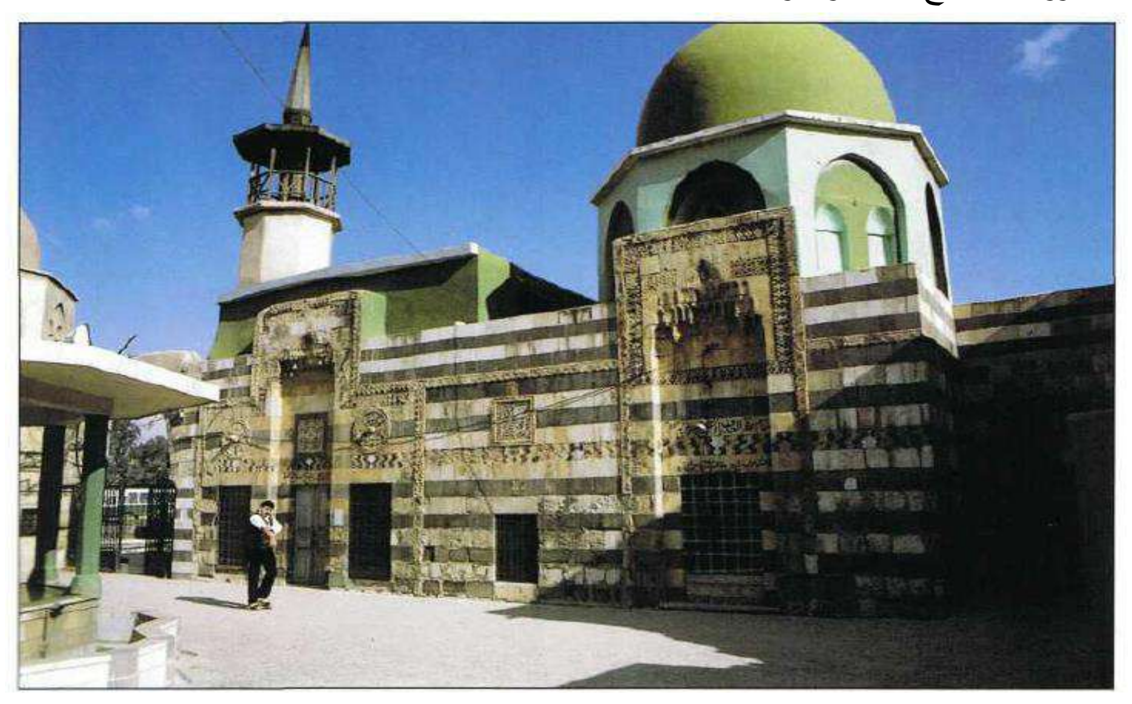
الصورة نقلاً عن : Nicolle , Hattin 1187 , Osprey Military , P 10



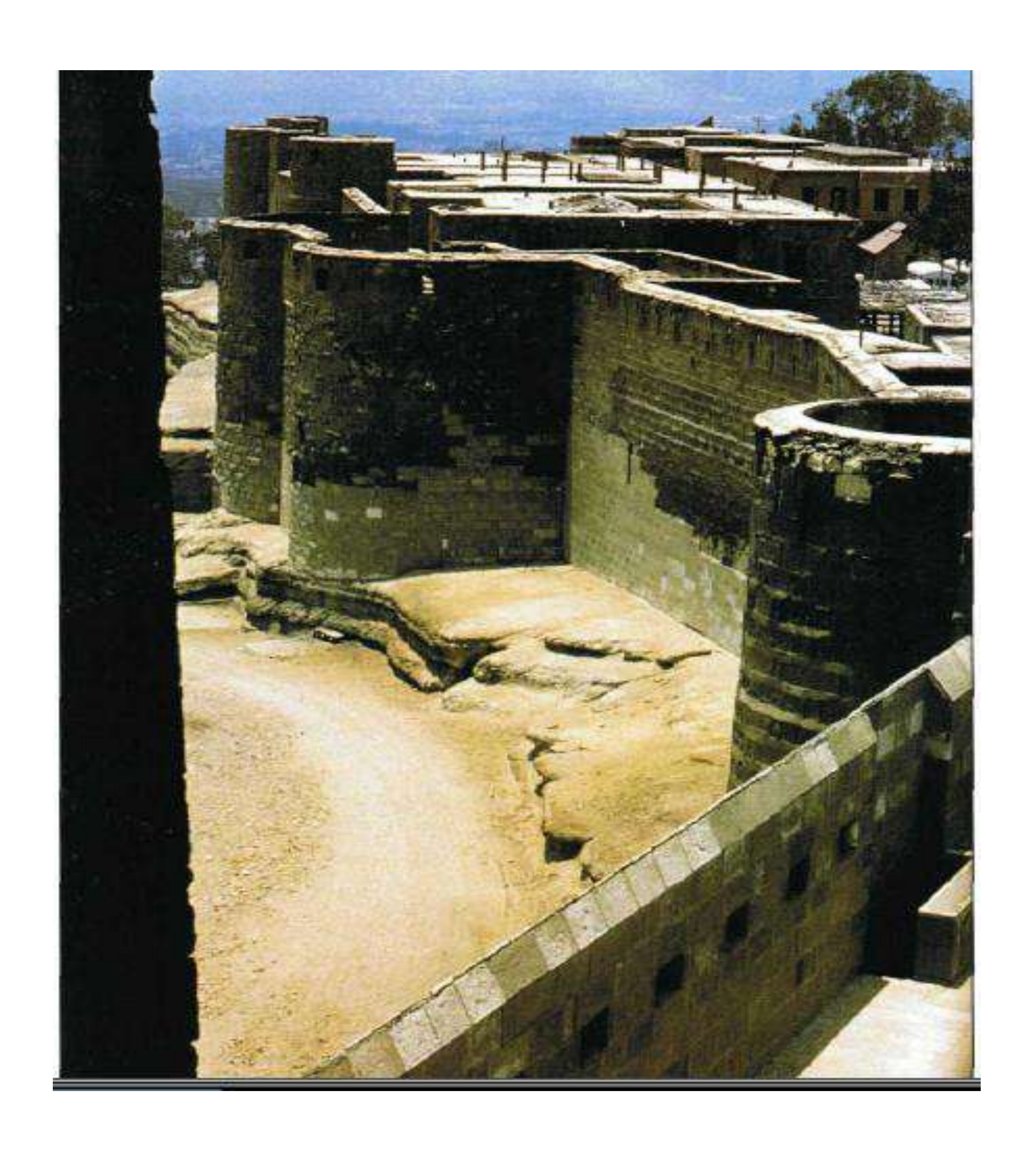
خارطة القاهرة الأيوبية في عهد صلاح الدين : أبراجها وأسوارها وأبوابها ورياضها ومؤسساتها؛ نقلاً عن : خالد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، زهراء الشرق ، (د.م) ، (د.ت) ص 236



رسم قديم لمسجد الإمام الشافعي بالقاهرة، وهو نموذج أساسي حول توجهات الدولة؛ أيديولوجياً وشافعياً داخل الاوساط السنية في مصر الايوبية على عهد صلاح الدين . المشهد نقلا عن : لين بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ، ص 336 .



نموذج إسلامي شامي، من عصر صلاح الدين بدمشق؛ لأحد الأضرحة الدينية التي تعمل عمل المدارس والمعاهد الدينية في آن واحد . والضريح منسوب لأحد شيوخ المنطقة يدعى رسلان، أحد مشايخ الشام، في فترة نور الدين وصلاح الدين . والمشهد وتزييناته، مثال حي على مدى إهتمام الدولة الإسلامية – سيّما عهد صلاح الدين، وفي الحقبة الصليبية بالذات – بالأئمة والفقهاء ورؤساء المذاهب وعموم المشائخ : Nicolle , The Crusades , p 62



جانب من أقسام سور وحصن القاهرة الضخم، والابراج التابعة له : برج الرملة الشهير، برج الإمام، برج ساندي . الجدير بالذكر أن سور القاهرة الشهير هذا؛ والذي أتينا على ذكره فيما يتعلق بالمشاريع والانفاقات، في مبحث المالية الصلاحية؛ كان قد استغرق جهداً كبيراً ومالاً كثيراً، ووقتا طويلاً، إذ استمر العمل والبناء فيه؛ حتى بعد عهد صلاح الدين، فتطلب مدة خمسٍ وعشرون سنة (579-604هـ/1183-1207م) الصورة نقلا عن :

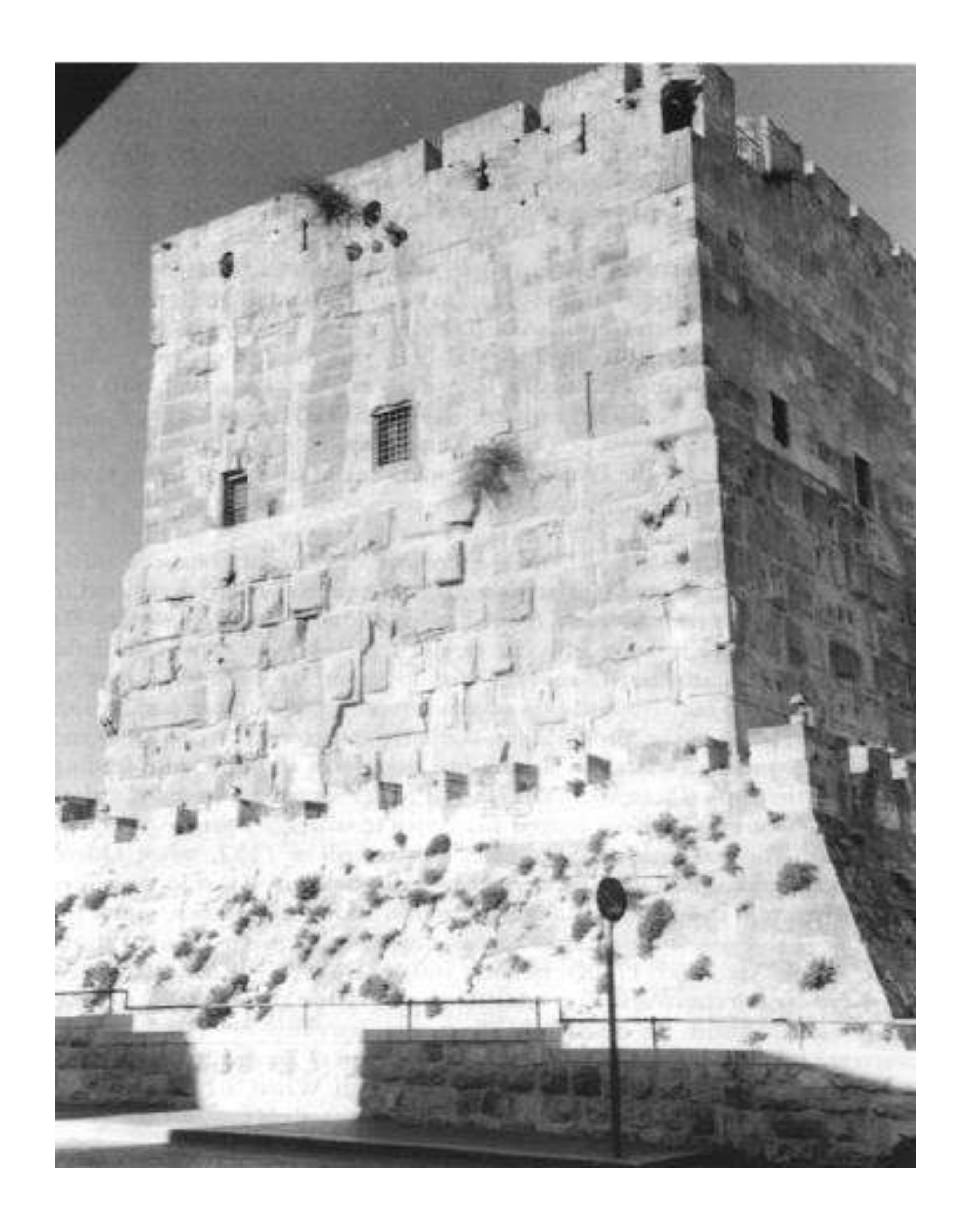
Nicolle , The Crusades , p 35 .



دمشق العتيقة، المدينة الرئيسية الأولى في القطر الأيوبي الثاني بالدولة الصلاحية وهو الشام، الصورة لجانب من ساحتها القديمة في الحميدية حيث يقع تمثال صلاح الدين :
WWW . Castle Damascus Syria



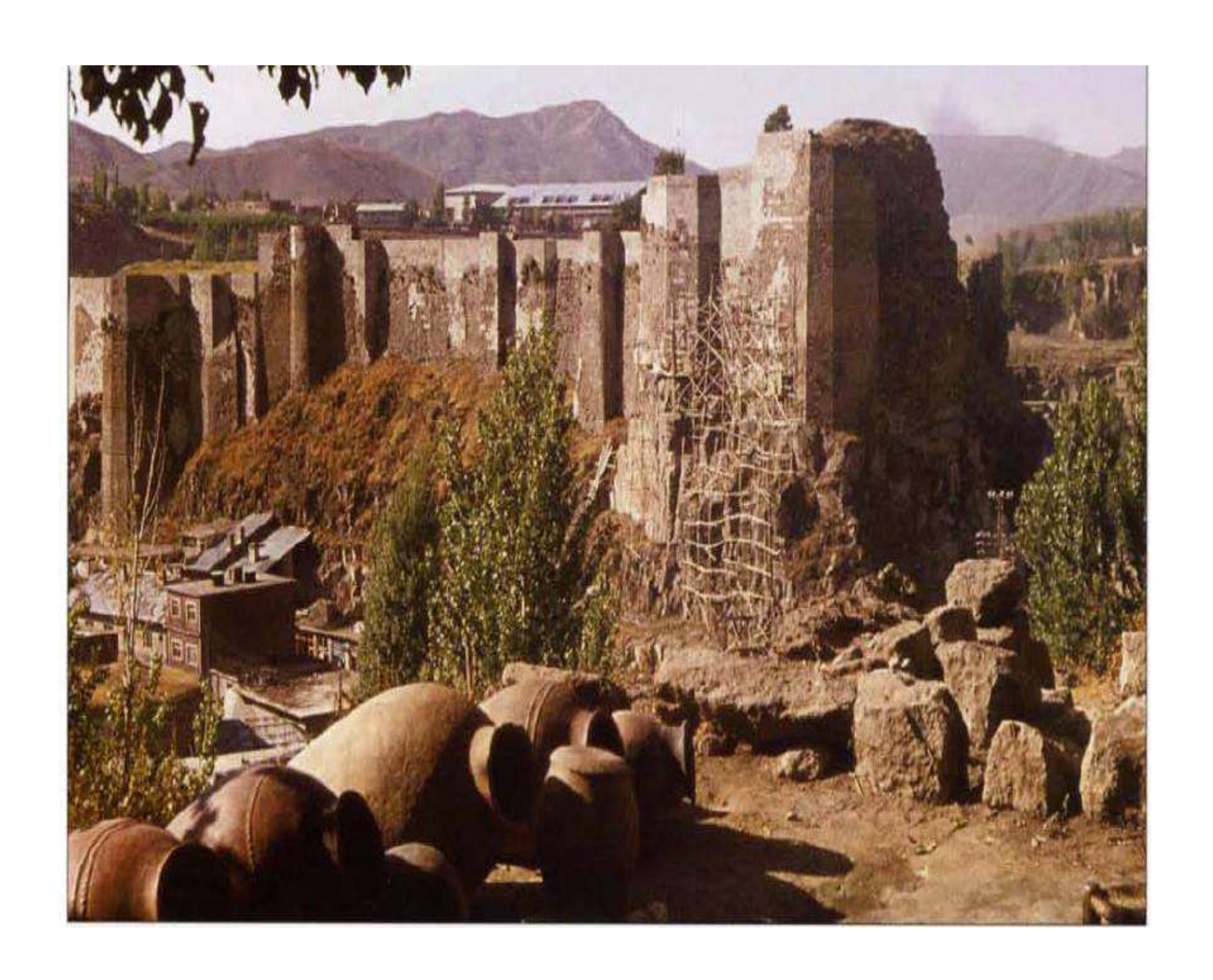
قلعة حلب ، المدينة الرئيسية الثانية في الشام، فُتحت سلماً بتخطيط وتدبير القاضي الفاضل، بُعيد مراسلات شاقة أقتنع خلالها الزنكيين، بضرورة الوحدة والجهاد لأجل إنجاح القضية الاسلامية و استمرار النضال ضد الصليبيين : WWW . Castle Aleppo Syria



جانب من مدينة القدس القديمة، التي تولى المؤرخ الشهير ابن شداد شؤؤن قضاء العسكر بها، وذلك بعد فتحها عام (583هـ/1187م) وقد أقام القاضي محي الدين بن الزكي – وهو أحد القضاة البارزين الذين سبق وأن أشرنا اليهم – أول خطبة إسلامية فيها عقب الفتح . الصورة لأحد جوانبها من جهة برج داوود نقلاً عن : Adrian Boas . Crusades Archaeology Rout Ledge , London - New York , 1999 , p 17 .

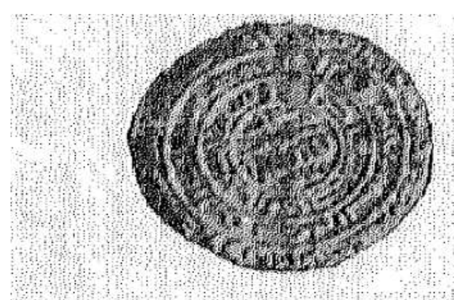
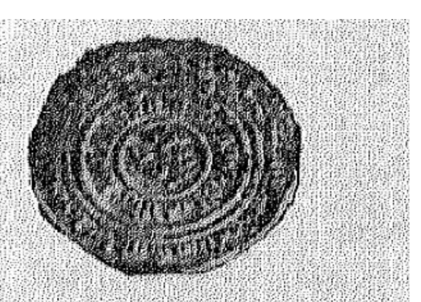


حصن كيفا بأعالي الفرات في دياربكر؛ أحد الحصون الاقطاعية في العهد الصلاحي، وكان نورالدين بن قره أرسلان؛ صاحب الحصن والآراضي التابعة له؛ أحد الحكام التركمان ممن انخرطوا بكفاءة، في سلك الخدمة الاقطاعية السلطانية الايوبية : Nicolle , The Third Crusades , p 34



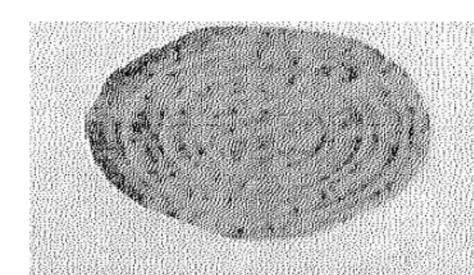
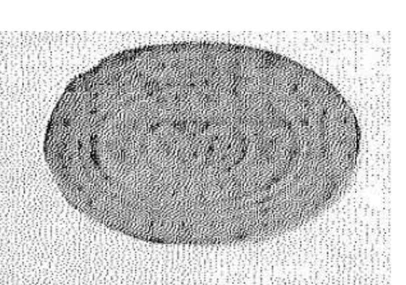
كان الأمير الايوبي تقي الدين عمر؛ الملقب بالملك المظفر؛أحد أبرز الفرسان الاقطاعيين بالدولة، وكان يعمل باستمرار على تعبئة الدولة بالجهاد عبر نظام التجنيد الاقطاعي، كما كان صاحب تطلعات متزايدة كما سبق وأن أشرنا، في امتلاك الحصون والقلاع الاقطاعية الواقعة فيما بين النهرين وأعالي الفرات؛ وجنوب شرق الاناضول وبعض نواحي الشام . الصورة لأحدى قلاعه الاقطاعية الضخمة بجنوب شرق (تركيا)

Nicolle , The Third Crusades , p 53 .

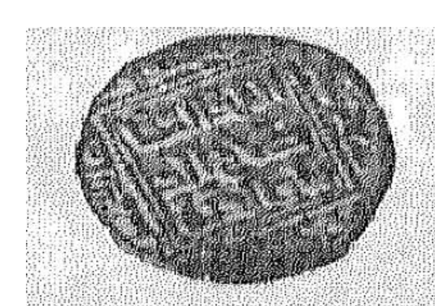
GOLD COIN OF NUG-ED-DIN ISSUED BY SALADIN AT CAIRO IN 1173.

عملة ذهبية باسم نور الدين محمود، صدرت بأمر السلطان صلاح الدين في أوّل حكمه بالقاهرة عاصمة الدولة الايوبية الناشئة؛ عام (569هـ/1173م) : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 336 .

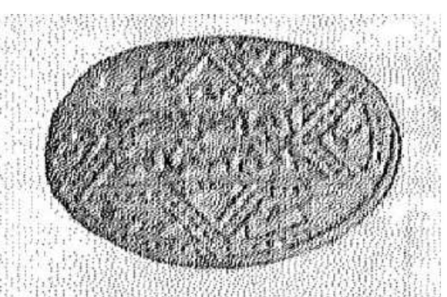
GOLD COIN OF SALADIN STRUCK AT ALEXANDRIA IN 1183.

عملة ذهبية ضُربت في الأسكندرية باسم صلاح الدين عام (579هـ/1183م) : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 337 .



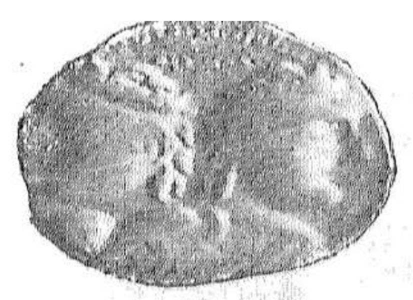

SILVER COIN OF SALADIN STRUCK AT DAMASCUS IN 1177.

دراهم فضية تحمل فيما يبدو اسم صلاح الدين، وقد صُكت في دمشق العاصمة الثانية بالدولة : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 342 .

SILVER COIN OF SALADIN STRUCK AT ALEPPO IN 1186.

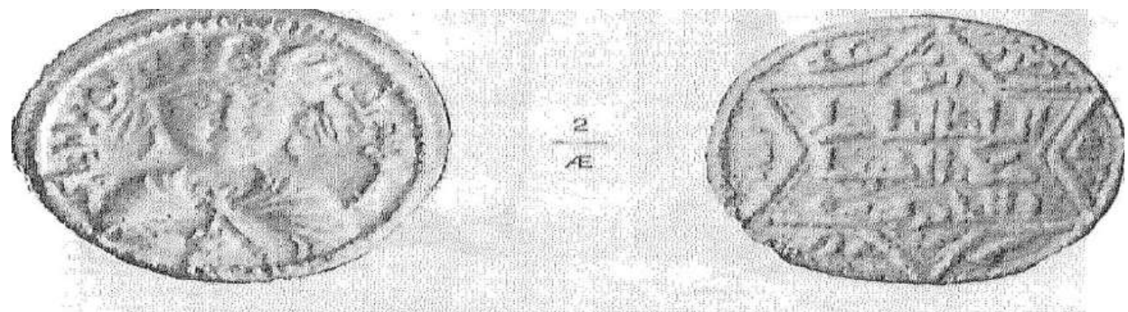
دراهم فضية صلاحية من مدينة حلب، المدينة البارزة الثانية في الشام والتي كانت قبل عهد صلاح الدين تتبع للنظام الزنكي الأتابكي : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 345 .





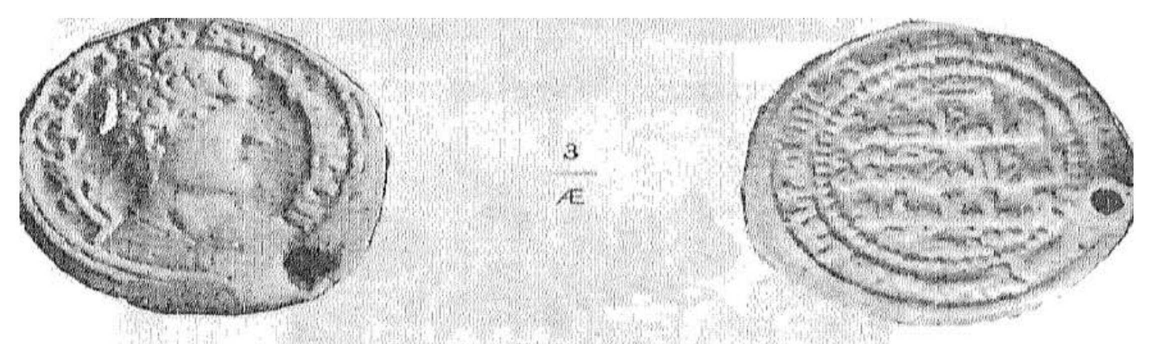

THE PRINCE OF KEYFA.

كان النظام الصلاحي ذا النهج (الفيدرالي) الاتحادي، بين القوى والتكتلات الاسلامية المستقلة، الزنكية والأرتقية وغيرها؛ يسمح بممارسة الأحكام الذاتية، للحلفاء والأتباع الاتحاديين من الأمراء الفرسان، والقادة الاقطاعيين بالمشرق . في الصورة؛ عملة الحاكم نور الدين بن قره أرسلان بن أرتق، حاكم حصن كيفا، والحصون والأعمال الأرتقية التابعة له بأعالي الفرات، وهي من الامثلة الحية؛ على اتحادية النظام الايوبي عهد صلاح الدين . الصورة نقلا عن : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 347 .

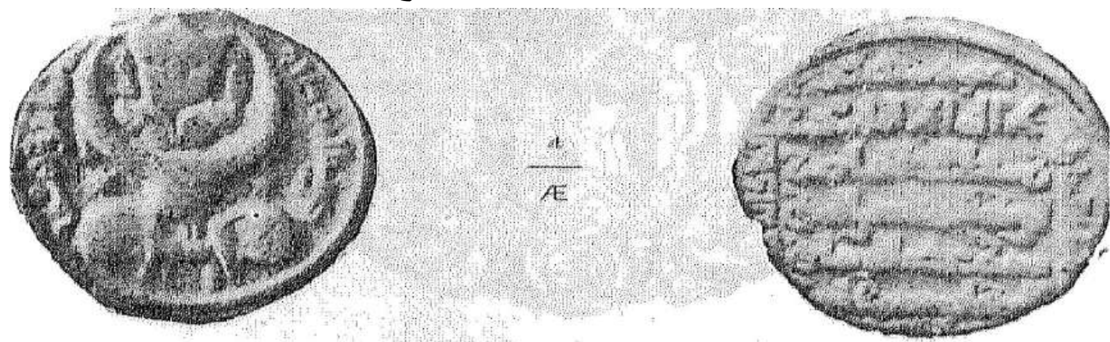


THE PRINCE OF MARIDIN.

أمير ماردين، لم نتمكن من التعرف على اسمه بالضبط، لكن ما نؤكده أنه أحد أشقاء نور الدين بن قره أرسلان، الحاكم المذكور آنفا، إذ أن بلاد أمد وماردين وحصن كيفا بديار بكر، وأعالي الفرات، ظلت في تلك الحقبة الصليبية في يد الأراتقة؛ أبناء وأحفاد سقمان بن أرتق، أحد قادة المقاومة الاسلامية الأولى في المشرق. الصورة نقلاً عن : لين بوول ، صلاح الدين، ص 347.



عملة نقدية تتبع لمظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك، حاكم أربيل بأطراف العراق، وهو أحد الفرسان الإقطاعيين البارزين في الشرق الاسلامي، والمساهمين في تثبيت الدولة، وتعبئتها بالجهاد ضد الصليبيين، من جانب آخر يمكن ملاحظة أن السادة الاقطاعيين من الأمراء والفرسان؛ كانوا قد تحصلوا على ضمانات كافية من النظام الايوبي، بالاحتفاظ بحقوقهم الداخلية، وصك النقود والأختام وممارسة كامل سيادتهم الذاتية، داخل حدود اماراتهم وإقطاعياتهم نصف المستقلة، مقابل الاعتراف بالسلطة الصلاحية، والدخول في الخدمة السلطانية، مع ابداء الخضوع والولاء، وانتهاج العدالة والجهاد ضد الفرنجة، وإمداد الدولة بالعساكر وقت الطلب. الصورة نقلاً عن : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 347 .



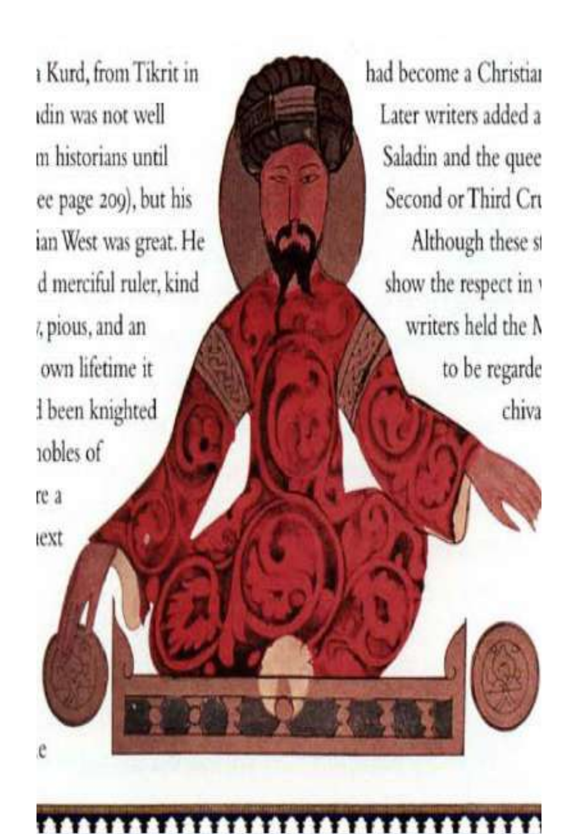
عملة زنكية نحاسية، من أتابكية الموصل الزنكية، والمنضوية تحت لواء الدولة الصلاحية الاتحادية، وهي تتبع لسيف الدين غازي بن قطب الدين مودود زنكي، وهو أحد أبرز الأمراء والحكام الترك المسلمين؛ ممن كان يقف بعساكره وراء فتوحات صلاح الدين الايوبي، سيّما على الساحة الصليبية : لين بوول ، صلاح الدين ، ص 347 .



عملات نحاسية تتبع لدولة صلاح الدين، تظهر على احدها – على اليمين – بعض التأثيرات البيزنطية على رأي المؤلف، وإن كانت في تقديرنا تأثيرات شعبية أسطورية شرقية، فارسية ربما؛ أو صينية أو ماشابه، مع وجود أحرف عربية حولها، والثانية تُظهر صلاح الدين بملابس شرقية؛ عمامة وجُبة فضفاضة. الأولى صُكت في نصيبين والثانية في شمال العراق :
Nicolle , The Third Crusades , p 53 .



إناء خاص بالملك العادل سيف الدين أبي بكر، شقيق صلاح الدين؛ يعكس اهتمامات الأمراء الايوبيين بتقاليد الصيد والقنص والرماية والفروسية؛ المُعدة جزء من ثقافة الأمراء الفرسان، والقادة العسكريين في تلك الفترة : Oneal . The Crusades Almanac , p 100 .





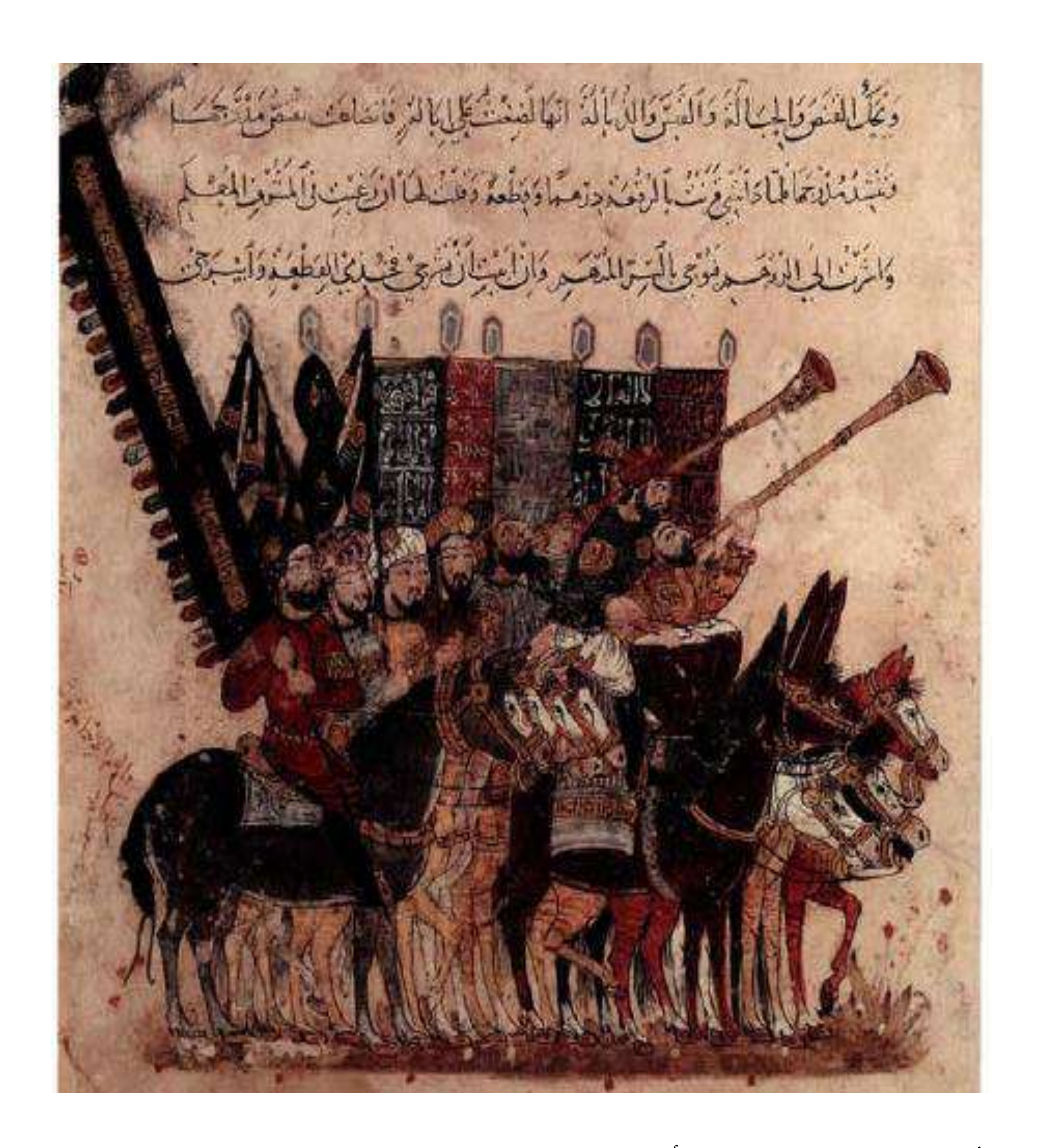
على اليمين؛ صلاح الدين في مجلسه، مجلس الشورى أو في دار العدل والقضاء– كما يبدو– صحبة نُخبة من شخصيات الدولة؛ الأمراء والقادة والقضاة والفقهاء؛ من ذوي الرأي وصناع القرار.: قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص 447 . وعلى اليسار صورة لصلاح الدين في رسم قديم، يرجع إلى مخطوطة أيوبية مصرية؛ خُطت سنة (576هـ/1180م)، الصورة تُظهر صلاح الدين جالسٌ على سرير المُلك، ويرتدي ملابس رسمية، ثوب سلطاني أحمر واسع الأكمام، وجبة طويلة وعمامة سوداء، مع ملامح شرقية وسطى، وبتأثيرات سلجوقية آسيوية واضحة .:
Madden , Crusades The Illustrated History , 93 .




النسر الأيوبي ذو الرأسين؛ الشعار الرسمي لدولة صلاح الدين، وسط علم الدولة الأصفر:

1- Ayyubids coins

2- WWW. Ayyubids Archeology . Net



نُخبة من مقدمي العساكر الأيوبية والزنكية والسلجوقية، والتركمانية وغيرها، من عساكر المشرق بالجيش الإسلامي الأيوبي، وهم من أمراء الفرسان وقادة الجهاد عهد صلاح الدين. وكما هو واضح فإن الاستحكامات العسكرية، والتجميلات والتزيينات، والأعلام والرماح؛ تبدو بارزة، والقادة يتأهبون للانطلاق كما تتأهب الجياد للركض، أبواق المبادرة والهجوم تُطلق بأعلى الصيحات، وبروح معنوية مرتفعة، لتحديد شارة الانطلاق، وبث الهلع في نفوس خصومهم من الفرنجة، وباقي الصليبيين :

Madden , Crusades The Illustrated History , P 69



كان الجهاد الإسلامي ضد الفرنجة؛ من بين أهم الأولويات في الدولة الصلاحية، وهو أيضاًً من بين أهم الأشياء التي أثّرت في تداخل التركيبة السياسية والإدارية، للدولة الأيوبية، فقد كانت بُنية الدولة كلها تقريباً تتقاطع إلى حد كبير؛ مع الجهاد، أو تصب في إطار تفعيله ودعمه، إلى جانب دعم العمليات العسكرية الشاقة ضد الصليبيين، وقد كانت ذات أثر ونتيجة واضحة فيه، ناهيك وأن المنطقة الساحلية الممتدة من إمارة أنطاكية شمالاً، حتى عسقلان على الحدود المصرية جنوباً، والمحتلة لأكثر من تسعين عاماً، كانت في أغلب أجزاءها قد أُستردت في مجرد بعضة أشهر، بعد تحطيم القوى الصليبية مجتمعة في حطين . الصورة رسم من مخطوط لاتيني يتبع للراهب الانجليزي؛ ماثيو الباريسي؛ يظهر صلاح الدين ومعاونيه، يفتكون خشبة الصليب من بين أيدي أمراء الفرنجة، وملكهم؛ غي لوزنيان؛ دلالة على النصر الإسلامي في مقابل الانتكاسة الصليبية الواضحة : Christopher Tyerman. Fighting For Christendom . Oxford University Press , GBR, 2004 , p 51 .



صلاح الدين أمام سور قلعته، مع حرسه المشاة، المحيطين به ، وهم حرس خاص من فرق الجاندارية؛ أي (حفظة الأرواح) كما سبق وأن تعرضنا لهم، باعتبارهم جزء من موظفي الدولة؛ من موظفي السلطان تحديداً، وأبرز خواصه، فلا أحد يدخل على السلطان دون رفقة أمير جاندار . موقع الصورة أمام فناء قلعة دمشق قرب سوق الحميدية بدمشق القديمة :
Tyerman , Christopher . The Crusades Avery Short Introduction , P 6 .

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً : المصادر العربية :-

1- القرآن الكريم ؛ برواية حفص بن سليمان الأسديّ الكوفيّ .

2- ابن الأثير ، أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/ 1232م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق، عبد القادر طليمات ، الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت) .

3- الكامل في التاريخ ، تحقيق، يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط4 ، 2003.

4- الإدريسي ، الشريف محمد (ت560هـ/1165م) نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، إصدار منظمة اليونسكو ، (د.م) ، 1996 .

5- الأرمني ، الشيخ أبي صلح ، أخبار من نواحي مصر وإقطاعها ، المطبعة المدرسية ، أكسفورد ، 1893 .

6- الأصفهاني، العماد الكاتب محمد بن صفي الدين، (ت597هـ/1200م) تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، 1900 .

7- الفتح القسيّ في الفتح القدسيّ، دار المنار ، (د.م) ، 2004 .

8- البرق الشامي، تحقيق، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995.

9- خريدة القصر وجريدة العصر، موقع الورّاق، http:/www.alwarraq.com

10- ابن أيوب، تاج الدين شاهنشاه، (ت617هـ/1220م) كتاب التاريخ، تحقيق، بكر إبراهيم، دار صلاح الدين للتراث، 2000 .

11- البدري، أبي البقاء عبد الله، (ق 9هـ/15م) نُزهة الأنام في محاسن الشام، الرائد العربي، بيروت، 1980 .

12- البغدادي ، عبد القاهر بن ظاهر (ت429هـ/1037م) الفرق بين الفرق، تحقيق ، محمد الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة (د.ت) .

13- ابن تغرى بردي ، جمال الدين أبو المحاسن (ت875هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت).

14- الجبرتي ، محمد (ق13هـ/19م) المختار من تاريخ الجبرتي، اختيار، محمد قنديل، دار الشعب ، القاهرة ، ط2، 1993 .

15- ابن جبير ، محمد بن أحمد (ت614هـ/1217م) رحلة ابن جبير ، دار صادر، بيروت ، (د.ت) .

16- ابن جعفر ، قُدامة بن زياد ، الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق، محمد الزبيدي ، دار الرشيد ، العراق ، 1981 .

17- ابن الجوزي، جمال الدين أبوالفرج (ت597هـ/1201م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق، محمد عطا ، الكتب العلمية ، بيروت ، 1992.

18- الحريري، احمد بن علي، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين علي ديار المسلمين، تحقيق، سهيل زكار، مكتبة الملاح ، دمشق ، 1981 .
19- الحريري ، سيد علي ، الأخبار السنية في الحروب الصليبية ، المطبعة العمومية، مصر، 1899 .
20- الحسيني، صدر الدين علي، (ت575هـ/1180م) زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق، محمد نور الدين، دار اقرأ، بيروت، 1985.
21- الحموي، ياقوت شهاب الدين، (ت626هـ/ 1229م) معجم البلدان ، صادر ، بيروت ، 1977.
22- الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ/ق1494م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، هيدلبرغ، بيروت ، 1984.
23- الحنبلي، عبد الحي أحمد (ت1089هـ/ 1679م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق، عبد القادر الأرناوؤط وآخرون، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1989 .
24- الحنبلي العليمي ، مجير الدين أبو اليمن ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، 1973 .
25- بن خردادبة ، أبو القاسم عبيد الله ، المسالك والممالك ، بريل ، ليدن، 1889.

26- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/ 1406م) المقدمة، تحقيق وضبط، خليل شحاذة ، سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2001 .

27- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد ، (ت681هـ/ 1281م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق، إحسان عباس ، صادر ، بيروت ، (د.ت).

28- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت) .

29- أبو الدم الحموي ، شهاب الدين إبراهيم، (642هـ/1244م) التاريخ المظفري، تحقيق؛ سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995 .

30- الدواداري، أبو بكر بن أيبك ، (تـ بعد 736هـ/1335م) الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق سعيد عاشور، (د.ن) القاهرة، 1972.

31- الذهبي ، الحافظ شمس الدين ، (ت748هـ/ 1347م) العبر في خبر من غبر، تحقيق، محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985 .

32- المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق، خضير المنشداوي، الكتاب العربي، بيروت، 1988 .

33- دول الإسلام ، تحقيق ، حسن مروة وآخرون، صادر بيروت، 1999 .

34- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر (ت654هـ/1256م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، 1951.

35- السبكي، تاج الدين أبي نصر، (ت771هـ/1369م) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، محمد الطناحي وآخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، (د.ت) .

36- السخاوي، شمس الدين محمد، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الكتاب العربي ، بيروت ، 1979.

37- ابن سلام ، أبو عبيد القاسم ، كتاب الأموال، تحقيق، محمد عمارة، الشروق، بيروت، 1989 .

38- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/ 1505م) تاريخ الخلفاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، 2003 .

39- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن، (ت665هـ/1266م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، الكتب العلمية، بيروت، 2002.

40- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد، (ت890هـ/1485م) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق، عبدالله درويش، الكتاب العربي ، دمشق، 1984.

41- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن، (ت632هـ/1239م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق، بكر إبراهيم، صلاح الدين للتراث، القاهرة ، 2000 .

42- الشريشي ، أحمد بن عبد المؤمن القيسي ، (ت619هـ/1222م) شرح مقامات الحريري، تحقيق؛ محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1992 .

43- الصفدي ، صلاح الدين أيبك (ت764هـ/ 1363م) الوافي بالوفيات، تحقيق، أيمن سيد، فرانزشتايز للنشر، شتوتغارت، 1991.

44- الصيّرفي ، أمين الدين أبي القاسم ، (ت542هـ/1147م) القانون في ديوان الرسائل ، تحقيق ، أيمن سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1990 .

45- ابن العديم ، كمال الدين عمر، (ت660هـ/ 1261م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1954 .

46- العمراني ، محمد بن علي (ت580هـ/1174م) الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة، 1999.

47- العيني ، بدر الدين أبو محمد (855هـ/1451م) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، الكتب المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1998 .

48- بن غلبون، محمد خليل، (ت بعد1133هـ/1720م) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، اعتناء ونشر، الطاهر الزاوي، القاهرة، 1930 .

49- الفارقي ، أحمد بن يوسف (ق6هـ/12م) تاريخ آمد وميافارقين ، تحقيق ، سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995 .

50- أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (ت732هـ/ 1332م) المختصر في أخبار البشر ، تحقيق ، محمد عزب ، دار المعارف ، القاهرة ، (د.ت) .

51- تقويم البلدان ، صادر ، بيروت ، (د . ت) .

52- التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، تحقيق، محمد عزب، الثقافة الدينية، القاهرة، 1995 .

53- ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ ابن الفرات، تحقيق، حسن الشماع، جامعة البصرة، (د – م).

54- بن قاضي شهبة ، أبوبكر بن أحمد ، طبقات الشافعية ، نسخ وتنسيق، مكتبة مشكاة الإسلامية، .www.Almeshkat.Net/Books

55- القرمانى، احمد يوسف، (ت1019هـ/1610م) أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، تحقيق، أحمد حطيط، وآخرون، عالم الكتب، (د–م)، 1992.

56- القلقشندي، أبي العباس احمد (ت821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915 .
57- ابن القلانسي ، حمزة بن أسد (ت555هـ /1160م) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق، سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ، 1983.
58- ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل (ت774هـ/1373م) البداية والنهاية ، تحقيق، عبدالله التركي ، هجر للطباعة ، الجيزة ، 1998 .
59- الماوردي ، أبي الحسن علي بن محمد (ت450هـ/1058م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق، أحمد البغدادي، مكتبة ابن قتيبة، الكويت، 1989 .
60- المقريزي ، تقي الدين أحمد (ت845هـ/ 1441م)، النقود الإسلامية، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، 1880 .
61- اتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا، تحقيق، محمد حلمي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1996.
62- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عطا ، المكتبة العلمية ، بيروت، 1997 .
63- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار؛ المعروف بالخطط المقريزية ، تحقيق ، محمد زينهم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1998 .
64- رسائل ، تحقيق ، رمضان البدري وآخرون ، دار الحديث ، القاهرة، 1998 .

65- ابن مماتي، الأسعد الوزير (ت606هـ/1209م) قوانين الدواوين ، تحقيق، عزيز سوريال، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991.

66- ابن منقذ، أسامة بن مرشد، (ت584هـ/1188م) كتاب الاعتبار، تحقيق، فيليب حتى، جامعة برنستون ، 1930.

67- النعيمي ، عبد القادر بن محمد (ت978هـ/1570م) الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق ، إبراهيم شمس الدين ، الكتب العلمية ، بيروت، 1990.

68- النويري ، شهاب الدين أحمد (تـ732هـ/1331م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق ، نجيب فواز وآخرون ، الكتب العلمية ، بيروت، 2004 .

69- الهروى ، أبو الحسن علي (ت611هـ/1214م) الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق ، علي عمر ، الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002.

70- بن واصل الحموي، جمال الدين أبو عبدالله، (ت697هـ/1298م) التاريخ الصالحي، تحقيق، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995 .

71- ابن الوردي ، سراج الدين أبو حفص المعري **(852هـ/ 1447م)** خريدة العجائب وفريدة العجائب ، تحقيق ، أنور زناتي ، جامعة عين شمس، (د.م) ، (د.ت) .

72- اليافعي ، عبدالله بن أسعد ، مرآة الجنـان وعبرة اليقظان فـي معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1993.
73- اليمنـي ، عمارة بن أبي الحسن، النكت العصريـة في أخبـار الوزارة المصريـة، تحقيق؛ هرتويخ دربنرغ ، مطبعة مارسو ، باريس ، 1897 .

ثانياً : المصـادر الأجنبية المعربـة :-

1- بورتشـارد ، الراهب ، (ق 7هـ/13م) الأرض المقدسة، تعريـب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1999 .
2- جومـار ، آدم فرنسوا ، وصـف مصـر ، تعريـب ، أيمن سيد، مكتبـة الخانجي ، القاهرة ، 1988 .
3- دوشـارتـر، فوشيـه ، (ت بعد 521هـ/1127م) أعمـال الفرنجـة الحاجّيـن الـى بيـت المقـدس، تعريـب، زيـاد العسلـي، دار الشـروق، عمان، 1990 .
4- الرهـاوي المجهول ، (ق6هـ/12م) روايـات الرهـاوي ، تعريـب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995، ج5.
5- الصـوري، وليـام (ت581هـ/1185م) تاريـخ الأعمـال التـي تمـت فيمـا وراء البحـار ، تعريـب، حسن حبشـي، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب ، (د.م) ، 1994.

6- السرياني، ميخائيل الكبير، (ت596هـ/1199م) حولية السرياني، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1995.

7- ابن العبري، غريغوريس الملطي (685هـ/ 1286م) تاريخ مختصر الدول، تصحيح، أنطون صالحاني، الرائد اللبناني، بيروت، ط2، 1994.

8- فورزبورغ ، يوحنا ، (ق6هـ/12م) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين/ مخطوطة تيجيرنسي، تعريب وتحقيق، سعيد البشياوي، الشروق، عمان، 1997 .

9- دي سوخم، لودولف فون، (ت بعد742هـ/1341م) وصف الأرض المقدسة، تعريب، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، 1999 .

10- النورماني المجهول ، (ت ق6هـ/12م) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، تعريب ، سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة ، دمشق، 1995 .

ثالثاً : المراجع العربية :-

1- باشا، تيمور باشا أحمد، ضبط الأعلام ، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، 1947 م .

2- بدوي ، أحمد ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط2، (د.ت) .

3- صلاح الدين بين شعراء عصره وكتّابه ، دار القلم ، القاهرة، 1960 .

4- بيومي ، محمد ، صلاح الدين قاهر العدوان الصليبي، دار القلم، دمشق، 1998 .

5- تبريزي، عليا ، المخطط الأعظم لتحرير القدس، المكتبة العصرية، بيروت - صيدا، 2003.

6- الحارث ، عدنان ، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، زهراء الشرق ، القاهرة ، 1999 .

7- أبو حديد ، محمد ، صلاح الدين الأيوبي وعصره ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1927 .

8- حسين ، حسن ، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، المعرفة الجامعية، السويس، 1999 .

9- حمادة ، محمد ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1982 .

10- أبو خليل ، شوقي ، مجلد التاريخ العربي الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، ط5 ، 2002 .

11خليل ، فؤاد ، الإقطاع الشرفي ، دار المنتخب العربي ، بيروت، 1996 .

12زيان ، حامد ، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، الثقافة ، القاهرة 1983.

13سالم ، السيد ، وآخرون ، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة ، أسكندرية ، 1992 .
14سرور ، محمد ، تاريخ الدولة الفاطمية، الفكر العربي، القاهرة، (د.ت) ، ص 115 .
15سعادة ، صفية ، من تاريخ بغداد الاجتماعي في الفترتين البويهية والسلجوقية ، أمواج للطباعة، بيروت، 1988 .
16سيد، أيمن ، الدولة الفاطمية في مصر ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ، 1992 .
17شبارو ، عصام ، السلاطين في المشرق العربي ، النهضة العربية، (د.م)، 1994 .
18شكيل ، هادية ، القاضي الفاضل ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت، 1993.
19شلبي ، محمود ، حياة صلاح الدين ، دار الجيل ، لبنان ، ط3 ، 1989 .
20شمسياني، حسن ، مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983 .
21الشيال ، جمال الدين ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، الثقافة الدينية، القاهرة، 2002 .
22الشيخ ، محمد ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1990 .

23صبرة ، عفاف ، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، الكتاب الجامعي، القاهرة ، 1985.

24أبوصوة ، محمود ، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي ، دار اليجا ، فاليتا، 1997 .

25العارف ، عارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994 .

26عاشور ، سعيد ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .

27عطية ، حسين ، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، المعرفة الجامعية ، أسكندرية ، 1989 .

28علي ، وفاء ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، الفكر العربي ، القاهرة ، (د.ت) .

29عمران ، محمود ، تاريخ الحروب الصليبية ، المعرفة الجامعية ، السويس، 2000 .

30عوض ، محمد، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات ، القاهرة ، 2000 .

31غنيم ، أسمت ، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، أسكندرية ، 1990 .

32غوانمة ، يوسف ، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، 1995 .

33قاسم قاسم ، وآخرون ، الأيوبيون والمماليك ، مركز عين للدراسات، القاهرة ، (د.ت) .
34قلعجي ، قدري ، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب، دار المطبوعات ، بيروت ، 1992 .
35الكفراوي ، عوف ، المالية العامة في الإسلام، الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية ، 1997 .
36ماجد، عبد المنعم ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، الفكر العربي ، القاهرة ، ط4 ، 1994 .
37الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، الفكر العربي، القاهرة، 1997.
38محمود ، على ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات، القاهرة، 1996 .
39مصطفي ، شاكر ، صلاح الدين الفارس المجاهد، دار القلم، دمشق، 1998 .
40المطوي ، محمد ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 1982.
41مقامي ، نبيلة ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 1994 .

رابعاً : المراجع الأجنبية المعربة :-

1. أرمسترونـغ ، كـارين ، القـدس مدينـة واحـدة وثـلاث عقائـد ، تعريـب، فاطمة نصر ، وآخرون، مطبعة سطور ، (د.م) 1998 .
2. باركـر ، أرنسـت ، الحـروب الصليبيـة ، تعريـب ، السـيد العرينـي ، النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، (د–م) .
3. بـراور ، يوشـع ، مملكـة بيـت المقـدس اللاتينيـة ، تعريـب ، عبدالحافظ البنا ، مركز عين للدراسات ، (د.م) ، 2001 .
4. بروكلمـان ، كـارل ، تاريـخ الشعـوب الإسـلاميـة ، تعريب ، نبيه فـارس وآخرون ، العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1968 .
5. بـوزورث ، كليفورد ، الأسرات الحاكمـة في التاريخ الإسـلامي ، تعريب، حسين اللبودي ، الشراع العربي ، الكويت ، ط2 ، 1995 .
6. لـين بـوول، ستانلي ، صـلاح الديـن وسقـوط مملكـة القـدس ، تعريـب ، فاروق أبو جابر ، مطابع الأهرام ، القاهرة ، 1995 .
7. جــب ، السير هـاملتون ، صـلاح الديـن الأيوبـي ، تعريـب ، يوسـف ايبش، بيسان للنشر ، بيروت ، ط 2 ، 1996.
8. جورافسكي ، إليسكي ، الإسـلام والمسيحية ، تعريب ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1996 .
9. ديورانت ، وول ، قصـة الحضـارة ، تعريب ، محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1965.
10. رنسيمـان ، ستيفين ، تاريـخ الحروب الصليبية ، تعريب ، نور الدين خليل، (د . ت) ، الإسكندرية ، 1998 .

11. رستون ، جيمس ، محاربون في سبيل الله ، تعريب ، رضوان السيد، مكتبة العبيكات ، الرياض ، 2002 .
12. زابوروف ، ميخائيل ، الصليبيون في الشرق ، تعريب، إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986.
13. زامباور، ادوارد، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، تعريب ، زكي حسن وآخرون ، الرائد العربي ، بيروت ، 1980.
14. سوريال، عزيز، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تعريب ، فيليب سيف ، دار الثقافة ، القاهرة ، (د . ت) .
15. سيمينوفا ، ليديا ، صلاح الدين والمماليك في مصر ، تعريب ، حسن بيومي ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 1998.
16. شاندور ، ألبير ، صلاح الدين الأيوبي ، تعريب ، سعيد أبو الحسن، دار طلاس ، دمشق ، ط2 ، 1993 .
17. كاهن ، كلود ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، تعريب ، أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، 1995 .
18. لويس ، برنارد ، الحشاشون ، تعريب ، محمد موسى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط 2 ، 2006 .
19. ماير ، هانس ، تاريخ الحروب الصليبية ، تعريب ، عماد الدين غانم ، جامعة طرابلس ، طرابلس ، 1990 .

20. معيوف، أمين ، الحروب الصليبية كما رآها العرب، تعريب، عفيف دمشقية، دار الفارابي، (د.م) (د.ت) .

21. ويستنفلد ، جدول السنين الهجرية بما يوافقها من الميلادية ، تعريب، عبد المنعم ماجد وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1980 .

خامسا: المراجع الأجنبية غير المعربة:

1- Boas , Adrian . Crusades Archaeology , Rout Ledge , London - New York , 1999 .

2- Devries , Kelly , Medieval Weapons , Acid free paper , USA , 2007 .

3- Hodgson , Marshall . The Venture Of Islam , Chicago , USA , 1992 .

4- Madden , Thomas . Crusades The Illustrated History , Michigan Press, 2004 .

5- Nicolle , David . Saladin And The Saracens , World Print Ltd , Hong Kong , R8 , 1996 .

6- The Crusades , Osprey Publishing , Chicago , 2001 .

7- The Third Crusades , Osprey Publishing; USA, 2006 .

8- Hattin 1187 , Osprey Military .

9- Oldenbourg , Zoe . The Crusades , Random House , New York , 1966 .

10- Oneal , Michael . The Crusades Almanac , Thomson Gale , USA , 2005 .

11- Runciman , S, A History Of The Crusades, **Cambredge , 1954 .**
12- Saunders , J.J . A History Of Medieval Islam , Rout ledge , London- New York. 2002 .
13- Smith **,** Jonathan **.** History Of The Crusades, Oxford, 1999 **.**
14- Tyerman , Christopher . The Crusades Avery Short Introduction , Oxford , GB , 20**04 .**
15- Fighting For Christendom , Oxford University Press , GBR , 2004 .
16- Varney , Allen . The Crusades Campaign Source Book, TSR, USA, 1994 **.**

سادساً : الدوريـات العلميـة :-

1. زيتون ، عادل ، المجتمع الصليبي في مذكرات أمير عربي، مجلة العربي، الكويت،ع 555، 2005 .
2. عريكيز ، جمال ، الحروب الإفرنجية والجهاد الإسلامي في الأعمال العربية والأوربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة طرابلس ، العدد الثامن، 2008 .
3. همفريز ، ستيفين ، من صلاح الدين إلي المغول ، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت ، العدد الخامس عشر ، 1980.

سابعاً : الرسـائـل العلميـة :-

1. عريكيز، جمال ، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي 492 – 660هـ / 1098 – 1262، رسالة ماجستير منشورة بـالمركز الوطني للوثائق والمحفوظات ، جامعة طرابلس ، 2000 .

ثامنـاً : مواقـع وعنوانين وروابـط من الإنترنت:-

3- Ayyubids coins
4- Saladin's History .
5- WWW. Ayyubids Archeology . Net
6- WWW . Castle Damascus Syria .
7- WWW . Castle Aleppo Syria .

أخيرا، روابط إلكترونية ذات صلة في التاريخ الوسيط :

1- http://www.archive.org/details/tar03
2- http://www.archive.org/details/tar04
3- http://www.archive.org/details/tar08
4- http://www.4shared.com/get/48750345/25faf2f2/_online.ht ml

5- http://www.4shared.com/get/52176796/ef7cc5a8/
1095-1291.html

6- http://www.4shared.com/get/52291648/18db08a3/
.html

7- http://www.4shared.com/get/34836269/89a0cda8/
- .html

8- http://www.4shared.com/get/52160381/7701bffa/
.html

9- http://www.4shared.com/get/59717773/e237398b/
.html